حين يخاطب الله المؤمنين ويناديهم بقوله : « يأيها الذين آمنوا » فلتعلم أن ما يجيء بعد ذلك هو تكليف من الحق سبحانه . فساعة ينادى الحق المؤمنين به ، فإنه ينادى ليكلف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا من آمن به ، أما حين يدعو غير المؤمن به إلى رحاب الإيمان ، فإنه يثير فيه القدرة على التفكير ، فيقول له :

فكّر فى السماء ، فكّر فى الأرض ، فكّر فى مظاهر الكون ، حتى تؤمن أن للكون إلها واحدا . فإذا آمن الإنسان بالإله الواحد ، فإن الحق سبحانه وتعالى يقول له مادمت قد آمنت بالإله الواحد ، فَتَلَقَّ عن الإله الحُكم .

إن الحق حين يقول : « يأيها الذين آمنوا » فهو سبحانه يخاطب بالتكليف المؤمنين به ، وهو لا يكلف بـ « افعل » و« لا تفعل » إلا من آمن ، أما من لم يؤمن فيناديه الله ليدخل فى حظيرة الإيمان : « يأيها الناس اعبدوا ربكم » فإذا ما دخل الإنسان فى حظيرة الإيمان فالحق سبحانه وتعالى يكرم هذا المؤمن بالتكليف بـ « افعل » و« لا تفعل » ومادام العبد قد آمن بالإله القادر الحكيم الخالق ، القيوم ، فليسمع من الإله ما يصلح حياته . ويجيء فى بعض الأحيان ما ظاهره أن الله ينادى مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان كقول الحق : « يأيها الذين آمنوا آمنوا » .

ويتساءل الإنسان كيف ينادى الله مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان ؟ وهنا نرى أن المطلوب من كل مؤمن أن يؤدى أفعال الإيمان دائما ويضيف لها ليستمر ركب الإيمان قويا ، فالحق حين يطلب من المؤمن أمرًا موجودا فيه ؛ فلنعلم أن الله يريد من المؤمن الاستدامة على هذا اللون من السلوك الذى يحبه الله ، وكأن الحق حين يقول : « يأيها الذين آمنوا آمنوا » إنما يحمل هذا القول الكريم أمرًا بالاستدامة على الإيمان ، لأن البشر من الأغيار . ونحن نعرف أن الله أفسح بالاختيار مجالا لقوم آمنوا فارتدوا ، فليس الأمر مجرد إعلان الإيمان ثم تنتهى المسألة ، لا ، إن المطلوب هو استدامة الإيمان .

وحين نقرأ قول الحق : « يأيها الذين آمنوا » فلنفهم أن هناك تكليفا جديدا ، ومادام فى الأمر تكليف فعنصر الاختيار موجود ، إذن فحيثية كل حكم تكليفى من الله له مقدمة هى : « يأيها الذين آمنوا » ولا تبحث أيها المؤمن فى علة الحكم ،

وتسأل: لماذا كلفتني يارب بهذا الأمر ؟ فليس من حقك أيها المؤمن أن تسأل: « لماذا » مادمت قد آمنت ؛ فالحق سبحانه لم يكلف إلا من آمن به ، فإذا كنت ـ أيها المؤمن ـ قد آمنت بأنه إله صادق قادر حكيم فأمن الله على نفسك ، ونفذ مطلوب الله بـ « افعل » و« لا تفعل » سواء فهمت العلة أم لم تفهمها . وسبق أن ضربنا المثل ومازلنا نكرره .

إن المريض الذى يشكو من سوء الهضم بعد تناول الطعام يفكر أن جهازه الهضمى مصاب بعلة ، ويفكر فى اختيار الطبيب المعالج ويختار طبيبا متخصصا فى الجهاز الهضمى ، ويذهب إلى هذا الطبيب . وهنا ينتهى عمل العقل بالنسبة للمريض ؛ فقد اختار طبيبا وقرر الذهاب إليه ، والطبيب يجرى الفحص الدقيق ، ويطلب التحاليل اللازمة إن احتاج الأمر ، ويشخص الداء ، ثم يكتب الدواء ، وحين يكتب الطبيب الدواء للمريض ، فإن المريض لا يصح أن يقول للطبيب . لن آخذ هذا الدواء إلا إذا أقنعتنى بحكمته . بل عليه أن ينفذ كلام الطبيب ، وهكذا يطيع المريض الطبيب ، وكلاهما مساوٍ للآخر فى البشرية ، فكيف يكون أدب الإنسان مع خالقه ؟ إن كل عمل العقل عند المؤمن هو أن يؤمن بالله ، وبعد أن آمنت ـ أيها المؤمن ـ بالله حكيما ، فتَلَقَّ عن الله الحكم ؛ لأنه مأمون على أن يوجهك لأنك أنت صنعته .

إن الحق يأمر المؤمن بالصلاة ، وعلى المؤمن أن يؤديها ، ولا يبحث عن علة الصلاة كأنها رياضة مثلا ، لا ، إن الأمر صادر من الحق بالصلاة ، وحين تصلى ، فإنك تلتفت إلى أن نفسك قد انشرحت بالصلاة وشعرت بالراحة ، فتقول لنفسك : ما أحلى راحة الإيمان ؛ هذه هى علة الحكم الإيمانى . إن علة الحكم الإيمانى يعرفها المؤمن بعد أن ينفذه ، ولذلك نجد الحق من فضل كرمه ، يقول لنا :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فأنت ساعة أن تتقى الله فى الحكم ، يعطيك العلة ، ويعطيك راحة الإيمان ، إنك أيها العبد لا تسأل أولا عن الاقتناع بالعلة حتى تنفذ حكما لله ، لأن الحق

سبحانه قد يؤجل بعض حيثيات الأحكام لخلقه قرونا طويلة ، ومثال ذلك أننا ظللنا لا نعرف علة حكم من الأحكام لما ؛ أربعة عشر قرنا من الزمان مثل تحريم أكل لحم الخنزير ، فهل كان على العباد المؤمنين أن يؤجلوا أكل لحم الخنزير أربعة عشر قرنا إلى أن يمتلكوا معامل للتحليل حتى نعرف المضار التى فيه ؟ تلك المضار التى ثبتت معمليا .. لا .

إن العباد المؤمنين لم يؤجلوا تنفيذ الحكم ، ولكنهم نفذوه ، واكتشف أحفاد الأحفاد أن فيه ضررًا ، وهذا يدفعنا إلى تنفيذ كل حكم لا نعرف له علة ، إن هذا الحكم له حكمة عند الله قد لا يستطيع عقل الإنسان أن يفهمها ، ولكن ستأتى أشياء توضح بعض الأحكام فيها لم يكن يعرفه الإنسان ، وتعطينا تلك الإيضاحات الثقة فى كل حكم لا تعرف له علة ، وتصبح علة كل حكم هى : « ياأيها الذين آمنوا » .

إن الحق بهذا القول ينادى كل عبد من عباده : يا من آمنت بى إلها خذ منى هذا التكليف . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يقول الطبيب : يا من صدقت أنى طبيب لمرضك خذ هذا الدواء وستشفى بإذن الله .

وعندما يزور الإنسان مريضا ويسأله : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فالمريض يجيب : لقد كتب الطبيب لى هذا الدواء ، فما بالنا بتنفيذ أحكام الله ؟ إنه يجب أن تنفذها لأن الله قالها ، ولذلك فالعاقلون بعمق وجدية يختلفون عن مُدعى العقل بسطحية ، هؤلاء العاقلون الجادون يقولون : إن هذا العقل مطية يوصلك إلى باب السلطان ولكن لا يدخل معك عليه . فكأن العقل يوصلك إلى أن تؤمن بالله ، ولكنه لا يحشر نفسه فيما ليس له قدرة عليه .

إن الحق سبحانه فى هذا التكليف القادم : « ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » أى إنكم مادمتم قد آمنتم ، فعليكم الحفاظ على هذا الإيمان بأن تبعدوا عنه نزغ الشيطان وكيد الأعداء . إن نزغ الشيطان وكيد الأعداء إنما يأتى من البطانة التى تتداخل مع الإنسان .

ولنفهم كلمة « بطانة » جيدا ، إن بطانة الرجل هم خاصته ، أى الناس الذين

يصاحبهم ويجلسون معه ويعرفون أسراره ، وكلمة « بطانة » مأخوذة أيضا من بطانة الثوب ؛ فنحن عندما نمسك أي قطعة من ثياب نرى أن الثوب خشن ، ولذلك فالصانع يضع للثوب الخشن بطانة ناعمة ويختارها كذلك ؛ لأنها متصلة بالجسم ، والبطانة من الأصدقاء تدخل على الناس بالنعومة وتسميلهم وتستعبدهم . ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « الأنصار شعار ، والناس دثار »[١] .

« والشعار » هو الثوب الذي يلامس شعر الجسد ، والنبي صلى الله عليه وسلم يُعلي من قيمة الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية بمودة وحب . وهكذا نعرف أن كلمة « بطانة » مأخوذة ـ كما قلنا ـ من بطانة الثوب ، لأنها التي تلتحم بالجسم حتى تحميه ؛ فنحن نرتدي الصوف ليعطينا الدفء ، ونضع بينه وبين الجسم بطانة لنبعد عن الجسم خشونة الصوف ، ويسمون البطانة بالوليجة ، أي التي تدخل في حياة الناس ، وكل شر في الوجود من هذه البطانة .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معصوم ومُوحًى إليه وله من الصحابة ما يطمح أي عبد مؤمن أن يتخذه قدوة له ، هذا الرسول الكريم نجد بعضا من وصفه في حوار بين سيدنا الحسين رضوان الله عليه و أبيه سيدنا علي كرم الله وجهه قال الحسين :

يا أبي قل لي عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال علي كرم الله وجهه :

كان رسول الله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . وفي الحديث : « كان رسول الله يكثر الذكر »[٢] .

لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطال حركة بحركة ، فمن كان قائما فقعد فقد أدى حركة هي القعود ، ومن كان جالسا فقام ، فقد أدى حركة هي القيام . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر الله في كل حركة ، شاكرا نعمة الخالق عز وجل ، والإنسان منا يستطيع أن يسأل نفسه : كم عضلة يحركها الإنسان حتى يقعد أو يقوم ؟

---

(١) رواه البخاري في المغازي ، ورواه مسلم في الزكاة ، ورواه ابن ماجه في المقدمة ، ورواه أحمد في مسنده .

(٢) رواه النسائي في الجمعة .

إنها أعداد كبيرة من العضلات تتحرك لتوازن ارتفاع الجسم أو جلوسه ، وهى أعداد لا يعرفها الإنسان . فما الذى جعل هذه الأجهزة الصماء تفهم مراد الإنسان ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القيام ، فإنه يقوم ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القعود ، فإنه يقعد ؟ إنك إذا رفعت يدك لا تعرف ما هى العضلات التى تتحرك لترفع اليد ، وتلك إدارة عالية يقول عنها الشاعر :

«وفيك انطوى العالم الأكبر»

كأن العالم الكبير قد انطوى وصار فى داخلك أنت . إنك إن أردت أن تنام فإنك تنام ، وتحب أن تقوم فتقوم . ويبين لك الحق أن أوامرك لعضلاتك وتحكمك فى مملكة جسدك ، هى من تسخير الله ؛ تدرك ذلك حين تنظر حولك فتجد أنه سبحانه قد سلب أحدا غيرك القدرة على رفع الذراع . وإياك أن تظن أن الحركة قد واتتك لمجرد أن لك يدا ، لا ، إن غيرك قد تكون له يد ؛ ولكنه لا يستطيع أن يأمرها فتتحرك . وهكذا نعرف أن كل الإرادات فى النفس إنما تتحرك بتسخير الحق لها لخدمة الإنسان .

قال صلى الله عليه وسلم : «إذا استيقظ أحدكم فليقل:الحمد لله الذى ردَّ علىَّ روحى وعافانى فى جسدى وأذن لى بذكره»[1] .

انه يُوجه الإنسان إلى ذكر خالقه عند كل قيام أو قعود ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يعلمنا أنه عند كل انفعال بكل حركة من الحركات علينا أن نذكر الذى خلقنا وخلق فينا القدرة على الحركة .

وليسأل كل منا نفسه : كم حركة يتطلبها أمر من الإنسان بأن يحك ظهره مثلا ؟ إنه عدد غير معروف من الحركات . وهكذا علينا أن نحسن الأدب مع الله بأن نذكره فى كل حركة فهو الذى خلق كل إنسان منا صالحا لكل هذه القدرات .

---

(١) رواه ابن السنى

ونعود إلى وصف على كرم الله وجهه مجلسَ الرسول صلى الله عليه وسلم : كان لا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر .

ولنتنبه إلى دقة الرسول فى التعامل مع البطانة من البشر ، فهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها . ويوطن المكان ، أى أن يخصص مكانا لفلان ليجلس فيه ، لقد كان الرسول يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكذلك كان صحابته ، فلا أحد يجلس دائما بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة يتخيل معها الآخرون أنه صاحب حظوة ؛ فكلهم سواسية ونحن نرى فى عصرنا أن هناك من يتخذ لنفسه مكانا فى المسجد ، وهذا منهى عنه . فعن ابن عمرو رضى الله عنهما قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقرة الغراب وافتراش السبع وأن يوطّن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير »(١) .

ويضيف على كرم الله وجهه فى وصف مجلس رسول الله : وكان إذا ذهب إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، « وكان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ، يعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك »(٢) .

أهناك أدب أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهى به المجلس ، لقد أراد أن يضرب لنا المثل حتى تتنوع اللقاءات ؛ فاليوم قد يجلس مؤمن بجانب مؤمن من مكان بعيد ، وغدا يجلس كلاهما بجانب اثنين جاء كل منهما من مكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بتنوع اللقاءات .

ويقول على كرم الله وجهه : وكان رسول الله يعطى كل جلسائه نصيبهم من مجلسه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعطى نظرة لواحد ، فهو ينظر كذلك لكل

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى فى الصلاة والنهى عن نقرة الغراب أى تخفيف السجود بقدر وضع الغراب منقاره ، وافتراش السبع : هو بسط الذراعين فى السجود وعدم رفعهما ، وأن يوطن المكان : أى يلازمه فلا يصلى فى غيره .

(٢) رواه الطبرانى .

واحد فى مجلسه ، وإن تكلم كلمة إلى ناحية فهو يعطى كلمة أخرى إلى الناحية المقابلة ؛ وذلك حتى يعرف كل جليس للرسول أن المؤمنين سواسية ، وأنّه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الناس كافة ؛ وليس رسولا إلى قوم بعينهم ، وحتى يعرف كل واحد من جلسائه أنه يجلس إلى رسوله الذى بعثه الله إليه .

هكذا كان سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يعطى القدوة للناس ، وحتى يعرف كل إنسان أن التحام الناس بعضهم ببعض ؛ قد يسبب لواحد استغلال الالتحام فى غير صالح الإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه : ياأيها المؤمنون تنبهوا إلى أنكم فى معسكر من غير المؤمنين يقاتلكم ويعاند إيمانكم ، وهؤلاء لا يمكن أن يتركوكم على إيمانكم ، بل لابد أن يكيدوا لكم ، وهذا الكيد يتجلى فى أنهم يدسون لكم أشياء ، وينفذون إليكم .

ونعرف جميعا أن الإسلام عندما جاء كان كثير ممن آمن له ارتباطات بمن لم يسلم ؛ فهناك القرابة ، والصداقة ، والإلف القديم والجوار ، والأخوة من الرضاعة ؛ لذلك يحذر الحق من هذه المسائل ، فلا يقولن مؤمن:هذا قريبى ، أو هذا صديقى ، أو هذا حليفى ، أو هذا أخى من الرضاعة ، فالإسلام يحقق لكم أخوة إيمانية تفوق كل ذلك ، ولهذا فإياكم أن تتخذوا أناسا يتداخلون معكم بالود ؛ لأن الشر يأتى من هذا المجال ، وإياكم أن تعتقدوا أن فجوة الإيمان والكفر بينكم ستذهب أو تضيق ؛ لأن الكفار لن يتورعوا أن يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكل لون من الألوان ، وهم ـ الكفار ـ لا يقصرون فى هذا أبدا ، لذلك يأتى الأمر من الحق :

ياأيها الذين آمنوا ، احموا هذا الإيمان فلا تتداخلوا مع غير المؤمنين تداخلا يفسد عليكم أمور دينكم ؛ لأنهم لن يهدأوا . لماذا ؟ لأن حال هذه البطانة معكم سيكون كما يلى : « لا يألونكم خبالا » أى لا يقصرون أبدا فى الكيد لكم ، والخبال:هو الفساد للهيئة المدبرة للجسم وهو العقل ، ونحن نسمى اختلال العقل « خبلا » .

إن الحق يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ

﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالمنهى عنه ليس أن تتخذ بطانة من المؤمنين ، ولكن المنهى عنه هو أن تتخذ بطانة من غير المؤمنين ؛ لأن المؤمن له إيمان يحرسه ، أما الكافر فليس له ما يحرسه ، والبطانة من غير المؤمنين لا تقصر فى لحظة واحدة فى أنها تريد للمؤمنين الخبال والفساد ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنهم يحبون العنت والمشقة للمؤمنين « ودوا ماعنتم » والحق سبحانه وتعالى لا يريد لنا العنت ، وفى هذا يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

أى أنه سبحانه لو أراد ، لكلفكم بأمور كثيرة تحمل المشقة ، لكن الحق سبحانه يَسَّر لكم أيها المؤمنون ، لكن أهل الكفر لا يودون إلا الخبال للمؤمنين ، ويحبون المشقة لهم .

ومن أين تنشأ المشقة ؟ إنك حين تكون مؤمنا فأنت تقوم بما فرضه عليك الدين ، وهم يحاولون أن ينفخوا فى المؤمن بغير ما يقتضيه هذا الدين ، فتتوزع نفس المؤمن ، وبهذا النفخ تنقسم ملكات المؤمن على نفسها ، وعندما تنقسم الملكات على نفسها فإن القلق والاضطراب يسيطران على الإنسان ، فالقلق والاضطراب ينشآن عندما لا تعيش الملكات النفسية فى سلام وانسجام .

ونحن نرى ذلك فى المجتمعات التى وصلت إلى أرقى حياة اقتصادية وأمورهم المادية ميسرة كلها ، فالشيخوخة مُؤَمَّنة ، وكذلك التأمينات الصحية والاجتماعية ، ودخل الإنسان مرتفع ، لكنهم مع ذلك يعيشون فى تعب ، وترتفع بينهم نسبة الانتحار ، وينتشر بينهم الشذوذ ، والسبب وراء كل ذلك هو أن ملكاتهم النفسية غير منسجمة ، وسلام الملكات النفسية لا يتحقق إلا عندما يؤمن الإنسان ، ويطبق

تعاليم ما يؤمن به . فالرجل ـ على سبيل المثال ـ حين ينظر إلى حلاله ، أى زوجته ، ينظر إليها براحة ويشعر باطمئنان ؛ لأن ملكاته النفسية منسجمة ، أما عندما تتجه عيناه إلى امرأة ليست زوجته ، فإنه يراقب كل من حوله حتى يعرف هل هناك من يراه أو لا ؟ وهل ضبطه أحد أو لا ؟ وعندما يضبطه أحد فهو يفزع وتتخبط ملكاته .

لذلك يحذر الحق سبحانه المؤمنين : إياكم من البطانة من غير المؤمنين ، لأنهم لا يقصرون أبدا ولا يتركون جهدا من الجهود إلا وهم يحاولون فيه أن يدخلوكم فى مشقة . والمشقة إنما تنشأ من أن الكافر يحاول أن يجذب المؤمن إلى الانحراف والاضطراب النفسى وتشتت الملكات مستغلا القرابة والصداقة ، مطالبا أن يرضيه المؤمن بما يخالف الدين ، ولا يستطيع المؤمن التوفيق بين ما يطلبه الدين وما يطلبه الكافر ، لذلك تنقسم ملكات المؤمن ويحس بالمشقة . والكافرون لا يتركون أى فرصة تأتى بالفساد للمؤمنين إلا انتهزوها واغتنموها . « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم » .

ومادامت البغضاء قد بدت من أفواههم فكيف نتخذهم بطانة ؟ إنك حين تصنع لنفسك جماعة من غير المؤمنين ، فإنها تضم بعضا من المنافقين غير المنسجمين مع أنفسهم . والمنافق له لسان يظهر خلاف ما يبطن . وعندما يذهب المنافق إلى غير المؤمنين فإن لسان المنافق ينقل بالسخرية كلام المؤمن .

هكذا تظهر البغضاء من أفواه المنافقين المذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم لا ينتمون إلى الإيمان ولا ينتمون إلى الكفر ، والذى يصل المؤمنين من بغضاء هؤلاء قليل ؛ لأن ما تخفى صدورهم أكبر . وحين تبدو البغضاء من أفواههم ، فإما أن يقولوها أمام منافقين ، وإما أن يقولها بعضهم لبعض ، فيتبادلوا الاستهزاء والسخرية بالمؤمن،والله أعلم بمن قيل فيه هذا الكلام ، ولذلك فعندما يتحدث الكافرون بكلام فيما بينهم فالله يكشفهم ويفضحهم لنا نحن المؤمنين .

إن الله تعالى يكشف بطلاقة علمه كل الخبايا ، وكان على الكافرين والمنافقين أن يعلموا أن هناك إلها يرقب عملية الإيمان فى المؤمن حتى ينبهه إلى أدق الأشياء ، لكنهم كأهل كفر ونفاق فى غباء ، لقد كان مجرد نزول قول الحق:« قد بدت البغضاء من

أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » كان ذلك فرصة أمامهم ليدفعوا عن أنفسهم لو كانت صدورهم خالية من الحقد . لكنهم عرفوا أن الله قد علم ما فى صدورهم . إن الغيظ الذى فى قلوب هؤلاء الجاحدين الحاقدين قد نضح على ألسنتهم ، ولكن مَن الذى نقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ما فى صدور الكافرين مما هو أكثر من ذلك ؟

إنه الله ـ جلت قدرته ـ قد فضحهم بما أنزل من قوله تعالى : « وما تخفى صدورهم أكبر » إذن لم يعد لمن آمن بالله حجة ؛ لأن الله أعطاه المناعات القوية لصيانة ذلك الإيمان ، وأوضح الحق للمؤمنين أن أعداءهم لن يدخروا وسعا أبدا فى إفساد انتمائهم لهذا الدين ، فيجب أن ينتبه المؤمنون .

وإذا ما دققنا التأمل فى تذييل الآية نجد أن الحق قال : « قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » إذن ، فالآيات المنزلة من الله تعالى توضح ذلك ، وقد قلنا من قبل:إن الآيات ، إما أن تكون آيات قرآنية ، وإما أن تكون آيات كونية ، فالقرآن له آيات ، والكون له آيات . ولنسمع قول الحق بالنسبة للقرآن :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة النحل)

وفى مجال الكون يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا نعلم أن الآية هى الشىء العجيب اللافت الذى يجب أن ننتبه إليه لنأخذ منه دستورا لحياتنا . وعلى ذلك ، فالآيات القرآنية تعطى المنهج ، والآيات الكونية

تؤيد صدق الآيات المنهجية . ويجب أن تتفطنوا أيها المؤمنون إلى هذه الآيات . والذى يدل على أن المؤمنين قد عقلوا وتفطنوا ، أن الآية الأولى بينت أنهم قد نهوا عن أن يتخذوا بطانة من دونهم ـ أى من غير المؤمنين ـ وها هى ذى الآية التالية تقول :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾

ومازال الحديث والكلام عن البطانة ، وهويدل على أن البطانة لم تستطع أن تلوى المؤمنين عن الإيمان ، بل إن المؤمنين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان حاولوا أن يغيروا من الكافرين . ولم يفلح الكافرون أن يغيروا من المؤمنين ، وكذلك لم يفلح الكافرون أيضا أن يسيطروا على أنفسهم ، ولم يكن أمام هؤلاء الكافرين إلا النفاق ، لذلك قالوا:« آمنا » . إن الآية تدلنا على أن المؤمنين قد عقلوا آيات الحق . ولماذا ـ إذن ـ جاء الحق بقوله :« تحبونهم ولا يحبونكم » ؟

لقد أحب المؤمنون الكافرين حين شرحوا لهم قضية الحق فى منهج الإسلام ، وأراد المؤمنون أن يجنبوا الكافرين متاعب الكفر فى الدنيا والآخرة ، وهذا هو الحب الحقيقى ، فهل بادلهم الكافرون الحب ؟ لا ؛ لأن هؤلاء الكافرين أرادوا أخذ المؤمنين إلى الكفر ، وهذا دليل عدم المودة . ولم يستطع الكافرون تحقيق هذا المأرب ، ولذلك قالوا : « آمنا » ومعنى قولهم : « آمنا » يدلنا على أن موقف المسلمين كان موقفا صُلبا قويا ؛ لذلك لم يجد الكافرون بدًا من نفاقهم « وإذا لقوكم قالوا آمنا » قالوا ذلك على الرغم من ظهور البغضاء فى أفواههم ، ولم يكن سلوكهم مطابقا لما يقولون . وهنا بدأ المسلمون فى تحجيم وتقليل مودتهم للكافرين ؛ ولذلك

قال أهل الكفر : لو استمر الأمر هكذا فسوف يتركنا هؤلاء المسلمون .. وحتى يتجنبوا هذا الموقف ادعوا الإيمان فى الظاهر ، وينقلب موقفهم إذا خلوا لأنفسهم ، ويصور الحق هذا الموقف فى قوله : « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » فما هو العض ؟

إن العضَّ لغويا ، هو التقاء الفكين على شيء ليقضماه . وما الأنامل ؟ إنها أطراف الأصابع ، والأنامل فيها شيء من الدقة ، وشيء من خفة الحركة المأخوذة من خلية النمل ، ويسمون الأنامل أيضا البنان ، وعملية عض الأنامل عندما نراها نجدها عملية انفعالية قسرية . أى أن الفكر لا يرتبها ؛ فليس هناك من يرضى أن يظل مرتكبا لعملية عض أصابعه ، فعض الأصبع يسبب الألم ، لكن الامتلاء بالغيظ يدفع الإنسان إلى عض الأصابع كمسألة قسرية نتيجة اضطراب وخلل فى الانفعال .

ومن أين يجيء الغيظ ؟.

لقد جاء الغيظ إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوا المؤمنين قيد شعرة عن منهج الله ، بل حدث ما هو العكس ، لقد حاول المؤمنون أن يجذبوا الكافرين إلى نور الإيمان ، وكان الكافرون يريدون أن يصنعوا من أنفسهم بطانة يدخلون منها إلى المؤمنين لينشروا مفاسدهم ؛ ولذلك وقعوا فى الغيظ عندما لم يمكنهم المؤمنون من شيء من مرادهم .

إن الإنسان يقع أحيانا فريسة للغيظ حين لا يتمكن من إعلان غضبه على خصمه ؛ ولهذا إذا أراد إنسان من أهل الإيمان أن يواجه حسد واحد من خصومه فعليه أن يزيد فى فضله على هذا الإنسان ، وهنا يزداد هذا الخصم غيظا ومرارة ، أيضا نجد أن من تعاليم الإسلام أن الإنسان المؤمن لا يقابل السيئة التى يصنعها فيه آخر بسيئة ، وذلك حتى لا يرتكب الذنب نفسه ، ولكن يَتبع القول المأثور :

« إننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه »[1]

---

(١) هذا القول مسند إلى عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عندما جاء رجل فقال له : إن لى جارا يؤذينى ويشتمنى ويضيق على فقال : « اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه » من كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى ـ فصل حقوق الجوار .

إنهم بإحسان المسلمين إليهم يزدادون خصومة ، وغيظا وحقدا على الإسلام وكان المسلمون الأوائل يتصرفون بذلك الأسلوب لقد كانوا جبالا إيمانية راسخة .

فخصوم الإسلام يعصون الله بسوء معاملتهم للمسلمين ، لكنْ المسلمون يردون على سوء المعاملة بحسن المعاملة ، وساعة يرى خصوم الإسلام أن كيدهم لا يحقق هدفه فإنهم يقعون فى بئر وحمأة الغيظ . وعندما يخلو الكافرون لأنفسهم فأول أعمالهم هو عض الأصابع من الغيظ ، وهو كما أوضحت نتيجة الانفعال القسرى التابع للغضب والعجز عن تحقيق المآرب ؛ ذلك أن كل تأثير إدراكي فى النفس البشرية إنما يطرق مجالا وجدانيا فيها .

والمجال الوجدانى لابد أن يعبر عن نفسه بعملية نزوعية تظهر بالحركة ؛ فالإنسان عندما يسبب لواحد يعرفه لونا من الغضب فهو ينفعل بسرعة ويثور بالكلمات ، هذا دليل على طيبة الإنسان الغاضب . أمّا الذى لا يظهر انفعاله فيجب الحذر منه ؛ لأنه يخزن انفعالاته ، ويسيطر عليها ، فلا تعرف متى تظهر ولا على أية صورة تبدو ؛ ولذلك يقول الأثر : « اتقوا غيظ الحليم » فعندما تتجمع انفعالات جديدة فوق انفعالات قديمة متراكمة فى قلب الحليم فلا أحد يعرف متى يفيض به الكيل .

إذن فالإدراك ينشأ عنه وجدان ، فينفعل الإنسان بالنزوع الحركى . والتشريع الإسلامى لا يريد من الإنسان أن يكون حجرا أصم لا ينفعل ، لكنه يطلب من المسلم أن ينفعل انفعالا مهذبا ؛ ولذلك يضع الحق للمؤمن منهجا ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالْكَـٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إن القرآن يعترف بأن هناك من الأحداث ما يستدعى غيظ الإنسان ، والذى لا يغضب على الإطلاق إنما يسلك طريقا لا يتوافق مع طبيعة البشر السوية ، والله يريد من الإنسان أن يكون إنساناً ، له عواطفه وشعوره وانفعالاته ، ولكن الله المربى الحق يهذب انفعالات هذا الإنسان ، ولنا فى النبى صلى الله عليه وسلم القدوة

الحسنة ، فحين مات ولده إبراهيم :

قال عليه الصلاة والسلام : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »[1] .

إن النبى صلى الله عليه وسلم يمزج بين العاطفة والإيمان ، فالعين تدمع ، والقلب يحزن ، والإنسان لا يكون أصمّ أمام الأحداث ، إنما على الإنسان أن يكون منفعلا انفعالا مهذبا .

وعندما يعبرّ القرآن عن الإنسان السوىّ فهو لا يضع المؤمن فى قالب حديدى بحيث لا يستطيع أن يتغير فيقول سبحانه :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

إذن فليس المؤمن مطبوعا على الذلة ، ولا مطبوعا على العزة ، لكنه ينفعل للمواقف المختلفة ، فهذا موقف يتطلب ذلة وتواضعا للمؤمنين فيكون المؤمن ذليلا ، وهناك موقف آخر يتطلب عزة على الكافرين المتكبرين فيكون المؤمن عزيزا ، والحق سبحانه يقول عن المؤمنين :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية ٢٩ من سورة الفتح)

إن الرحمة ليست خلقا ثابتا ، ولا الشدة خلقا ثابتا ولكنّ المؤمنين ينفعلون للأحداث ، فحين يكون المؤمن مع المؤمنين فهو رحيم ، وحين يكون فى مواجهة الكفار فهو قوى وشديد . والله سبحانه لا يريد المؤمن على قالب واحد متجمد ،

(١) رواه البخارى فى الجنائز ومسلم فى الفضائل . وابن ماجه فى الجنائز ورواه أحمد فى المسند .

لذلك يقول الحق :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

إذن فالحق لم يمنع المؤمن من أن يعاقب أحدا على خطأ ، وذلك لأنه خلق الخلق وعليم بهم ، ولا يمكن أن يصادم طباعهم ، وذلك حتى لا يتهدد المؤمن فى إيمانه فيما بعد ، فالمؤمن لو ترك حقوقه فإن الكفار سيصولون ويجولون فى حقوق المسلمين ؛ وهذا فالمؤمن يتدرب على توقيع العقاب حتى على المؤمن المخطىء ، وذلك ليعرف المؤمن كيف يعاقب أى مجترىء على حق من حقوق الله . والمؤمن أيضا مطالب بأن يرتقى بعقابه ، فهو إما أن يعاقب بمثل ما عوقب به ، وإما أن يرتقى أكثر ، ويستمع لقول الحق :

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

لقد وضع الحق منهج الارتقاء بعد أن أعطى المؤمن الحق فى توقيع العقاب قصاصا ، وهكذا لم يقسر الله طبع الإنسان ولو أراد سبحانه ذلك لما خلق هذا الطبع إنه سبحانه يوضح لنا أن هناك انفعالا بالغيظ ، وأن المؤمن عليه أن يحاول كظم الغيظ أى لا يعبر عن الغيظ نزوعيا ، فإن أخرج المؤمن هذا الأمر من قلبه فمعناه أنه قد برىء وشفى منه وارتقى .

إذن فكظم الغيظ هو ألا يعبر المؤمن عن الغيظ نزوعيا ، فإن سبّك أحدٌ فأنت لا تسبّه ، وهذا الكظم يعنى كتمان الانفعال فى القلب ، فإذا ارتقى المؤمن أكثر وتجاهل حتى الانفعال بذلك ، فإنه يُخرج الغيظ من قلبه ، وهو بذلك يرتقى ارتقاء

أعلى ، ويصفه الحق بأنه دخول إلى مرتبة الإحسان ، فهو القائل : « والله يحب المحسنين » وهكذا يحسن المؤمن إلى المسبب للغيظ بكلمة طيبة .

فماذا يكون موقف الذى تسبب فى غيظك أيها المؤمن وأنت قد كظمت الغيظ فى المرحلة الأولى وعفوت فى المرحلة الثانية وإن أخرجت الانفعال من قلبك ، وصلت إلى المرحلة الثالثة وهى التى تمثل قمة الإيمان إنها الإحسان . . « والله يحب المحسنين » لابد أن يراجع المسبب للغيظ نفسه ويندم على ما فعل .

إن الإسلام لم يتجاهل المشاعر الإنسانية عندما طالب المؤمنين أن يحسنوا لمن أساء إليهم ، فالذى يمعن النظر ويدقق الفهم يعرف أن الإسلام قد أعطى المؤمن الحق فى الطبع البشرى حين قال : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ولكنه ارتقى بالمؤمن . وعندما ننظر إلى هذا الأمر كقضية اقتصادية ونحسبها بـ« منه » و« له » فسنجد أنّ المؤمن قد كسب . . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ ساعة يجد الأب ابنا من أبنائه قام بظلم أخ له فإن قلب الأب يكون مع المظلوم . فهب أن إنسانا أساء لعبد من عباد الله فإن الله كربٍّ مربٍّ يغار له ونحن نعرف أن واحدا قال لعارف بالله :

أتحسن لمن أساء إليك ؟ فقال العارف بالله : أفلا أحسن لمن جعل الله فى جانبى ؟

ولنعد الآن إلى غيظ الكافرين من المؤمنين ، إن غيظ الكافر ناتج من أن خصمه المؤمن يحب له الإيمان وليس فى قلبه ضغينة بينما الكافر يغلى من الحقد ، وبسبب هذا الأمر يكاد يفقد صوابه ؛ لذلك يقول الحق : « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

و« خلوا » المقصود بها . أن الكافرين إذا ما أصبحوا فى مجتمع كفرى وليس معهم مسلم أعلنوا الغيظ من المؤمنين ، ولقد فعلوا هذا الأمر ـ عض الأنامل من الغيظ ـ فى غيبة الإيمان والمؤمنين بالله ، لو كان عند هؤلاء الكافرين ذرة من تعقل لفكروا كيف فضحهم القرآن ، وهم الذين ارتكبوا هذا الفعل بعيدا عن المؤمنين ؟

ألم يكن لتفكيرهم أن يصل إلى أن هناك ربًا للمؤمنين يقول الحاقَّ من الأمور لرسوله ، ويبلغها الرسول للمؤمنين .

لكنهم مع ذلك لم يفهموا هذا الفضح لهم « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » وهنا ينبغى أنْ نفهم أنَّ هناك أمرًا قد يغيظ ، ولكن الإنسان قد يجبن أن ينفث غيظه ، فإذا غاظك أحد فقد تذهب إليه وتنفعل عليه ، أو قد تنفعل على نفسك وذلك هو ما يسمى بـ « تحويل النزوع » . فالغاضب يمتلىء بطاقة غضبية ، ومن يغضب عليه قد يكون قويا وصاحب نفوذ ، فيخاف أن ينفعل عليه ، فينفث الغاضب طاقة غضبه على نفسه بأن يعض على أنامله ، ومادامت المسألة هكذا ، فقد قال الحق :

﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة آل عمران)

ومعنى ذلك أن إغاظة المؤمنين لكم أيها الكافرون ستستمر إلى أن تموتوا من الغيظ ؛ لذلك فلا طائل من محاولتكم جذب المؤمنين إلى الكفر : « قل موتوا بغيظكم » .

ونحن قد عرفنا أنه ساعة يؤمر الإنسان بشىء ليس فى اختياره ـ لأن الموت ليس فى اختيارهم ـ وأن يختار بينه وبين شىء فى اختياره كالغيظ ، فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر إليه ليظل أسير الأمر الذى يقدر عليه وهو الغيظ حتى يدركه الموت .

وعندما يقول الحق : « موتوا بغيظكم » فهذا يعنى أن الكافرين لن يستطيعوا الموت ، ولكن سيظلون فى حالة الغيظ إلى أن يموتوا ؛ لأنهم لا يعرفون متى يموتون ، وهكذا يظلون على حالهم من الغيظ من المؤمنين ، ومادام الكافرون فى حالة غيظ من المؤمنين فهذا دليل على أن المؤمنين يطبقون منهجهم بأسلوب صحيح .

وفى هذه الآية بشارة طيبة للمؤمنين ونذارة مؤلمة للكافرين « قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » إن الحق يعلمنا أنه عليم بذات الصدور ، أى بالأمور التى

تطرأ على الفكر ، ولم تخرج بعد إلى مجال القول . وهو سبحانه القائل :

﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة آل عمران)

ومادام هو الحق العليم بما تخفى الصدور فهو قادر ليس فقط على الجزاء بما يفعلونه من عمل نزوعى ولكنه قادر على أن يجازيهم أيضا بأن يفضح الأعمال غير النزوعية الكامنة فى صدورهم ، وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

والقرآن كلام الله وله ـ سبحانه ـ الطلاقة التامة والغنى الكامل ، والعبارات فى المعنى الواحد قد تختلف لأن كل مقام له قوله ، وسبحانه يحدد بدقة متناهية اللفظ المناسب .. إنه هو سبحانه الذى قال :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة المعارج)

وهو سبحانه الذى قال :

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنه جل وعلا يتكلم عن المس فى الشر والخير ، ومرة يتكلم عما يحدث للإنسان كإصابة فى الخير أو فى الشر ، وفى الآية التى نحن بصدد الخواطر عنها تجد خلافا فى الأسلوب فسبحانه يقول : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » إنه لم يورد الأمر كله مسًّا ، ولم يورده كله « إصابة » إنه كلام رب حكيم وعندما نتمعن فى المعنى فإن الواحد منا يقول : هذا كلام لا يقوله إلا رب حكيم .

ولنتعرف الآن على « المس » و« الإصابة » بعض العلماء قال : إن المس والإصابة بمعنى واحد ، بدليل قوله الحق :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المعارج)

ولكننا نقول إن المس هو إيجاد صلة بين الماس والممسوس ، فإذا مس الرجل امرأته ، فنحن نأمره بالوضوء فقط ، لأنه مجرد التقاء الماس بالممسوس ، والأمر ليس أكثر من التقاء لا تحدث به الجنابة فلا حاجة للغسل ، أما الإصابة فهى التقاء وزيادة ؛ فالذى يضرب واحدا صفعة فإنه قد يورم صدغه ، فالكف يلتقى بالخد ، ويصيب الصدغ ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين المس والإصابة ، وحين يقول الحق : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم » .

فمعنى ذلك أن الحسنة الواقعة بسيطة ، وليست كبيرة إنها مجرد غنيمة أو قليل من الخير . . وفى حياتنا اليومية نجد من يمتلىء غيظا لأن خصمه قد كسب عشرة قروش ، وقد يجد من يقول له : لماذا لا تدخر غيظك إلى أن يكسب مائة جنيه مثلا ؟ ومثل هذا الغيظ من الحسنة الصغيرة هو دليل على أن أى خير يأتى للمؤمنين إنما يسبب

التعب والكدر للكافرين . فمجرد مس الخير للمؤمنين يتعب الكافرين فماذا عن أمر السيئة ؟

إن الحق يقول : « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » إن الكافرين يفرحون لأى سوء يصيب المؤمنين مع أنه كان مقتضى الإنسانية أن ينقلب الحاسد راحما :

وحسبك من حادث بامرىء
ترى حاسديه له راحمينا

يعنى حسبك من حادث ومصيبة تقع على إنسان أن الذى كان يحسده ينقلب راحما له ويقول : والله أنا حزنت من أجله .

إذن فلمّا تشتد إصابة المؤمنين أكانت تغير من موقف الكافرين ؟ . لا ، كان أهل الكفر يفرحون فى أهل الإيمان ، وإذا جاء خير أى خير للمؤمنين يحزنون فالحق يقول : « أن تمسسكم حسنة تسؤهم » والحسنة هى أى خير يمسهم مساً خفيفاً ، « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » ، فأنت مهما كادوا لك فلن يصيبوك بأذى .

إن المطلوب منك أن تصبر على عداوتهم ، وتصبر على شرّهم ، وتصبر على فرحهم فى المصائب ، وتصبر على حزنهم من النعمة تصيبك أو تمسك ، اصبر فيكون عندك مناعة ؛ وكيدهم لن ينال منك . اصبر واتق الله : لتضمن أن يكون الله فى جانبك ، « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » .
وما الكيد ؟ الكيد هو أن تبيت وتحتال على إيقاع الضرر بالغير بحيث يبدو أنه كيدٌ من غيرك ، أى تدبر لغيرك لتضره . وأصل الكيد مأخوذ من الكيد والكبد ، وهما بمعنى واحد ، فما يصيب الكبد يؤلم ؛ لأن الكبد هو البضع القوى فى الإنسان ، إذا أصابه شيء أعيى الإنسان وأعجزه ، ويقولون : فلان أصاب كبد الحقيقة أى توصل إلى نقطة القوة فى الموضوع الذى يحكى عنه .

وما معنى يبيتون ؟ قالوا : إن التبييت ليس دليل الشجاعة ، وساعة ترى واحداً

يبيت ويمكر فاعرف أنه جبان ؛ لأن الشجاع لا يكيد ولا يمكر ، إنما يمكر ويكيد الضعيف الذى لا يقدر على المواجهة ، فإن تصبروا على مقتضيات عداواتهم وتتقوا الله لا يضركم كيدهم شيئا ؛ لأن الله يكون معكم .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « إن الله بما يعملون محيط » . وساعة ترى كلمة « محيط » فهذا يدلك على أنه عالم بكل شىء . والإحاطة : تعنى ألا تشرد حاجة منه . وها هى ذى تجربة واقعية فى تاريخ الإسلام ؛ يقول الحق فيها مؤكدا : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » وعلى كل منا أن يذكر صدق هذه القضية .

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾

إنه فى هذه المرة - فى غزوة أحد - جاء الكفار بثلاثة آلاف وكان المسلمون قلة ، سبعمائة مقاتل فقط ، وحتى يبين الحق صدق قضاياه فى قوله : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » وليس المقصود هنا الكيد التبييتى بل عملهم العلنى ، أى واذكر صدق هذه القضية :

« وإذ غدوت من أهلك » ، والغدوة هى : أول النهار ، والرواح : آخر النهار ، والأهل : تطلق ويراد بها الزوجة ، والمقصود هنا حجرة عائشة ؛ لأن الرسول كان فيها فى هذا الوقت الذى أراد فيه كفار قريش أن يثأروا لأنفسهم من قتلى بدر وأسراهم ، لقد جمعوا حشودهم ، فكل موتور من معركة بدر كان له فرسان وله رجال ، حتى أنهم بعد معركة بدر قال زعيمهم أبو سفيان لأصحابه : قل للنساء لا تبكين قتلاكم فإن البكاء يذهب الحزن ، فالدموع يسمونها غسيل الحزن ، أو ذوب المواجيد ؛ فساعة يبكى إنسان حزين يقول من حوله : دعوه يرتاح .

فلو حزنت النساء وبكين على قتلى بدر لهبطت جذوة الانتقام ؛ لذلك قال أبو سفيان : قل لهن لا يبكين . إنه يريد أن يظل الغيظ فى مسألة بدر موجوداً إلى أن يأخذوا الثأر . وفعلاً اجتمع معسكر الكفر فى ثلاثة آلاف مقاتل عند أحد ، وبعد ذلك استشار النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه المسألة أصحابه وأرسل إلى واحد من أكبر المنافقين هو عبدالله بن أبى بن سلول ، وما استدعاه إلا فى هذه المعركة ، فقال عبدالله بن أبى بن سلول وأكثر الأنصار :

يا رسول الله نحن لم نخرج إلى عدو خارج المدينة إلا نال منا ، ولم يدخل علينا عدو إلا نلنا منه ، فإنا نرى ألا تخرج إليهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين وأشار آخرون من الصحابة بالخروج إليهم ، وقالوا :

« يارسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جُبنا عنهم وضعفنا ، ولم يترك أصحاب هذا الرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وافقهم على ما أرادوا »

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه ، وظن الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج أنهم قد استكرهوه على ما لا يريد فندموا على ما كان منهم ، ولما خرج عليهم قالوا : استكرهناك يا رسول الله ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما ينبغى لنبى لبس لأْمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل »[1].

وخرجوا إلى الحرب ، وهذا هو الذى يُذكِّرُ به القرآن صدقا للقضية التى جاءت فى الآية السابقة : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » .

(١) رواه ابن إسحاق والإمام أحمد ورواه الطبرانى بنحوه ، واللأمة : هى الدرع .

اذكر يا محمد :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾

(الآية ١٢١ سورة آل عمران)

و« تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » أى توطن المؤمنين فى أماكن للقتال ، وبوأت فلانا يعنى : وطنته فى مكان يبوء إليه أى يرجع ، واسمه وطن ؛ لأن الوطن يرجع إليه الإنسان .

انظر إلى الدقة الأدائية لقول الحق : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » أى تجعل لهم مباءة ووطنا . وكلمة « مقاعد » أى أماكن للثبات ، والحرب كرّ وفرّ وقيام ، والذى يحارب يثبته الله فى المعركة ، فكأنه مُوَطَّنٌ فى الميدان ، فكأن أمر الرسول إلى المقاتلين يتضمن ألا يلتفت أى منهم إلى موطن آخر غير موطنه الذى ثبّته وبوّأته فيه أى إن هذا هو وطنك الآن ؛ لأن مصيرك الإيمانى سيكون رهناً به .

إذن فقوله : « وإذْ غدوت من أهلك تبوىء » أى توطن « المؤمنين » وتقول لهم : إن وطنكم هو مقاعدكم التى ثبتكم بها . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالرماة ، وأمّر عليهم « عبدالله بن جبير » وهم يومئذ خمسون رجلا وقال رسول الله لهم :

« قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا »[1] .

لكنهم لم يقدروا على هذه لأن نفوسهم مالت إلى الغنيمة ؛ وشاء الله أن يجعل التجربة فى محضر من رسوله صلى الله عليه وسلم : حتى يبين للمؤمنين فى كل المعارك التى تلى ذلك أن اتباع أمر القائد يجب أن يكون هو الأساس فى عملية الجندية . وإنكم إن خالفتم الرسول فلا بد أن تنهزموا .

---

(١) رواه ابن سعد وابن هشام والبخارى بنحوه .

وقد يقول قائل : الإسلام انهزم فى أُحُد . ونقول : لا ، إن الإسلام انتصر. ولو أن المسلمين انتصروا فى « أحد » مع مخالفة الرماة لأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، أكان يستقيم لرسول الله أمر ؟

إذن فقد انهزم المسلمون الذين لم ينفذوا الأمر ، وكان لابد أن يعيشوا التجربة وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فحينما هبت ريح النصر على المؤمنين فى أول المعركة ، ابتدأ المقاتلون فى الانشغال بالأسلاب والغنائم ، فقال الرماة : سيأخذ الأسلاب غيرنا ويتركوننا ونزلوا ليأخذوا الغنائم ، فانتهز خالد بن الوليد وكان على دين قومه انتهز الفرصة وطوقهم وحدث ما حدث وأذيع وفشا فى الناس خبر قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكفأوا وانهزموا فجعل رسول الله يدعو ويقول : « إلىّ عباد الله » حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم فقالوا : يا رسول الله : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين

إن التحقيق التاريخى لمعركة أُحُد قد أكد أن المسألة لا تُعتبر هزيمة ولا انتصاراً ؛ لأن المعركة كانت لاتزال مائعة . وبعدها دعا الرسول من كان معه فى غزوة أحد إلى الخروج فى طلب العدو ، وأدركوهم فى حمراء الأسد وفرَّ الكافرون . إنّ الله أراد أن يعطى المؤمنين درساً فى التزام أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال الحق : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » .

إن الحق يذكر بمسئوليات القائد ، الذى يوزع المهام ، فهذا جناح أيمن وذاك جناح أيسر ، وهذا مقدمة وهذا مؤخرة . ويذيل الحق هذا بقوله : « والله سميع عليم » حتى يعرف المؤمنون أنه سبحانه قد شهد أن رسوله قد بوأ المؤمنين مقاعد القتال ، وسبحانه « عليم » بما يكون فى النيات ؛ لأن المسألة فى الحرب دفاع عن الإيمان وليست انقياد قوالب ، ولكنها انقياد قلوب قبل انقياد القوالب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ

وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

والفشل هو الجبن ، والطائفتان هما « بنو حارثة » من الأوس ، « وبنو سلمة » من الخزرج ، وهؤلاء كانوا الجناح اليمين والجناح اليسار ، فجاءوا فى الطريق إلى المعركة ، وسمعوا كلام المنافق ابن سلول ، إذ قال لهم : لن يحدث قتال ؛ لأنه بمجرد أن يرانا مقاتلو قريش سيهربون .

وقال ابن سلول المنافق للرسول : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم . إلا أن عبدالله ابن حارثة قال : أنشدكم الله وأنشدكم رسول الله وأنشدكم دينكم . فساروا إلى القتال وثبتوا بعد أن همّوا فى التراجع .

وما معنى « الهَمّ » هنا ؟ إن الهم هو تحرك الخاطر نحو عملية ما ، وهذا الخاطر يصير فى مرحلة ثانية قصداً وعزماً ، إذن فالذى حدث منهم هو مجرد هَمّ بخاطر الانسحاب ، لكنهم ثبتوا .

ولماذا ذلك ؟ لقد أراد الله بهذا أن يُثبت أن الإسلام منطقى فى نظرته إلى الإنسان ، فالإنسان تأتيه خواطر كثيرة . لذلك يورد الحق هذه المسألة ليعطينا العلاج . فقال : « إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا » .

وقد قال واحد من الطائفتين : والله ما يسرنى أنى لم أهم ـ أى لقد انشرح قلبى لأنى هممت ـ لأنى ضمنت أنى من الذين قال الله فيهم : « والله وليهما » ، وحسبى ولاية الله . لقد فرح لأنه أخذ الوسام ، وهو ولاية الله .

وهكذا نلتقط العبر الموحية من الآيات الكريمات حول غزوة أُحُد ، ونحن نعلم أن هذه الغزوة كانت الغزوة التالية لغزوة بدر الكبرى . وغزوة بدر الكبرى انتهت بنصر المسلمين وهم قلة فى العدد والعُدة ، ففى بدر لم يذهب المسلمون إلى

المعركة ليشهدوا حرباً ، وإنما ليصادروا أموال قريش فى العير تعويضاً لأموالهم التى تركوها فى مكة . ومع ذلك شاء الله ألاّ يواجهوا العير المحملة ، ولكن ليواجهوا الفئة ذات الشوكة ، وجاء النصر لهم .

ولكن هذا النصر ، وإن يكن قد ربّى المهابة للمسلمين فى قلوب خصومهم ، فإنه قد جمع همم أعداء الإسلام ليتجمعوا لتسديد ضربة يردون بها اعتبار الكفر ؛ ولذلك رأينا رءوس قريش وقد منعت نساءها أن يبكين على قتلاهم ؛ لأن البكاء يُريح النفس المتعبة ، وهم يُريدون أن يظل الحزن مكبوتاً ليصنع مواجيد حقدية تحرك النفس البشرية للأخذ بثأر هؤلاء ، هذا من ناحية العاطفة التى يحبون أن تظل مؤججة ، ومن ناحية المال فإنهم احتفظوا بمال العير الذى نجا ليكون وسيلة لتدبير معركة يردون فيها اعتبارهم .

وقد حاولوا قبل أُحُد أن يفعلوا شيئاً ، ولكنهم كانوا يُرَدّون على أعقابهم . فمثلاً قاد أبو سفيان حملة مكونة من مائة ، وأراد أن يهاجم بها المدينة فلما نمى خبرها إلى سيدنا رسول الله نهض بصحابته إليهم ، فبلغ أبا سفيان خروج رسول الله ، ففرّ هارباً وألقى ما عنده من مؤنة فى الطريق ليخفف الحمل على الدواب لتسرع فى الحركة ، ولذلك يسمونها « غزوة السويق » لأنهم تركوا طعامهم من السويق .
كما حاول بعض الكفار أن يُغيروا على المدينة بعد ذلك أكثر من مرة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب إليهم على رأس مقاتلين ، فمرة عددهم مائة ومرة مائة وخمسون ومرة مائتان ، وفعلاً شتت الرسول صلى الله عليه وسلم شملهم .
وكان من خطته صلى الله عليه وسلم حين يذهب إلى قوم كان يبلغه أنهم يُريدون أن يتآمروا لغزو المدينة أن يظل فى بلدهم وفى معسكرهم وقتا ليس بالقليل .

كل ذلك سبق غزوة أُحُد . وبعد ذلك تجمعوا ليجيئوا لغزوة أُحُد ، وكان ما كان ، والآيات التى تعالج هذه الغزوة فيها إيحاءات بما جاء فى المعركة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم بوأ للمقاتلين مقاعد للقتال ، وأمرهم بالثبات فى تلك المواقع لكن بعضا من المقاتلين ترك مكانه ، والبعض الآخر همّ بالانسحاب ، لكنه ثبت أخيراً ، وفرّ كفار قريش . وقد تجلت فى هذه المعركة آيات الله الكبيرة .

فحين نصر الله سبحانه وتعالى المسلمين « ببدر » وهم قلة ، لم يخرجوا لمعركة وإنما خرجوا لمصادرة عير . وربما ظن أناس أنهم بمجرد نسبتهم إلى الله وإلى الإسلام سينصرون على هذه الوتيرة ، ويتركون الأسباب فأراد الله أن يعلمهم أنه لابد من استنفاد الأسباب ، إعداداً لعدة ولعدد ، وطاعة لتوجيه قائد .

فلما خالفوا كان ولابد أن يكون ما كان . والمخالفة لم تنشأ إلا بعد استهلال بالنصر ، ولذلك سيجيء فيها بعد ستون آية حول هذه الغزوة ؛ لتبين لنا مناط العبرة في كل أطوارها لنستخرج منها العظة والدرس . ونعلم أن المنتصرين عادةً يكون الجو معهم رخاءً . ولكن الكلام هنا عن هزيمة من لا يأخذون بأسباب الله ، وهذا أمر يحتاج إلى وقفة ، فجاء القرآن هنا ليقص علينا طرفاً من الغزوة لنستخرج منها العبرة والعظة ، العبرة الأولى :

أنهم حينما خرجوا ، تخلف المنافقون بقيادة ابن أبيّ ، إذن فالمعركة إنما جاءت لتمحص المؤمنين . والتمحيص يأتي في الشيء الواحد ، أما التمييز فيأتي في شيئين : هذا مؤمن ، وهذا كافر ، إنما التمحيص يأتي للمؤمن ويعركه عركا ، ويبين منه مقدار ما هو عليه من الثبات ومن اليقين ، والحق إنما يمحص الفئة المؤمنة لأنها ستكون مأمونة في التاريخ كله إلى أن تقوم الساعة على حماية هذه العقيدة ، فلا يمكن أن يتولى هذا الأمر إلا أناس لهم قلوب ثابتة ، وجأش قوى عند الشدائد ، وهمة دونها زخارف الدنيا كلها .

وبعد ذلك يعالج النفس البشرية في أوضاعها البشرية ، فعقائد الإيمان لا تنصب في قلوب المسلمين بمجرد إعلان الإيمان ، ولكن كل مناسبة تعطى دفعة من العقيدة يتكون بعد ذلك الأمر العقدى كله . ولذلك يبين لنا الحق أن طائفتين من المؤمنين قد همت بالتراجع ، فهم نفوس بشرية ، ولكن أنفذت الطائفتان ذلك الهم أم رجعت وفاءت إلى أمر الله ؟ لقد رجعت الطائفتان . وهكذا رأينا بين الذين أعلنوا إيمانهم فئة نكصت من أول الأمر ، وفئة خرجت ثم عادت .

لقد تحدثت النفوس ولكن أفراد تلك الفئة لم يقفوا عند حديث النفس بل ثبتوا إلى نهاية الأمر ، ومنهم من ثبت إلى الغاية السطحية من الأمر كالرماة الذين رأوا النصر أولا ، وهؤلاء من الذين ثبتوا ، ما فرّوا أولاً مع ابن أبيّ ، وما كانوا من الطائفة التى

همت ، ولكنهم كانوا من الذين ثبتوا . لكنهم عند بريق النصر الأول اشتاقوا للغنائم ، وخالفوا أمر الرسول ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وبعد ذلك تأتى لقطة أخرى وهى ألا نفتن فى أحد من البشر ، فخالد بن الوليد بطل معسكر الكفر فى أُحُد ، وهو الذى استغل فرصة نزول الرماة عن أماكنهم ، وبعد ذلك طوق جيش المؤمنين ، وكان ما كان ، من خالد قبل أن يسلم ، ألم يكن فى غزوة الخندق ؟ لقد كان فى غزوة الخندق . وكان فى غزوات كثيرة غيرها مع جند الشرك ، فأين كانت عبقريته فى هذه الغزوات ؟ . .

إن عبقرية البشر تتصارع مع عبقرية البشر ، ولكن لا توجد عبقرية بشرية تستطيع أن تصادر ترتيباً ربانياً ، ولذلك لم يظهر دور خالد فى معركة الخندق ، لقد ظهر دوره فى معركة أُحُد ؛ لأن المقابلين لخالد خالفوا أمر القيادة فبقيت عبقرية بشر لعبقرية بشر ، ولكنهم لو ظلوا فى حضن المنهج الإلهى فى التوجيه لما استطاعت عبقرية خالد أن تطفو على تدبيرات ربه أبداً .

والتحقيق التاريخى لكل العسكريين الذين درسوا معركة أُحُد قالوا : لا هزيمة للمسلمين ولا انتصار للكفار ؛ لأن النصر يقتضى أن يُجلى فريق فريقاً عن أرض المعركة ، ويظل الفريق الغالب فى أرض المعركة . فهل قريش ظلت فى أرض المعركة أو فرّت ؟ لقد فرّت قريش .

ويُفسر النصر أيضاً بأن يؤسر عدد من الطائفة المقابلة ، فهل أسرت قريش واحداً من المسلمين ؟ لا . ولقد علموا أن المدينة خالية من المؤمنين جميعاً وليس فيها إلا من تخلف من المنافقين والضعاف من النساء والأطفال ، ولم يؤهلهم فوزهم السطحى لأن

يدخلوا المدينة .

إذن فلا أسروا ، ولا أخذوا غنيمة ، ولا دخلوا المدينة ، ولا ظلوا فى أرض المعركة ، فكيف تسمى هذا نصراً ؟ فلنقل:إن المعركة ماعت . وظل المسلمون فى أرض المعركة .

وهنا تتجلّ البطولة الحقة ؛ لأننا كما قلنا فى حالة النصر يكون الأمر رخاء ، حتى من لم يُبْلِ فى المعركة بلاءً حسناً ينتهز فرصة النصر ويصول ويجول ، ولكن المهزومين والذين أصيب قائدهم صلى الله عليه وسلم ، وضعف أن يصعد الجبل ، حتى أن طلحة بن عبيد الله يطأطىء ظهره لرسول الله ليمتطيه فيصعد على الصخرة . ورسول الله يسيل منه الدم بعد أن كسرت رباعيته وتأتى حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، بعد هذا ماذا يكون الأمر ؟ حتى لقد أرجف المرجفون وقالوا : إن رسول الله قد قُتل .

وكل هذا هو من التمحيص ، فمن يثبت مع هذا ، فهو الذى يؤتمن أن يحمل السلاح لنصرة كلمة الله إلى أن تقوم الساعة . ويتفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلاً من أبطال المسلمين كان حوله فلا يجده ، إنه « سعد بن الربيع » .

يقول عليه الصلاة والسلام : « مَن رجل ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار هو أبىّ بن كعب : فذهبت لأتحسسه ، فرأيته وقد طُعن سبعين طعنة ما بين ضربة سيف وطعنة رمح ورمية قوس . فلما رآه قال له : رسول الله يقرئك السلام ، ويقول لك : كيف تجدك ـ أى كيف حالك ـ ؟

قال سعد ابن الربيع : قل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جزاك الله عنّا خير ما جزى نبيا عن أمته ، وقل للأنصار ليس لكم عند الله عُذر إن خَلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف . ثم فاضت روحه .

انظروا آخر ما كان منه ، حين أُثخن فى المعركة فلم يقو على أن يحارب

بنصاله[١] ، انتهز بقية الحياة ليحارب بمقاله ، ولتصير كلماته دوياً فى آذان المسلمين . وليعلم أن هؤلاء الذين أثخنوه جراحاً ما صنعوا فيه إلا أن قربوه إلى لقاء ربه ، وأنه ذاهب إلى الجنة . وتلك هى الغاية التى يرجوها كل مؤمن .

ونجد أيضاً أن الذين يعذرهمُ القرآن فى أن يشهدوا معارك الحرب ، يتطوعون للمعارك ! فمثلا عمرو بن الجموح ؛ كان أعرج ، والعرج عذر أقامه الله مع المرض والعمى ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

وكان لعمرو بن الجموح بنون أربعة مثل الأسْد قد ذهبوا إلى المعركة ، ومع ذلك يطلب من رسول الله أن يذهب إلى المعركة ويقول له : يا رسول الله إن بَنِيَّ يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فوالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمّا أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك . وقال لبنيه : ما عليكم ألاّ تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه فقتل .

وهذا مؤمن آخر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن ابنى الذى استشهد ببدر رأيته فى الرؤيا يقول لى : « يا أبت أقبل علينا » فأرجو أن تأذن لى بالقتال فى « أُحد » فأذن له فقاتل فقُتل فصار شهيداً .

وتتجلّى الروعة الإيمانية والنسب الإسلامى فى حذيفة بن اليمان ، لقد كان أبوه شيخاً كبيرا مسلما فأخذ سيفه ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم لعل الله يرزقه الشهادة فى سبيل الله ، فدخل فى المعركة ولا يعلم به أحد فقتله المسلمون

---

(١) النِّصال : جمع نصل وهو حديدة السيف والسهم والرمح والسكين .

ولا يعرفونه ، فقال ابنه حذيفة : أبي والله . فقالوا والله ما عرفناه ، وصدقوا ، قال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤدى ديته ، فقال له حذيفة بن اليمان : وأنا تصدقت بها على المسلمين .

هذه الأحداث التي دارت في المعركة تدلنا على أن غزوة أُحُد كان لابد أن تكون هكذا ، لتمحص المؤمنين تمحيصاً يؤهلهم لأن يحملوا كلمة الله ويعلوها في الأرض . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

لقد نقلهم من معركة فيها شبه هزيمة أو عدم انتصار إلى نصر ، فكأنه يريد أن يقول : إن الأمر بالنسبة لكم أمر إلهكم الذى يرقبكم ويعينكم ويمدكم ويرعاكم . وإياكم أن تعتمدوا على العدد والعُدة ولكن اعتمدوا على الحق سبحانه وتعالى وعلى ما يريده الحق توجيها لكم ، لأن مدد الله إنما يأتى لمُستقبل لمدد الله ، ولا يأتى المدد لغير مستقبل لمدد الله .

ونعرف أن فيه فرقاً بين الفاعل وبين القابل ، فالفاعل شيء والقابل للانفعال بالفعل شيء آخر . وضربنا لذلك مثلاً : بأن الفاعل قد يكون واحداً ، ولكن الانفعال يختلف ، وحتى نقرب المسألة نقول : كوب الشاى تأتى لتشرب منه فتجده ساخناً فتنفخ فيه ليبرد ، وفى الشتاء تصبح لتجد يدك باردة فتنفخ فيها لتدفأ ، إنك تنفخ مرة لتبرد كوب الشاى ، ومرة تنفخ لتدفىء يدك ، إذن فالفاعل واحد وهو النافخ ، ولكن القابل للانفعال شيء آخر ، ففيه فاعل وفيه قابل ، ومثال آخر : إن القرآن كلام الله ولو أنه نزل على الجبال لخرّت خاشعة ، ومع ذلك يسمعه أناس ،

لا يستر الله عليهم بل يكشفهم لنا ويفضحهم بعظمة ألوهيته :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

إنهم لم ينفعلوا بالقرآن ، وقولهم : « ماذا قال آنفاً » معناه استهتار بما قيل . ونجد الحق يرد على ذلك بقوله تعالى :

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾

(سورة محمد)

إن الفاعل واحد والقابل مختلف . ويتابع الحق بلاغه الحكيم فى قوله :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

إذن فمدد الله لكم إنما يتأتى لمستقبِل إيمانى ، فإن لم يوجد المستقبِل ـ بكسر الباء ـ فلا يوجد المدد . فإذا كنت لا تستطيع أن تستقبل ما ترسله السماء من مدد نقول لك : أصلح جهاز استقبالك ؛ لأن جهاز الاستقبال كالمذياع الفاسد ، إن الإرسال من الإذاعات مستمر ، لكن المذياع الفاسد هو الذى لا يستقبل . إذن فإن كنت تريد أن تستقبل عن الله فلابد أن يكون جهاز استقبالك سليماً . ويوضح الحق ذلك بقوله جل جلاله :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ

رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾

ويبين سبحانه وتعالى كيفية إصلاح جهاز الاستقبال لتلقى مدد الله فيقول :

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

إن الحق سبحانه وتعالى ضرب المثل بالصبر والتقوى فى بدر مع القلة فكان النصر ، وهنا فى أحد لم تصبروا ؛ فساعة أن رأيتم الغنائم سال لعابكم فلم تصبروا عنها ، ولم تتقوا أمر الله المبلغ على لسان رسوله فى التزام أماكنكم . . فكيف تكونون أهلاً للمدد ؟

إذن من الذى يحدد المدد ؟ إن الله هوالذى يعطى المدد ، ولكن من الذى يستقبل المدد لينتفع به ؟ إنه القادر على الصبر والتقوى .

إذن فالصبر والتقوى هما العُدّة فى الحرب . لا تقل عدداً ولا عدة . ولذلك قال ربنا لنا : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ولم يقل : أعدوا لهم ما تظنون أنه يغلبهم ، لا . أنتم تعدون ما فى استطاعتكم ، وساعة تعدون ما فى استطاعتكم وأسبابكم قد انتهت . . فالله هو الذى يكملكم بالنصر .

والبشر فى ذواتهم يصنعون هذا ، فمثلا ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ

لنفترض أنك تاجر كبير . وتأتيك العربات الضخمة محملة بالبضائع ، صناديق وطرود كبيرة ، وأنت جالس بينها يفرغ العمال البضائع ، وجاء عامل لينزل الطرد فغلبه الطرد على عافيته ، وتجد نفسك بلا شعور منك ساعة تجده سيقع تهب وتقوم لنصرته ومعاونته ، لقد استنفد هذا العامل أسبابه ولم يقدر ، فالذى يعنيه الأمر يمد يده إليه ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى . كأنه يقول ابذل وقدّم أسبابك ، فإذا ما رأيت أسبابك انتهت والموقف أكبر منك ، فاعلم أنه أكبر منك أنت ولكنه ليس أكبر من ربك إنه سبحانه يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾

فإياك أن تظن أن المدد بالثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف ، الذين أنزلهم الله وأمدكم بهم أو بالملائكة المدربين على القتال . . إياكم أن تظنوا أن هذا المدد ، هو شرط فى نصر الله لك . بذاتك أو بالملائكة ؛ إنه قادر على أن ينصرك بدون ملائكة ، ولكنها بشرى لتؤنس المادة البشرية ، فساعة يرى المؤمنون أعداداً كبيرة من المدد ، والكفار كانوا متفوقين عليهم فى العدد ، فإن أسباب المؤمنين تطمئن وتثق بالنصر . إذن فالملائكة مجرد بُشرَى ، ولكن النصر من عند الله العزيز الذى لا يُغلب . وكل الأمور تسير بحكمته التى لا تدلوها حكمة أبداً . يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

وقطع الطرف يتحدد بمعرفة ما هو طرف لماذا ؟ فإن كان الطرف هو العدد الكثير فقطع الطرف أن يُقتل بعضه . وإن كان الطرف هو أرضا واسعة فقطع الطرف أن يأخذ من أرضهم . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الرعد)

لقد كانت الأرض الكُفْرِيّة تخسر كل يوم جزءاً منها لينضم هذا الجزء إلى الأرض الإيمانية ، هذا بالنسبة لسعة الأرض ، وافرض أن الطرف هو المال ، فقطع الطرف هنا يكون بأن نأخذ بعض المال كغنائم ، ثم هناك المنزلة التي كانت تهابها الجزيرة كلها ، كل الجزيرة تهاب قريشاً ، وقوافلها التجارية للشمال والجنوب لا تستطيع قبيلة أن تتعرض لها ؛ لأن كل القبائل تعرف أنها ستذهب إلى البيت في موسم الحج ، فلا توجد قبيلة تتعرض لها لأنها غداً ستذهب إلى قريش ، إذن فالسيادة والعظمة كانت لقريش ، وساعة تعلم القبائل أن رجال قريش قد كسروا وانهزموا ، وأن رحلتهم إلى الشام أصبحت مهددة ، فإنهم يبحثون عن فريق آخر يذهبون إليه .

إن قطع الطرف كان على أشكال متعددة ، فإن كان طرفَ عددٍ فيقتل بعضهم ، وإن كان طرفَ أرض فبعضها يؤخذ وتذهب إلى أرض إيمانية ، وإن كانت عظمة وقهرا تأتيهم الهزيمة ، وإن كان نفوذاً في الجزيرة فهو يتزلزل « ليقطع طرفاً من الذين كفروا » .

ولنلحظ أن الحق قد قال : « ليقطع طرفاً » ـ لم يقل ليستأصل ـ لأن الله سبحانه وتعالى أبقى على بعض الكفار لأن له في الإيمان دوراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتلئا بالعطف والرحمة والحنان على أمته ، وكان يحسن الظن بالله أن يهديهم ، ولذلك تعددت آيات القرآن التي تتحدث في هذا الأمر . ها هو ذا الحق يقول :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وفى موقع آخر بالقرآن الكريم يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

والله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فإنما عليك البلاغ » والرسول يحب أن يهتدى إلى الإيمان كل فرد فى أمته ، فقال الحق :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ۝ ١٢٨ ﴾

أى ليس لك يا محمد من الأمر شىء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بتوبتهم ، أو يعذبهم ، فلا يحزنك ذلك لأنهم ظالمون أى ما عليك يا محمد إلاّ البلاغ فقط . أما هم فقد ظلموا أنفسهم بالكفر . والظلم كما نعرف هو أخذ الحق من ذى الحق وإعطاؤه لغيره . وقمة الظلم هو إضفاء صفة الألوهية على غير الله ، وهو الشرك . ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

إن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ۝ ١٢٨ ﴾

« سورة آل عمران »

وهذه مسألة لم تخرج عن ملك الله ، لماذا ؟ لأن السماوات والأرض وما فيهن ملك لله : قيل أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد أن خضّب المشركون وجهه بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم - أراد عليه الصلاة والسلام أن يدعو عليهم فنهاه الله لعلمه - سبحانه - أن فيهم من يؤمن وأنزل قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾

وبما أننا نتحدث عن ملامح فى غزوة أحد أريد أن أقول : « جبل أُحدٍ رضى الله عنه » ؛ لأننا سمعنا بعض العارفين بالله حين تذكر كلمة « أحد » قال : أحد رضى الله عنه - فتعجب القوم لقول الشيخ عبدالله الزيدان الذى قال ذلك ، فلما رأى عجبهم قال لهم : ألم يخاطبه رسول الله بقوله : « اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان »[1] ، ألم يقل فيه رسول الله : « أحد جبل يحبنا ونحبه »[2] أتريدون أحسن من ذلك فى الصحبة !، قل : أحد رضى الله عنه .

وقلنا سابقاً : إنك إذا وقف عقلك فى حاجة فلا تأخذها بمقاييسك أنت ، بل خذها بالمقاييس الأعلى . ونحن نقول هذا الكلام لأن العلم الآن يجرى ويسعى سعياً حثيثا مسرعاً حول استخراج بعض أسرار الله فى الكون ، فبين لنا أن الحيوانات لها لغات تتفاهم بها ، ويحاولون الآن أن يضعوا قاموسا للغة الأسماك . والحق سبحانه وتعالى ذكر لنا حكاية النملة مع سليمان - عليه السلام - فقال :

---

(١) رواه البخارى فى فضائل الصحابة ، وأبو داود فى السنة ورواه أحمد فى المسند .

(٢) رواه البخارى عن سهل بن سعد ، والترمذى ، والطبرانى عن أنس وأحمد والطبرانى والضياء عن سويد بن عامر الأنصارى .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

هذا القول يدل على أنّ نملة خرجت وقامت بعمل (وردية) كى تحافظ على من معها ثم عادت لتتكلم مع أبناء فصيلتها ، وسمعها سيدنا سليمان ، فتبسم من قولها . إذن العلم يتسابق ويجد ويُسارع الآن ليثبت أن لكل جنس فى الوجود لغة يتفاهم بها ، وكل جنس فى الوجود له انفعال ، وكل جنس فى الوجود له تكاثر ، ولذلك قال الحق لنا على لسان سيدنا سليمان :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾

(من الآية ١٦ سورةالنمل)

وكانت هذه خصوصية لسيدنا سليمان عليه السلام ، إذن فللطير منطق . وعندما نتسامى ونذهب إلى الجماد نسمع قول الحق سبحانه فى آل فرعون وعدم بكاء الجماد عليهم :

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

هل تبكى السماء والأرض ؟ إنه أمر عجيب ؛ فالجماد من سماء وأرض لا تتفاهم فقط ولكن لها عواطف أيضاً ؛ لأن البكاء إنما ينشأ عن انفعال عاطفى وجدانى .

وهذا يعنى أن الجمادات لا تتكلم فقط ، ولكنها تحس أيضاً . فالأرض تخرج أثقالها ، وتحدث أخبارها ، كيف ؟

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ ﴾

(سورة الزلزلة)

والسماء والأرض أتيا إلى الله فى منتهى الطاعة والخشوع :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فهناك ما هو أكثر من التفاهم ، إن لها عواطف مثلك تماما ، وكما تحزنك حاجة فالأرض أيضاً تبكى ، ومادامت تبكى إذن فلها مقابل بأن تفرح ، ويقول الله تعالى عن أرض فرعون : « فما بكت عليهم السماء والأرض » فلو أنها لم تبك مع بعض الناس ؛ لما كان لهذا الكلام ميزة .

لذلك قال الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع مصلاه ؛ لأنه سيحرم من نعمة الإيمان ، ومصعد عمله ، موضع فى الأرض وموضع فى السماء . إذن فلابد أن نفهم أن لكل شىء شعوراً . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا مات المؤمن استبشرت له بقاع الأرض فليس من بقعة إلا وهى تتمنى أن يدفن فيها »[1]

لماذا نقول هذا الكلام الآن ؟ نقول ذلك حتى إذا ثبت بالعلم أن لكل شىء لغة ، ولكل شىء فى أجناس الكون تفاهما ، يقال إن فيه ناساً هبت عليهم نسمات الإيمان فأدركوها وأحسوها من القرآن ، فلا يدعى أحد أنه ابتكر من ذات نفسه لأنها فى القرآن وإن كنا لا نعرف كيف تأتى .

---

(١) رواه الديلمى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، وتكملة الحديث : « . . . . وإذا مات الكافر أظلمت الأرض فليس من بقعة إلا وهى تستعيذ بالله أن يدفن فيها » .

وهذه المعركة ـ معركة أُحُد ـ التي أخذت ستين آية ، نجد أن الحق تكلم عنها هنا فقال : « وإذ غدوت من أهلك » و« إذ همت طائفتان » ، وقوله : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » ، وبعد ذلك يترك الغزوة في حرارتها ويأتينا بأشياء يضعها هنا ، ثم يأتي ليكمل الغزوة . لو أن هذه لقطة من الغزوة وتنتهي ثم يأتي موضوع آخر ، لما شغلنا أنفسنا ، إنما الغزوة ستأتي فيها ستون آية ، فكيف ينهى الكلام في الغزوة ولا يعطينا إلا استهلال الغزوة ، وبعد ذلك ينصب القرآن على معانٍ بعيدة عن الغزوة ؟ فما الذي يجعله ـ سبحانه ـ يترك أمر الغزوة ليقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ
١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ
تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤
وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ
وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ
جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ
وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى
وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨ ﴾

(سورة آل عمران)

لماذا لم يعطنا الحق إلا استهلال الغزوة وبعد ذلك انصب على قضايا أولها قضية الربا ، ما العلاقة بين هذه القضايا وتلك الغزوة ؟ . وأقول : رحم الله صاحب

الظلال الوارفة الشيخ سيد قطب فقد استطاع أن يستخلص من هذه النقلة مبادىء إيمانية عقدية لو أن المسلمين فى جميع بقاع الأرض جعلوها نصب أعينهم لما كان لأى دولة من دول الكفر غلب علينا .

ونريد أن نفهم هذه اللقطات ، ولماذا استهلت بمسألة الربا ؟ لأن الذى كان سبباً فى الهزيمة أو عدم النصر فى معركة أُحُد أنهم طمعوا فى الغنيمة . والغنيمة مال زائد ، والربا فيه طمع فى مال زائد .

والقرآن حين يعالج هنا قضية حدثية ، والأحداث أغيار تمر وتنتهى ، فهو سبحانه يريد أن يستبقى عطاء الحدث ليشيع فى غير زمان الحدث ، وإلا فالحدث قد يمر بعظاته وعبره وينتهى ولا تكون له فائدة . والنفس حين تمر بالأحداث تكون ملكاتها متفتحة ؛ لأن الحدث ـ كما قال المغفور له الشيخ سيد قطب ـ يكون ساخناً ، فحين يستغل القرآن الحدث قبل أن يبرد فإن القضية التى تتعرض لها الموعظة تتمكن من النفس البشرية . وهو سبحانه لم يرد أن تمر أحداث أُحد بما فيها من العبر والعظات إلا ويستغلها القرآن الكريم ليثبت بها قضايا إيمانية تشيع فى غير أزمنة الحدث من الحروب وغيرها لتنتظم أيضاً وقت السلام . فآية الربا هنا كأنما سقطت وسط النصوص التى تتعرض لغزوة أحد .

والسطحيون قد يقولون : ما الذى جعل القرآن ينتقل من الكلام عن أُحُد إلى أن يتكلم فى الربا مرة ثانية بعد أن تكلم عنه أولاً ؟

ونقول : إن القرآن لا يؤرخ الأحداث ، وإنما يُريد أن يستغل أحداثاً ليبسط ويوضح ما فيها من المعانى التى تجعل الحدث له عرض وله طول وله عمق ؛ لأن كل حدث فى الكون يأخذ من الزمن قدر الحدث ، والحدث له طول هو قدر من الزمن ، يكون ساعة أو ساعتين أو ليلة مثلا ، هذا هو طول الحدث .

والأحداث التى يجريها الله لها طول يحدده عمر الحدث الزمنى ، ولها عرض يعطيها الاتساع ، فبعد أن كانت خطاً مستقيماً صارت مساحة ، ويجعلها الحق شاملة لأشياء كثيرة ، فهو لا يريد للحدث أن يسير كخط مستقيم ، بل يريده طريقا واسعاً له

مساحة وله عرض . هذا العرض يعطيه رقعة مساحية تأخذ كثيراً من الأشياء ، وهذا أيضا قد ينتهى مع الحدث ، ولذلك يريد الله أن يعطى للحدث بعداً ثالثاً وهو العمق فى التاريخ فيعطى عطاءه ، كما نستفيد نحن الآن من عطاء حدث هو غزوة أُحُد .

إذن فالحدث له حجم أيضاً ، وهذا ما يجعل الناس تقف لتقول : إن صلة الرحم تطيل العمر ، والعمر له حد زمنى محدد وهو الخط المستقيم له ، فهناك واحد يزيد من عرض عمره ، فبدلاً من أن ينفع الناس فى مجال صغير فهو يعمل وينفع فى مجال أوسع ، إذن فهو يعطى لعمره مساحة .

وهناك إنسان آخر يريد أن يكون أقوى فى العمر ، فماذا يعمل ؟ إنه يعطى لعمره عمقاً ، فبدلاً من أن يعمل لمجرد حياته وينتهى عمره مهما كانت رقعته واسعة ، فهو يزيد من عمله الصالح ويترك أثراً من علم أو خير يستمر من بعد حياته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »(١) .

ولذلك يقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

هى كلمة طيبة قيلت ، لكنّها مثل الشجرة الطيبة ؛ لأنها ترسخ فى أذن من يسمعها فتصير حركة خاضعة للكلمة ، وكلما فعل السامع لهذه الكلمة فعلاً ناتجاً من تأثير هذه الكلمة فإن بعض الثواب يعود إلى من قال هذه الكلمة حتى ولو كان قد مات .

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى والبخارى فى الأدب المفرد .

فكأن قائل هذه الكلمة مازال يعيش ، وكأن عمره قد طال بكلمته الطيبة . إذن فأعمال الخير التى تحدث من الإنسان ليس معناها أنها تطيل العمر ؛ لأن العمر محدود بأجل ، ولكنْ هناك إنسان يعطى عمره عرضاً ، وآخر يعطيه عمقاً ويظل العطاء منه موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، فكأنه أعطى لنفسه عمراً خالداً . ويقولون : والذكر للإنسان عمر ثان .

والحق سبحانه وتعالى يوضح الدروس المستفادة من غزوة أُحُد ، إن أول مخالفة كانت سبباً ليس فى الهزيمة ، ولكن دعنا نقل : « فى عدم إتمام النصر » ، لأنهم بدأوا منتصرين ، ولم يتم النصر لأنه قد حدثت مخالفة ، ودوافع هذه المخالفة أنهم ساعة رأوا الغنائم ، اندفعوا إليها ، إذن فدوافعها هى طلب المال من غير وجه مشروع ؛ لأن النبى قال لهم : (انضحوا عنا الخيل ولا نؤتين من قبلكم ، الزموا أماكنكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم) وبهذا صارت مبارحة المكان أمراً غير مشروع ، فتطلع النفس إلى شىء فى غير ما أمر به رسول الله يعتبر أمراً غير مشروع والتطلع هنا كان للمال ، وهكذا الربا .

وأراد الحق أن تكون سخونة الحدث ، والأثر الذى نشأ من الحدث فى أن المسلمين لم يتم نصرهم ، وتعبوا ، وكان مصدر التعب أن قليلاً منهم أحبوا المال الزائد من غير وجهه المشروع . فأراد ـ سبحانه ـ أن يكون ذلك مدخلا لبيان الأثر السيىء للتعامل بالربا .

إذن فهذه مناسبة فى أننا نجد آية الربا هنا وهى توضح الآثار السيئة للطمع فى المال الزائد عن طريق غير مشروع ، والقرآن فيه الكثير من المواقف التى توضح آثاراً تبدو فى ظاهرها غير مترابطة ، ولكن النظرة العميقة تؤكد الترابط .

وقلنا من قبل فى قول الله تعالى :

﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

قد يقول أحد السطحيين : إن الحق سبحانه وتعالى كان يتكلم عن الطلاق قبل هاتين الآيتين فقال سبحانه :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويترك الحق الحديث عن الطلاق ويأمر بالحفاظ على الصلاة بقوله الحكيم : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وبعد ذلك يعود الحق لاستكمال حديث الطلاق والفراق بالموت .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إنه يتكلم عن الطلاق ، والوفاة ، ثم ينزل بينهما آية الصلاة ، لماذا ؟ ليتضح لنا أن المنهج الإسلامي منهج متكامل . إياك أن تقول : إن الطلاق غير الصلاة ، غير الوفاة ، أبداً ، إنه منهج متكامل . ولأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن ينبهنا إلى أن لطلاق عملية تأتي والنفس فيها غضب ، وتأتي والزوج والزوجة وأهل الزوج وأهل لزوجة في كدر ، فيقول لهم المنهج : لو كنتم تحسنون الفهم لفزعتم إلى الصلاة حين تواجهكم هذه الأمور التي فيها كدر .

وساعة تكون في كدر قم وتوضأ وصَلِّ ، لأن النبي علمنا أنه إذا حَزَبَه أمر قام

إلى الصلاة ، فساعة تجد الجو المشحون بالتوتر بين الزوج والزوجة وأهلها قل لهم : المسألة صارت أكبر من حيلنا ، فهيا نصل ليساعدنا الله على حل هذه المسائل الصعبة ، وأنا أتحدى ألا يوجد الله حلاً لمشكلة لجأ فيها المسلم إلى الصلاة قبلها .

وهكذا نفهم أن الحق قال : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » لأن محافظتكم عليها هى التى ستنهى كل الخلافات ؛ لأن الله لا يكون فى بالكم ساعة ضيقكم وفى ساعة شدتكم فتستسلمون للضيق والشدة وتنسون الصلاة ، فى الوقت الذى يكون فيه الإنسان أحوج ما يكون إلى الصلاة . إنك فى وقت الضيق والشدة عليك أن تذهب إلى ربك ، وأقول هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الولد الذى يضربه أصحابه يذهب إلى أبيه ، كذلك زوجتك إذا أغضبتها تذهب إلى أهلها ، فكيف لا تذهب إلى ربك وقت شدتك وكربك ؟ .

وهكذا نجد أن قوله الحق : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » جاء فى المكان الصحيح ، وهكذا آية الربا ، جاءت فى مكانها هنا وخصوصاً أنه تكلم عن الربا أولاً ، فتأتى الحادثة وسخونة الحدث وينزل هذا القول الكريم . كى يعرف كل من يريد مالاً زائداً على غير ما شرع الله أنّه سيأتى منه البلاء على نفسه وعلى غيره ، فالبلاء فى أُحُد شمل الجميع : الرماة وغير الرماة أيضا .

إذن فكل الدنيا تتعب عندما تخالف منهج الله ، والمال الزائد من غير ما شرع الله إن لم يترك فقد آذن الله من يأكله بحرب من الله ومن رسول الله .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

والربا زيادة فى المال ، فهل يؤكل ؟ نعم ؛ لأن كل المسائل المالية من أجل اللقمة

التى تأكلها ، هذا هو الأصل . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من أصبح منكم آمنا فى سِرْبِهِ مُعافىً فى جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا »[١] .

ونعرف أنه عندما يكون الواحد منا فى منطقة ليس فيها رغيف خبز ، فلن تنفعه ملكية جبل من الذهب . « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » وقوله سبحانه : « أضعافا » و« مضاعفة » هو كلام اقتصادى على أحدث نظام ، فالأضعاف هى : الشيء الزائد بحيث إذا قارنته بالأصل صار الأصل ضعيفاً ، فعندما يكون أصل المال مائة ـ على سبيل المثال ـ وسيؤخذ عليها عشرون بالمائة كفائدة فيصبح المجموع مائة وعشرين . إذن فالمائة والعشرون تجعل المائة ضعيفة ، هذا هو معنى أضعاف .

فماذا عن معنى « مضاعفة » ؟ إننا سنجد أن المائة والعشرين ستصبح رأس مال جديداً ، وعندما تمر سنة ستأخذ فائدة على المائة وعلى العشرين أيضاً ، إذن فالأضعاف ضوعفت أيضاً ، وهذا ما يسمى بالربح المركب ، وهل معنى هذا أننا نأكله بغير أضعاف مضاعفة ؟! لا ؛ لأن الواقع فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هكذا .

وقد يقول لك واحد : أنا أفهم القرآن وأن المنهى هو الأضعاف المضاعفة ، فإذا لم تكن أضعافاً مضاعفة فهل يصح أن تأخذ ربحاً بسيطاً يتمثل فى نسبة فائدة على أصل المال فقط ؟ . ولكن مثل هذا القائل نرده إلى قول الله :

﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٧٩ سورة البقرة)

إن هذا القول الحكيم يوضح أن التوبة تقتضى أن يعود الإنسان إلى حدود رأس ماله ولا يشوب ذلك ربح بسيط أو مركب . وعندما نجد كلمة « أضعافا مضاعفة » فهى قد جاءت فقط لبيان الواقع الذى كان سائداً فى أيامها .

وبعد ذلك يقول الحق تذييلاً للآية : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » ونقول دائماً

(١) رواه البخارى فى الأدب ، والترمذى وابن ماجه عن عبدالله بن محصن .

ساعة نرى كلمة « اتقوا » يعنى اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، وهل تكون الوقاية بينكم وبين الله بكل صفات جماله وجلاله ؟ لا ، فالوقاية تكون مما يتعب ومما يؤلم ويؤذى ، إذن فاتقوا الله يعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله من جبروت وقهر وانتقام وقاية ، وعندما يقول الحق : « واتقوا النار » فهى مثل قوله : « واتقوا الله » ، لأن النار جند من جنود صفات الجلال .

وعندما يقول الحق : « لعلكم تفلحون » نعرف أن كلمة « الفلاح » هذه تأتى لترغيب المؤمن فى منهج الله ، وقد جاء الحق بها من الشيء المحس الذى نراه فى كل وقت ، ونراه لأنه متعلق ببقاء حياتنا ، وهو الزرع والفلاحة ، أنت تحرث وتبذر وتروى ، وبعد ذلك تحصد .

إذن فهو يريد أن يوضح لك أن المتاعب التى فى الحرث ، والمتاعب التى فى البذر ، والمتاعب التى فى السقى كلها متى ترى نتيجتها ؟ أنت ترى النتيجة ساعة الحصاد ، فالفلاح يأخذ (كيلتين) من القمح من مخزنه كى يزرع ربع فدان ، ولا نقول له : أنت أنقصت المخزن ؛ لأنه أنقص المخزن للزيادة ، ولذلك فالذى لم ينقص من مخزنه ولم يزرع ، يأتى يوم الحصاد يضع يده على خده نادماً ولا ينفع الندم حينئذ !

إن الحق يريد أن يقول لنا : إن المنهج وإن أتعبك ، وإن أخذ من حركتك شيئاً كثيراً إلا أنه سيعود عليك بالخير حسب نيتك وإقبالك على العمل ، ولقد ضرب لنا الله المثل فى قوله :

﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(الآية ٢٦١ سورة البقرة)

هذا أمر واضح ، حبة نأخذها منك فتنقص ما عندك ، لكنها تعطيك سبعمائة ، إذن فساعة تؤخذ منك الحبة لا تقل : إنك نقصت ، إنما قدِّرْ أنك ستزيد قدر كذا . ويعطينا الله ذلك المثل فى خلق من خلقه وهو الأرض ،

الأرض الصماء ، أنت تعطيها حبة فتعطيك سبعمائة . فإذا كان خلق من خلق الله وهو الأرض يعطيك أضعاف أضعاف ما أعطيت . أفلا يعطيك ربّ هذه الأرض أضعافاً مضاعفة ؟ إنه قادر على أجزل العطاء ، هذا هو الفلاحُ على حقيقته ، وبعد ذلك فإنه ساعة يتكلم عن الفلاح يقول لك : إنك لن تأخذ الفلاح فقط ولكنك تتقى النار أيضاً .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

إذن ففيه مسألتان : سلبٌ لمضرّة ، وإيجابٌ منفعة ، إنه يوجب لك منفعة الفلاح ويسلب منك مضرّة النار . ولذلك يقول تعالى :

﴿ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

لأنه إذا زُحزح عن النار ولم يعد فى نار ولا فى جنه فهذا حسن ، فما بالك إذا زُحزح عن النار وأدخل الجنة ؟ إن هذا هو الفوز الكبير ، وهذا السبب فى أن ربنا سبحانه وتعالى ساعة السير على الصراط سيُرينا النار ونمرُّ عليها ، لماذا ؟ كى تعرف كيف نجانا الإيمان من هذه ، وما الوسيلة كى نفلح ونتقى النار ؟ إن الوسيلة هى اتباع منهج الله الذى جاء به على لسان رسوله :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

و« الرحمة » تتجلى فى ألا يوقعك فى المتعبة ، أما الشفاء فهو أن تقع فى المتعبة ثم تزول عنك ، لذلك فنحن إذا ما أخذنا المنهج من البدء فسنأخذ الرحمة .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

إن الشفاء هو إزالة للذنب الذى تورطنا فيه ويكون القرآن علاجاً ، والرحمة تتجلى إذا ما أخذنا المنهج فى البداية فلا تأتى لنا أية متاعب . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

والسرعة ـ كما عرفنا ـ مقابلها العجلة ، إن السرعة هى : التقدم فيما ينبغى ، ومعنى أن تتقدم فيما ينبغى : أنك تجعل الحدث يأخذ زمناً أقل ، والمثال على ذلك عندما يسرع الإنسان بسيارته من القاهرة إلى الإسكندرية فهو يحاول أن يقطع المائتين والعشرة كيلو مترات فى زمن أقل ، فبدلاً من أن تأخذ منه ثلاث ساعات فى السيارة فهو يسرع كى تأخذ منه ساعتين . إذن فالسرعة هى : التقدم فيما ينبغى ، وهى محمودة ، وضدها : الإبطاء . فالسرعة محمودة ، والإبطاء مذموم .

لكن « العجلة » تقدم فيما لا ينبغى ، وهى مذمومة ، مقابلها « التأنى » ، والتأنى ممدوح ، إذن فالسرعة محمودة ، ومقابلها الإبطاء مذموم ، والعجلة مذمومة ، ومقابلها التأنّى ممدوح ، والمثل الشعبى يقول : فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة .

إن الحق يقول : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » أى : خذوا المغفرة وخذوا الجنة بسرعة ، لأنك لا تعرف كم ستبقى فى الدنيا ، إياك أن تؤجل عملاً من أعمال الدين أو عملا من أعمال الخير ؛ لأنك لا تعرف أتبقى له أم لا . فانتهز فرصة حياتك وخذ المغفرة وخذ الجنة ، هذا هو المعنى الذى يأتى فيه الأثر الشائع « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

الناس تفهمها فهماً يؤدى مطلوباتهم النفسية بمعنى : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً : يعنى اجمع الكثير من الدنيا كى يكفيك حتى يوم القيامة ، وليس هذا فهماً صحيحاً لكن الصحيح هو أن ما فاتك من أمر الدنيا اليوم فاعتبر أنك ستعيش طويلاً وتأخذه غداً ، أمّا أمر الآخرة فعليك أن تعجل به .

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » ونحن نعرف أن المساحات لها طولٌ وعرض ، لأن الذى طوله كعرضه يكون مربعاً ، إنما الذى عرضه أقل من طوله فنحن نسميه « مستطيلا » ، وحين يقول الحق « عرضها السموات والأرض » نعرف أن العرض هو أقل البعدين ، أى أنها أوسع مما نراه ، فكأنه شبّه البعد الأقل فى الجنة بأوسع البعد لما نعرفه وهو السموات والأرض ملتصقة مع بعضها بعضا فأعطانا أوسع ممّا نراه . فإذا كان عرضها أوسع ممّا نعرف فما طولها ؟ أنه حد لا نعرفه نحن .

قد يقول قائل لماذا بيَّن عرضها فقال : « عرضها السموات والأرض » . فأين طولها إذن ؟ ونقول : وهل السموات والأرض هى الكون فقط ؟ إنّه سبحانه يقول :

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

ويقول صلى الله عليه وسلم : (ما السموات والأرض وما بينهما إلا كحلقة ألقاها ملك فى فلاة) . أليست هذه من ملك الله ؟

وهكذا نرى أن هذه الجنة قد أُعدت للمتقين ، ومعنى « أُعدت » أى هيئت وصُنعت وانتهت المسألة ! يؤكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

(عرضت علىّ الجنة ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت)[1] .

لماذا ؟ لأن الإخبار بالحدث قد يعنى أن الحدث غير موجود وسيوجد من بعد ذلك ، ولكن الوجود للحدث ينفى أن لا يوجد ؛ لأن وجوده صار واقعا ، فعندما يقول : « أُعدت » فمعناها أمر قد انتهى الحق من إعداده ، ولن يأخذ من خامات الدنيا وينتظر إلى أن ترتقى الدنيا عندكم ويأخذ وسائل وموادّ مما ارتقيتم ليعد بها الجنة ، لا .

لقد أخبر سبحانه عنها فقال:« فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ، وأعد سبحانه الجنة كلها بـ « كن » ، فعندما يقول : « أُعدت » تكون مسألة مفروغاً منها . وما دامت مسألة مفروغاً منها إذن فالمصير إليها أو إلى مقابلها مفروغ منه ، والجنة أعدت للمتقين ، فمن هم المتقون ؟

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

هذه بعض من صفات المتقين « والكاظمين الغيظ » لأن المعركة ـ معركة أُحُد ـ ستعطينا هذه الصورة أيضاً . فحمزة وهو سيد الشهداء وعم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقتل . وليته يُقتل فقط ولكنه مُثِّل به ، وأخذ بضع منه وهو الكبد فلاكته « هند » ، وهذا أمر أكثر من القتل . وهذه معناها ضغن دنىء .

وحينما جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مقتل حمزة وقالوا له : إن « هنداً »

(١) رواه البخارى فى الأذان ، وابن ماجه فى الإقامة ورواه أحمد فى المسند .

أخذت كبده ومضغتها ثم لفظتها ، إذ جعلها الله عَصِيَّة عليها ، قال : « ما كان الله ليعذب بعضاً من حمزة فى النار » كأنها ستذهب إلى النار ، ولو أكلتها لتمثلت فى جسمها خلايا ، وعندما تدخل النار فكأن بعضاً من حمزة دخل النار ، فلابد أن ربها يجعل نفسها تجيش وتتهيأ للقىء وتلفظ تلك البضعة التى لاكتها من كبد سيد الشهداء .

وقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة بأنها أفظع ما لقى . إنها مقتل حمزة فقال : (لئن أظفرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم) .

وهنا جاء كظم الغيظ ليأخذ ذروة الحدث وقمته عند رسول الله فى واحد من أحب البشر إليه وفى أكبر حادث أغضبه ، وينزل قول الحق :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

كى نعرف أن ربنا ـ جل جلاله ـ لا ينفعل لأحد ؛ لأن الانفعال من الأغيار ، وهذا رسوله فأنزل ـ سبحانه ـ عليه : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ويأتى هنا الأمر بكظم الغيظ ، وهو سبحانه يأتى بهذا الأمر فى مسألة تخص الرسول وفى حدث « أُحُد » . وبعد ذلك يُشيعها قضية عامة لتكون فى السلم كما كانت فى الحرب . وتكون مع الناس دون رسول الله ؛ لأنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« والكاظمين الغيظ » وتعرف أن كل الأمور المعنوية مأخوذة من الحسّيات . وأصل الكظم أن تملأ القِرْبَة ، والقِرَب ـ كما نعرف ـ كان يحملها « السقا » فى الماضى ، وكانت وعاء نقل الماء عند العرب ، وهى من جلد مدبوغ ، فإذا مُلِئت القربة بالماء شُدّ على رأسها أى رُبط رأسها ربطاً محكماً بحيث لا يخرج شىء مما فيها ، ويقال عن هذا الفعل :« كظم القربة » أى ملأها وربطها ، و القربة لينة وعندما توضع على ظهر واحد أو على ظهر الدابة فمن ليونتها تخرج الماء فتكظم وتربط بإحكام كى لا يخرج منها شىء .

كذلك الغيظ يفعل فى النفس البشرية ، إنه يهيجها ، والله لا يمنع الهياج فى النفس لأنه انفعال طبيعى ، والانفعالات الطبيعية لو لم يردها الله لمنع أسبابها فى التكوين الإنسانى . إنما هو يريدها لأشياء مثلا : الغريزة الجنسية ، هو يريدها لبقاء النوع ، ويضع من التشريع ما يهذبها فقط ، وكذلك انفعال الغيظ ، إن الإسلام لا يريد من المؤمن أن يُصبَّ فى قالب من حديد لا عواطف له ، لا ، هو سبحانه يريد للمؤمن أن ينفعل للأحداث أيضاً ، لكن الانفعال المناسب للحدث ، الانفعال السامى الانفعال المثمر ، ولا يأتى بالانفعال المدمر .

لذلك يقول الحق :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فالمؤمن ليس مطبوعاً على الشدة ، ولا على الرحمة ، ولكن الموقف هو الذى يصنع عواطف الإنسان ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وهل هناك من هو ذليلٌ عزيزٌ معاً ؟ نقول : المنهج الإيمانى يجعل المؤمن هكذا ، ذلة على أخيه المؤمن وعزة على الكافر . إذن فالإسلام لا يصب المؤمنين فى قالب كى لا ينفعلوا فى الأحداث .

ومثال آخر : ألم ينفعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه إبراهيم ؟ لقد انفعل وبكى وحزن . إن الله لا يريد المؤمن من حجر . بل هو يريد المؤمن أن ينفعل للأحداث ولكن يجعل الانفعال على قدر الحدث ، ولذلك قال سيدنا رسول الله عند فراق ابنه : (إن العين تدمع وإن القلب يحزن ولا نقول إلا مايرضى ربنا وإنّا بفراقك

يا إبراهيم لمحزونون) [١] .

ولا نقول لحظة الانفعال ما يسخط الرب . بل انفعال موجّه ، والغيظ يحتاج إليه المؤمن حينما يهيج دفاعاً عن منهج الله ، ولكن على المؤمن أن يكظمه .. أى لا يجعل الانفعال غالبا على حسن السلوك والتدبير . والكظم ـ كما قلنا ـ مأخوذ من أمر محس . مثال ذلك : نحن نعرف أن الإبل أو العجماوات التى لها معدتان ، واحدة يُختزن فيها الطعام ، وأخرى يتغذى منها مباشرة كالجمل مثلاً ، إنه يجتر .

ومعنى : يجتر الجمل أى يسترجع الطعام من المعدة الإضافية ويمضغه ، هذا هو الاجترار . فإذا امتنع الجمل عن الاجترار يقال : إن الجمل قد كظم . والحق سبحانه يقول : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الانفعال فى ذاته ، فقد يبقى فى النفس وتكظمه ، ومعنى كظم الانفعال : أن الإنسان يستطيع أن يخرجه إلى حيز النزوع الانفعالى ، ولكنه يكبح جماح هذا الانفعال . أما العفو فهو أن تخرج الغيظ من قلبك ، وكأن الأمر لم يحدث ، وهذه هى مرتبة ثانية . أما المرتبة الثالثة فهى : أن تنفعل انفعالاً مقابلاً ؛ أى أنك لا تقف عند هذا الحد فحسب ، بل إنك تستبدل بالإساءة الإحسان إلى من أساء إليك . إذن فهناك ثلاث مراحل : الأولى : كظم الغيظ . والثانية : العفو . والثالثة : أن يتجاوز الإنسان الكظم والعفو بأن يحسن إلى المسىء إليه .

وهذا هو الارتقاء فى مراتب اليقين ؛ لأنك إن لم تكظم غيظك وتنفعل ، فالمقابل لك أيضاً لن يستطيع أن يضبط انفعاله بحيث يساوى انفعالك ، ويمتلىء تجاهك بالحدة والغضب ، وقد يظل الغيظ نامياً وربما ورّث أجيالا من أبناء وأحفاد . لكن إذا ما كظمت الغيظ ، فقد يخجل الذى أمامك من نفسه وتنتهى المسألة .

« والعافين عن الناس » مأخوذة من « عفّى على الأثر » والأثر ما يتركه سير الناس

(١) رواه البخارى فى الجنائز ، ومسلم فى الفضائل ، وابن ماجه فى الجنائز ورواه أحمد فى المسند .

فى الصحراء مثلا ، ثم تأتى الريح لتمحو هذا الأثر . ويقول الحق فى تذييل الآية : « والله يحب المحسنين » .

وقلنا فى فلسفة ذلك : إننا جميعاً صنعة الله ، والخلق كلهم عيال الله . وما دمنا كلنا عيال الله فعندما يُسىء واحد لآخر فالله يقف فى صف الذى أسىء إليه ، ويعطيه من رحمته ومن عفوه ومن حنانه أشياء كثيرة . وهكذا يكون المُسَاء إليه قد كسب . أليس من واجب المُسَاء إليه أن يُحسن للمسىء ؟.

لكن العقل البشرى يفقد ذكاءه فى مواقف الغضب ؛ فالذى يسىء إلى إنسان يحسبه عدوًّا . لكن على الواحد منا أن يفهم أن الذى يسىء إليك إنما يجعل الله فى جانبك ؛ فالذى نالك من إيذائه هو أكثر مما سلبك هذا الإيذاء . هنا يجب أن تكون حسن الإيمان وتعطى المسىء إليك حسنة .

ويضيف الحق من بعد ذلك فى صفات أهل الجنة :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

والفاحشة هى :الذنب الفظيع . فهل معنى ذلك أن الرماة فى غزوة أحد حين تركوا مواقعهم ، قد خرجوا من الإيمان ؟ لا ، إنها زلة فقط ، لكنها اعتبرت كبيرة من الكبائر لمن أشار على المؤمنين أن ينزلوا ،واعتبرت صغيرة لمن حُرِّض ـ بالبناء للمفعول ـ على أن ينزل من موقعه .

إذن فهو قول مناسب : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله » وجاء الحق هنا بـ« ذكروا الله » كتنبيه لنا إلى أن من يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه هو من نسى الله ، فلحظة فعل الفاحشة أو ظلم النفس لا يكون الله على بال الإنسان الفاعل للفاحشة أو على بال من ظلم نفسه ، والذى يُجرِّىء الإنسان على المعصية ليحقق لنفسه شهوة ، أنه لم ير الله ولم ير جزاءه وعقابه فى الآخرة ماثلا أمامه ، ولو تصور هذا لامتنع عن الفاحشة .

وكذلك الذى يهمل فى الطاعة أيضاً ، لم يذكر الله وعطاءه للمتقين . ولو ذكر الله وعطاءه للمتقين لما تكاسل عن طاعة الله . ولذلك يقول الحق : « ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » فمن يستغفر لذنبه فقد ذكر الله .

وموقف العلماء من الفاحشة فيه اختلاف . بعض العلماء قال : إنها الكبيرة من الكبائر ، وظلم النفس صغيرة من الصغائر . وقال بعض آخر من العلماء : إن الفاحشة هى الزنا ؛ لأن القرآن نص عليها ، ومادون ذلك هو الصغيرة .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا كبيرة مع الاستغفار . ولا صغيرة مع الإصرار)(١)

فلا يجوز للإنسان أن يتجاوز عن أخطائه ويقول : هذه صغيرة وتلك صغيرة لأن الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة . وحين ننظر إلى قول الله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم » نجد أن الذى فعل الفاحشة ظالم لنفسه أيضا لأنه حقق لنفسه شهوة عارضة ، وأبقى على نفسه عذاباً خالداً .

ولماذا لم يقل الحق إذن : والذين ظلموا أنفسهم فقط ؟ أى يكون العطف بـ(الواو) لا بـ(أو) ؛ لأن الحق يريد أن يوضح لنا الاختلاف بين فعل الفاحشة وظلم النفس .

لأن الذى يفعل الفاحشة إنما يحقق لنفسه شهوة أو متعة ولو عاجلة ، لكن الذى

---

(١) رواه أبو الشيخ والديلمى عن ابن عباس رفعه ، ورواه البيهقى ـ عن ابن عباس ـ موقوفا ، وله شاهد عند البغوى ، ومن جهة الديلمى عن أنس مرفوعا ، وأخرجه الطبرانى عن أبى هريرة ، وزاد فى آخره « فطوبى لمن وجد فى كتابه استغفاراً كثيراً » لكن فى إسناده بشر بن عُبيد الفارسى متروك .

يظلم نفسه يذنب الذنب ولا يعود عليه شيء من النفع ؛ فالذى يشهد الزور ـ على سبيل المثال ـ إنه لا يحقق لنفسه النفع ، ولكن النفع يعود للمشهود له زوراً . إن شاهد الزور يظلم نفسه لأنه لبّى حاجة عاجلة لغيره ، ولم ينقذ نفسه من عذاب الآخرة . أما الإنسان الذى يرتكب الفاحشة فهو قد أخذ متعة فى الدنيا ، وبعد ذلك ينال العقاب فى الآخرة .

لكن الظالم لنفسه لا يفيد نفسه ، بل يضر نفسه ؛ فالذى هو شر أن تبيع دينك بدنياك ؛ إنك فى هذه الحالة قد تأخذ متعة من الدنيا وأمد الدنيا قليل . والحق لم ينه عن متاع الدنيا ، ولكنه قال عنه : « قل متاع الدنيا قليل » . وهناك من يبيع دينه بدنيا غيره ، وهو لا يأخذ شيئاً ويظلم نفسه .

ويقول الحق : « فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله » . ومعنى « ذنب » هو مخالفة لتوجيه منهج . فقد جاء أمر من المنهج ولم ينفذ الأمر . وجاء نهى من المنهج فلم يُلتزم به . ولا يسمى ذَنْباً إلا حين يعرفنا الله الذنوب ، ذلك هو تقنين السماء . وفى مجال التقنين البشرى تقول : لا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم .

وهذا يعنى ضرورة إيضاح ما يعتبر جريمة ؛ حتى يمكن أن يحدث العقاب عليها ، ولا تكون هناك جريمة إلا بنص عليها . أى أنه يتم النص على الجريمة قبل أن يُنص على العقوبة ، فما بالنا بمنهج الله ؟ إنه يعرفنا الذنوب أولاً ، وبعد ذلك يحدد العقوبات التى يستحقها مرتكب الذنب .

ولننتبه إلى قول الحق : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » إذن فالاستغفار ليس أن تردف الذنب بقولك : أستغفر الله لا . إن على الإنسان أن يردف الذنب بقوله : أستغفر الله وأن يصر على ألا يفعل الذنب أبداً .

وليس معنى هذا ألا يقع الذنب منك مرة أخرى ؛ إن الذنب قد يقع منك ، ولكن ساعة أن تستغفر تصر على عدم العودة ، إن الذنب قد يقع ، ولكن بشرط ألا

يكون بنيّة مُسبقة ، وتقول لنفسك : سأرتكب الذنب ، وأستغفر لنفسى بعد ذلك . إنك بهذا تكون كالمستهزىء بربّك ، فضلا على أنك قد تصنع الذنب ولا يمهلك الله لتستغفر . وقوله الحق : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » يوضح لنا أنه لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص .

إن الحق يعلمنا ويعرفنا أولاً ما هو الذنب ؟ وما هو العقاب ؟ وكيفية الاستغفار ؟ ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

« أولئك » إشارة إلى ما تقدم فى قوله سبحانه :

﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

مع بيان أوصاف المتقين فى قوله :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إنهم ينفقون فى السراء نفقة الشكر . وينفقون فى الضراء نفقة الذكر والتضرع ،

لأن النعمة حين توجد بسرّاء تحتاج إلى شكر لهذه النعمة ، والنعمة حين تنفق فى الضراء تقتضى ضراعة إلى الله ليزحزح عن المنفق آثار النقمة والضراء . إذن فهم ينفقون سواء أكانوا فى عسر ، أم كانوا فى يسر .

إن كثيراً من الناس ينسيهم اليسر أن الله أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءت عن علم منهم . وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أن يحسوا بآلام الغير ويشغلوا بآلام أنفسهم . لكن المؤمنين لا ينسون ربهم أبداً . وأمره بالإنفاق فى العسر واليسر . ولذلك قالوا : فلان لا يقبض يده فى يوم العرس ولا فى يوم الحبس .

وتتتابع أوصاف المتقين :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وفى ذلك لون من تطمين المؤمن على أغيار نفسه ، وعلى أنه عندما يستجيب مرة لنزغات الشيطان ، فهذه لا تخرجه من حظيرة التقوى ، لأن الله جعل ذلك من أوصاف المتقين . فالفاحشة التى تكون من نزغ الشيطان وذكر العباد لله بعدها ، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة ، لا تخرجهم أبداً عن وصفهم بأنهم متقون . لأن الحق هوالغفور : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » .

إنهم قد أخبروا بذلك ، فلم يجرم الحق أحداً إلا بنص ، ولم يعاقب إلا بجريمة . وقول الحق سبحانه : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » هو إشارة لكل ما سبق . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل للعاملين بهذا العمل من التقوى قوسين : القوس الأول الذى ابتدأ به هو قوله الحق : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

والقوس الثانى هوالذى أنهى الأمر : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار » .

فالجنة الأولى التى ذكرها الله إلهاباً للعواطف النفسية لتقبل على ما يؤدى لهذه الجنة ، وبعد ذلك ذكر الأوصاف والأصناف وجعل الجنة أجراً . « ونعم أجر العاملين » .

والأجر عادة هو ما يأخذه العامل نتيجة العمل . والأجر حين يأخذه العامل نتيجة لعمل يتوقف على تقييم العمل عند صاحب العمل نفسه . فزيادة الأجر ونقصه تقدير من صاحب العمل ، وأيضاً تقدير للعامل . فإن طلب أصحاب عمل متعددون عاملاً محدداً فله أن يطلب زيادة ، وإن لم يطلبه أحد فهو يقبل أول عرض من الأجر نظير أداء العمل .

إذن فالمسألة مسألة حاجة من صاحب عمل ، أو حاجة من عامل ، وحين ننظر إلى الصفقة فى الآخرة نجد أنها بين إله لا يحتاج إلى عملك . ومع أنه لا يحتاج إلى عملك جعل لعملك أجراً .

ما هذه المسألة ؟ . هو ليس محتاجاً إلى عملك ، ويعطيك أجراً على عملك ويقول لك : إن هذا الأجر هو الحد الأدنى ، لكن لى أنا أن أضاعف هذا الأجر ، ولى أن أتفضل عليك بما فوق الأجر . فكم مرحلة إذن ؟ إنها ثلاث مراحل ، مع أنه سبحانه لا يستفيد من هذا العمل إلا أنه وضع ثلاث مراتب للأجر .

إذن فالحاجة من جهة واحدة هى جهتك أنت أيها العبد ، أنت تحتاج إلى خالقك وهو لا يحتاج إليك ، ومع ذلك يعطيك الإله الحق الأجر لا على قدر العمل فقط ، ولكن فوق ذلك بكثير . إن الذى تعمل له يوماً من العباد قد يعطيك ـ على سبيل المثال ـ ما يكفيك قوت يوم ، أو قوت يوم ونصف يوم . ولكنك حين تأخذ الأجر من يد الله فإنه يعطيك أجراً لا تنتهى مدة إنفاقه ؛ فهو القائل : « ونعم أجر العاملين » .

هذا هو الأجر الذى يقال فيه : نعم هذا الأجر ؛ لأنه أجر لا يتناسب مع مجهودى ، بل يفوق كل ما بذلت من جهد وقادم من جهة لا تحتاج إلى هذا المجهود .

إنه سبحانه متفضل على أولاً . ومتفضل على أخيراً ، ليدل الحق سبحانه وتعالى على أنك - أيها العبد - حين تعمل الطاعة يَعود أثر الطاعة على نفسك ومع ذلك فهو يعطيك أجراً على ما فعلت .

وأوضحنا أن هذه الآيات جاءت بين آيات معركة أُحُد إرشاداً واستشهارا للأحداث التى وقعت فى أُحُد ، حتى إذا عاش الإنسان فى تصور الأحداث فالأحداث تكون ساخنة ، ويكون التقاط العبرة منها قريباً إلى النفس ؛ لأن لها واقعاً يُحَتِّمها ويؤكدها . والحق سبحانه وتعالى يقول من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

أى أنتم لستم بدعاً فى هذه المسألة . و« خلت » تعنى « مضت » ، أى حصلت واقعا فى أزمان سبقت هذا الكلام . وعادة فالأخبار التى يتكلم بها الإنسان مرة تكون خبراً يحتمل الصدق والكذب ، لكن هذه المسألة لا تحتاج إلى صدق أو كذب ؛ لأن الواقع ليس أمراً مستقبلاً ، ولكنه أمر قد سبق ، فبمجرد أن يجىء الكلام لا ننتظر واقعاً يؤكد صدق الكلام ، لأنَّ الواقع قد حدث من قبل ، فيقول سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » .

والسنن هى الطرق التى يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون ؛ ليضمن للإنسان - السيد فى هذا الكون - ما يحقق مصلحته ، ومصلحةالإنسان تتمثل فى أن يسود الحق فى حياة الإنسان المختار كما ساد الحق فى الكون المسيِّر قبلَ الإنسان .

وقد قلنا إن فى هذا الكون تسخيراً : أى لا إرادة له ، لا إرادة للجماد ولا للنبات .

ولا للحيوان فى أن تفعل الخير لك أو لا تفعل . فلم يحدث أن جاء إنسان لأرض صالحة للزراعة ، ووضع فيها بذوراً ، فلم تنبت الأرض وقالت له : لن أعطيك ، ولم تقل الأرض يوماً عن إنسان : إنه كافر فلن أعطى له الرزق .

إن الأرض مسخرة لخدمة الإنسان مادام يأخذ بأسبابها ؛ فهى تؤدى له . والحيوانات أيضا مسخرة لخدمتك لا باختيارك ، ولا بقدرة تسخيرك لها ، ولكن بتسخير الله لها أن تفعل .

وقلنا: إن الإنسان قد تكون عنده مطية ، مثل بعض الفلاحين ، فمرة يجعلها صاحبها تحمل أكوام السباخ من روث الحيوان وفضلاته ، وبعد ذلك يلوح له أن يخرجها من عملها هذا ويجعلها ركوبة له ، ويدللها بالأشياء التى تعرفونها من لجام جميل وسرج أجمل ، ويرفهها فى حياتها وينظفها .

هل فى الحالة الأولى امتنعت المطية عن حمل السباخ أو امتنعت فى الحالة الثانية عن حمل الإنسان ؟ لا ؛ أنت تسيرها مثلما تريد أنت ، فليس لها اختيار . ولا النبات له اختيار ، ولا الجماد له اختيار ، ولا الحيوان أيضاً ، إنما الاختيار للإنسان .

وقد حكم الله اختيار الإنسان بمقادير يكون الإنسان مسخراً فيها حتى لا يظن أنه استقل بالسيادة فأصبحت له قدرة ذاتية . والحق يحكم الإنسان بأشياء يجعلها قهرية على الإنسان كى يظل فى إطار التسخير . ويترك الحق للإنسان أشياء ليبقى له فيها الاختيار . فإذا ما نظرنا إلى الكون وجدنا أن ما لا اختيار فيه لشىء يسير على أحدث نظام ولا تصادم فيه ، والذى فيه اختيار للإنسان هو الذى يختل ، لماذا ؟ .

لأن الإنسان قد يختار على غير منهج الذى خَلَق وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإذا أردت أن يستقيم لك الأمر أيها المختار فاجعل اختيارك فى إطار منهج الله . وحين تجعل اختيارك فى إطار منهج الله تكون قد أصبحت سويًا كبقيّة الأجناس وتسير الأمور معك بانتظام .

وعندما تقارن بين شىء للإنسان فيه اختيار وعمل ، وشىء لا اختيار للإنسان فيه

ولا عمل ، فأنت تجد أن الشيء الذى لا اختيار للإنسان فيه مستقيم الأمر ، ولا خلاف فيه أبداً ، أما الشيء الذى فيه اختيار للإنسان ، فأنت تجد فيه الخلاف .

مثال ذلك : لو نظرنا إلى وسيلة مواصلات من الحيوانات كالجمال أو الخيل أو الحمير ، فإننا نجدها تسير فى طريق واحد ، وتتقابل جيئة وذهابا فلا يحدث تصادم بين حمار وحمار ، ولا قتل لراكب أحد الحمارين .

إن الحيوانات يتفادى ويتحامى بعضها بعضاً حتى لو كان الراكب نائماً . ومهما كان الطريق مزدحماً فالحيوانات لا تتصادم ؛ لأن ذلك من نطاق تسخير الحق للحيوان .

ولننظر إلى الإنسان حين تدخّل ليصنع وسيلة مواصلات ، صنع الإنسان ألوان السيارات ، يقودها الإنسان ، ومع أن الإنسان هو الذى يقود السيارات ، وبرغم ذلك بدأت تأتى المخالفات والمصادمات والحوادث ؛ لأن للإنسان يداً فى ذلك .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يدلك على أن ما خلق مسخراً بأمر الله وتوجيهه لا يتأتى منه فساد أبداً ، إنما يتأتى الفساد مما لك فيه اختيار ، فحاول أن تختار فى إطار منهج الله . فعندما يقول الحق لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فعليك أن تصدق وتطيع ؛ لأن الحق سبحانه عندما سخر الأشياء للإنسان سارت بانتظام رائع ، وأنت أيها العبد عندما تطيع الله فإن الأمور فى حياتك تمشى بيسر .

ولذلك قلنا : إن الناس لم تشتك قط أزمة شمس ، ولم يشتكوا أزمة هواء ، لكن لماذا اشتكوا أزمة طعام ؟ إن الإنسان له دخل فى إنتاج الطعام . فما للإنسان فيه دخل يجب أن يحكمه قانون التكليف من الله : « افعل كذا ولا تفعل كذا » .

الكون مخلوق بحق . ومعنى انه مخلوق بحق أن كل شيء فى الوجود يؤدى مهمته كما أرادها الله ، وكما سُخّر من أجله . وإذا ما قام الإنسان بتنفيذ التكليف فكل شيء يسير بحق . وإن ترك الإنسان التكليف وأخذ باختياره فإنه يصير إلى باطل وتنتج ما هو باطل ، والكون مبنى على الحق .

﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إن الحق جعل للكون قضايا ثابتة ، فلا شيء يعتدى على شيء آخر أبداً . واختيار الإنسان هو الذى يأتى بمقابل الحق وهو الباطل ، ولذلك يصون الله الكون بأن يبين أن الحق يصطدم بالباطل ، والباطل يصطدم بالحق لكن الحق يجيء ويبقى ، والباطل يزهق ويزول ، ويظهر الله لنا ذلك أمام أعيننا يقول تعالى :

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فقوله سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » يعنى : اعتبروا بما سبقكم وانظروا إلى اصطدام الباطل بالحق ، أدام وبقى اصطدام الباطل بالحق ؟ لا ؛ لأن الباطل كان زهوقا . ولذلك نحن نرى أمثلة عملية لذلك لا أقول فى مواكب الناس بعضهم مع بعض ، ولكن فى موكب الباطل مع حق السماء . وحق السماء يمثله الرسل والمناهج التى جاءت من عند الله وكل حق جاء من السماء وجاء من مناهج الله قابله قوم مبطلون .

لماذا ؟ . لأن السماء دائماً لا تتدخل إلا حين يشيع الفساد ، ومادام الفساد يشيع فإن هناك طائفة منتفعة بالفساد ، وهذه الطائفة المنتفعة بالفساد وبالباطل تدافع عنه وبعد ذلك يأتى موكب السماء ليصادم هذا الباطل والفئة المنتصرة للباطل ، فتنشأ معركة ، فقال الحق حينئذ : « قد خلت من قبلكم سنن » . قالها الحق لنعرف أن الباطل زهوق ، وأن كل معارك أهل الأرض مع منهج السماء قد انتصر فيها الحق . ولذلك تأتى سورة العنكبوت لتبين لنا ذلك ، بداية من قوله سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

هذه هى الصورة الأولى ، وتأتى الصورة الثانية :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فانظروا إلى مساكنهم الباقية لتدلكم على ما حدث لهم . والصورة الثالثة :

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وساعة تسمع « وما كانوا سابقين » . أى كأن هناك حاجة تلاحقهم ، والذى يلاحقه شيء فإنه يحاول أن يسبقه ، لكنهم لا يستطيعون . وتأتى السنن واضحة بعد ذلك :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فصراع الحق والباطل قد تقدم ووقع فى أمم قد سبقتكم وبقيت لها مساكن ، فمن شاء أن يذهب إليها ليتأكد فليذهب ، ولا تزال مدائن صالح ، ولا تزال هناك آثار عاد ، وكل مكان فيه أثر من الآثار . ولذلك يوضح الحق : فإن كنتم تريدون التأكد من ذلك فأنا قد أخبرت ، ومن آمن بى فليصدق خبرى ، ولغير المؤمن ولمن يريد اطمئنان قلبه يقول سبحانه :

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

(الآية ٣٦ سورة النحل)

إن الحق سبحانه وتعالى يمثل صراع الحق ـ وهو الشيء الثابت ـ مع الباطل ، وهذه القضية موجودة حتى فيما لا اختيار له . ويصنعها الحق فيهم ، صراعا بين حق وباطل فيما لا اختيار له لمصلحة الإنسان أيضاً . وقد جعل سبحانه الصراع بين الحق والباطل فى أشياء ليست من الإنسان ولكنها تخدم الإنسان ، وهذه نراها فى الأمور المادية . أما فى القيم فالحق يقول :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾

(سورة الرعد)

إنه سبحانه أنزل من السماء ماء فسال فى الأودية ، والأودية كما نعرفها هى المكان المنحصر بين جبلين ، فإذا نزلت الأمطار على الأعالى فإنها تنحدر إلى الأسفل وتسيل فى الأودية . والوديان هى محل الخصب ؛ لأن الغرين والطمى الذى ينزل من الجبال مع مياه المطر ويترسب ويصير تراباً خصباً يخرج منه الزرع . وكل وادٍ من الوديان يأخذ على قدر سعته ، وباقى المياه يبحث له عن مسلك آخر ، ولو إلى باطن الأرض ، وذلك كان مظهراً مألوفاً فى الجزيرة العربية ، فعندما يأتى السيل فإن الأودية تمتلىء ماءً ، كل وادٍ يأخذ على قدر سعته . « فاحتمل السيل زبداً رابياً » ونحن نراه فى الحقول ونسميه « الريم » الذى يطفو على سطح الماء ، ما الذى يحدث لهذا الريم ؟ إنه يتجمع ويطفو ثم يركن ويميل جانباً . ألم تر القدر بها لحم تفور ؟. إننا نجد الريم قد طفا على السطح . وهذا الريم فيه أشياء خارجة عن عنصر الشيء الموجود فى القدر ، فإذا ما جاءت حرارة النار أخرجته على السطح ، فإما أن يخرجه الإنسان خارج القدر ، وإما أن يتركه فيتجمد على الجوانب وينتهى .

ومن أين جاء هذا الزبد ؟ إنه يأتى من الأرض ، والأرض فيها أشياء كثيرة ، كجذور النبات وبقايا ما حمله الهواء، وتتخلل هذه الأشياء مسام الأرض ، هذه الأشياء عندما توجد فى المسام ، وتأتى الجذور الصغيرة لتنمو فتعوقها عن أخذ غذائها ؛ لذلك فعندما ينزل الحق الماء من السماء فإن الماء يجعل هذه الأشياء تطفو على السطح ؛ ليجعل هناك منفذاً للجذور الصغيرة .

وينزل الله المطر ليغسل التربة كلها ، ويجعل هذه الأشياء تطفو ؛ لأنها غثاء ، ويطفو الغثاء . وساعة أن يطفو الغثاء فإياك أن تفهم أن ذلك علو ، إنه علو إلى انتهاء ، كذلك فورة الباطل .

إياك أن تظن أن الزَّبَد له فائدة ، أو أن ارتفاع الريم كان علواً على ما فى القدر ، لا . إنه تطهيرٌ لما فى القدر أو الإناء ، ولهذا قال الحق : « فاحتمل السيل زبداً رابياً » .

وإن لم تذهب آثار الريم بحركة الماء التموجية فإنها ستذهب بطريقة أو بأخرى . ولننظر إلى الأشياء القذرة التى تلقى فى البحر نجد أنها بعد مدة قد خرجت إلى الشاطىء .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

إنها تخرج على الشاطىء ويجمعها المكلفون بتنظيف الشاطىء . وإلا كيف تتم صيانة الماء ؟ إنه سبحانه يجعل الماء ينظف نفسه بحركته الذاتية . إذن فالماء عندما ينزل سيلاً ، فإنه ينقى التربة من العوائق التى تعوق غذاء الجذيرات الصغيرة ، وقد لا يكتفى بعضنا بهذا المثل ، فيضرب لنا الله مثلاً آخر :

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ونحن نرى هذه الحكاية عندما يضعون أي معدن في النار ، فإن المعدن ينصهر ويصير كالعجينة وتخرج منه فقاقيع ونحن نسميها خبث المعدن ، وعندما نخرج الخبث من المعدن فإنه يصير قوياً ، إذن فالنار قد صهرت المعدن ، وأخرجت منه الخبث الضار فيه،أو الذي يجعله لا يؤدي مهمته بكفاءة عالية ، فأنا قد أصنع من الحديد درعاً قوية أو أريد أن أستخرج منه الصلب ، وهذه العمليات معناها أننا نصْهر الحديد بالنار لنزيل خبثه ليزداد قوة . وكذلك الذهب والفضة ساعة نريد أن نخلصهما من هذه الآثار فإننا نصهرهما لنخرج منها الأشياء الخارجة عنها أي التي تختلط بها وتشوبها وهي ليست منها .

لماذا إذن يا ربِّ هذا التمثيل الحسي في المياه ؟ والحلية التي لا تؤدي ضرورة ، والمتاع وهو الذي يؤدي ضرورة ؟ إنه سبحانه يقول : « كذلك يضرب الله الحق والباطل » .

إن الحق كالماء ، والحق كالنار ، والماء يحمل الزبد الرابي بعيداً عن مسام الأرض ، والنار تخرج الزبد والخَبث من المعادن ، وتجعل المعادن خالصة للمنفعة المطلوبة لنا ، كذلك يضرب الله الحق والباطل : « فأما الزبد فيذهب جفاء » .

وجفاءً أي مطروحاً مرمياً ، « وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » . ذلك هو صراع الحق والباطل في المبادىء والقيم ويصوره الله في الأمور المادية . ومن العجيب أنه يصوره بمتناقضين ولكنهما متناقضان يؤديان مهمة واحدة ، ماء ونار ، فإياك حين ترى شيئاً يناقض شيئاً أن تقول : هذا يناقض ذاك ، لا.لأن هذا الشيء مطلوب لمهمة ، وذاك الشيء مطلوب لمهمة أخرى .

إذن فقول الحق سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » هو لفت لنا إلى صراع الحق مع الباطل ، وأن الإنسان قد يرى الباطل مرة وله فورة وعلو ، ونقول : هذا إلى جُفاء . وهذه سنة من سنن الحياة . وإن أردتم أن تتأكدوا منها ، فالتفتوا إلى دقة قول الحق تعالى :

« فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

وهنا ملحظ عام ، وملحظ خاص ، الملحظ العام : أننا نفهم أن المقصود بذلك السير على الأرض ، وتلك هى حدود رؤيتنا ، لكن حين يتكلم الله فرؤية الله أشمل فهو الخالق لهذا الكون ، ونحن مازلنا نجهل جزئيات فى هذا الكون ، ولم نعرف بعضها إلا أخيراً ، وخالق الكون هو الذى يعلم كل الخبايا .

نحن نقول : إننا نسير على الأرض ؛ لأننا كنا نفهم أن هذه الأرض ليس عليها إلا نحن فقط ، ثم تبين لنا ـ بعد أن أخذ العلم حظه ـ أنه لولا وجود الهواء فى الأرض لما صلحت للحياة . ولذلك فعندما تدور الأرض . فالهواء الذى حولها يدور معها ويسمونه الغلاف الجوى . إذن فالغلاف الجوى جزء من الأرض وله امتداد كبير ، فالإنسان عندما يسير فإنه يسير فى الأرض ، أما الذى يسير على الأرض فهو الذى يسير فوق الغلاف الجوى ، أما السائر على اليابسة ، والغلاف الجوى مازال فوقه فهو يسير فى الأرض لا على الأرض .

ومادامت المسألة هى سنن تقدمت ، ويريد الله منا أن نعتبر بالسنن المتقدمة ، لذلك يقول لنا : « فسيروا فى الأرض » نسير بماذا ؟ . إما أن نسير بالانتقال ، أو نسير بالأفكار ؛ لأن الإنسان قد لا يملك القدرة على السير ويترك هذه المهمة للرحالة ، والرحالة ـ مثلاً ـ هم الذين ذهبوا إلى جنوب الجزيرة ، ورأوا وادى الأحقاف ووجدوا أن عاصفة رمل واحدة تطمر قافلة بتمامها .

إذن ففيه عواصف وارت الكثير من الأشياء ، فعاصفة واحدة تطمر قافلة . فكم من العواصف قد هبت على مرّ هذه القرون ؟ والحق سبحانه يخبرنا بإرم ذات العماد فيقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ ﴾

(سورة الفجر)

إنه سبحانه يخبرنا أن إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد أى متفوقة على حضارة مصر القديمة . وهى عجيبة وفيها أكثر من عجيبة فأين هى الآن ؟.

ومادامت الرمال بعاصفة واحدة - كما قلنا - تطمر قافلة ، فكم عاصفة مرت على هذه البلاد ؟. ولذلك نجد أننا لا نزال جميعاً إلى الآن حين نريد أن ننقب عن الآثار فلا بد أن نحفر تحت الأرض . لماذا هذا الحفر وقد كانت هذه الآثار فوق الأرض ؟ لقد غطتها العواصف الرملية .

والمثال على ذلك : أنك تغيب عن بيتك شهراً واحداً وتعود تتجد من التراب الناعم ما يغطى أرض البيت على الرغم من إغلاق النوافذ . فماذا تجد من حجم التراب لو غبت عن بيتك عاماً ، أو عامين ، أو ثلاثة أعوام ، رغم إحكام وإغلاق النوافذ والفتحات بالمطاط وخلافه ؟ ولكن التراب الناعم يتسرب ويغطى الأثاث والأرض . وإذا كانت هذه الأمور تحدث فى منازلنا فما بالك بالمنطقة التى فيها أعاصير وعواصف رملية ؟ هل تطمر المدن أو لا ؟

إن المدن والحضارات تطمر تحت الرمال ؛ لذلك فعندما ننقب عن الآثار فنحن نحفر فى الأرض ، وهذا لون من السير فى الأرض للرؤية والعظة . وحين يقول الحق : « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » فماذا يعنى بعاقبة المكذبين ؟ حين تكون أمة قد تحضرت حضارة كبيرة يقول عنها الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إن الذى أقام هذه الحضارات ألا يستطيع أن يجعل لهذه الحضارة ما يصونها ؟ كيف يتم القضاء على هذه الحضارات الواسعة واندثارها وذهابها ؟.

لابد أن ذلك يتم بقوة أعلى منها ، فهذه الحضارات رغم تقدمها الرهيب لم تستطع أن تحفظ نفسها من الفناء . إنها القوة الأعلى منها ، وهكذا نصدق قوله الحق : « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . إنه القيّوم الذى يرى كل الخلق ، فمن يطغى ويفسد فليلق النهاية نفسها . إذن فقوله سبحانه يحمل كل الصدق :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

انظر إلى الكلمة « هذا بيان للناس » إن البيانات عندما تتأتى تأخذ قوتها وسطوتها وعظمتها من قوة من أصدر البيان ؛ أنت ساعة تجد ثورة فى مجتمع ما فإننا نسمع كلمة « بيان رقم واحد » تهتز له الدنيا وهو بيان قادم من بشر فما بالنا بالبيان القادم من الله ؟

إنه إيضاح من الله : أنا لن آخذكم على غرة « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » و« الهدى » : كما نعرف هو الطريق الموصل للغاية المرجوة . و« الموعظة » معناها : حمل النفس ترغيباً وترهيباً ، لعمل الخير بالترغيب ، والبعد عن الشر بالترهيب ، تلك هى الموعظة .

وكل هذه الأشياء عندما جاءت فى ثنايا آيات أُحُد بعد أن أخذنا منها العبرة والحدث مازال ساخناً . ولذلك فقبل أن يكمل لنا قصة أُحُد استثار النفوس بهذه المسألة ، ووضع لنا الأشياء المادية والقيمية ؛ لنأخذ بها فى حياتنا ، وحتى لا تنتهى قصة أُحُد وينصرف الناس عن العظات التى كانت فيها .

ومادامت المسألة هكذا ، وكان المقاتلون فى سبيل الله هم جنود الحق ، وعرفوا ذلك بتأييد الله لهم ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بينهم . وهو حامل المعجزة الدالة على صدقه ؛ لذلك فالذى حدث فى معركة أُحُد لا يصح أن يضعفكم ؛ لأنكم تعرفون كيف يسند الله الحق ويقويه . وتعرفون حملة الله على الباطل . وقد أوضحنا لكم السنن والبيان ، ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

والمقصود بقوله : « ولا تهنوا » أى لا تضعفوا ، وهى أمر خاص بالمسألة البدنية ؛ لأن الجراحات أنهكت الكثيرين فى موقعة أُحُد لدرجة أن بعضهم أقعد ، ولدرجة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقدر أن يصعد الجبل ، وحمله طلحة بن عبيد الله على ظهره ليقوم ، لذلك قال الحق : « ولا تهنوا » ، لأنك عندما تستحضر أنك مؤمن وأن الله لن يخلى بينك وبين جنود الباطل لأنك نصير للحق ، والحق من الله وهو الحق لا يسلم نبيه وقومه لأعدائهم ،فيوم تأتى لك هذه المعانى إياك أن تضعف . والضعف هو نقصان قوة البدن .

« ولا تحزنوا » والحزن مواجيد قلبية ، وهم قد حزنوا فقد مات منهم كثير . مات منهم خمسة وسبعون شهيداً ، خمسة من المهاجرين ، وسبعون من الأنصار ، وهذه عملية صعبة وشاقة ، وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء ، وغضب لمقتل حمزة ـ رضى الله عنه ـ وقال : « لن أُصاب بمثلك أبداً ! وما وقفت موقفا قط أغيظ إلىّ من هذا » ثم قال : « لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم مكانك » .

فقال الحق : « ولا تحزنوا » ؛ لماذا ؟ لأنك يجب أن تقارن الحدث بالغاية من الحدث .

صحيح أن القتل صعب وإزهاق للنفس ، ولكن انظر إلى أين ذهب . وانظر ماذا خلف من بعده . أما هو فقد ذهب إلى حياة عند ربه وهي ليست كالحياة عندكم . إن الحياة عندنا لها مقاييس ، والحياة عند ربنا لها مقاييس ، فهل مقاييسنا أعلى من مقاييسه ؟لا ، حاشا لله .

إذن فإذا نظرت إليه هو فاعلم أنه ذهب لخير مما ترك ، فلا تحزن عليه بل تفرح له ؛ لأنه مادامت الغاية ستصل إلى هذه المسألة . إذن فقد قصر له مسافة الحياة ، ومادامت الغاية أن يصل إلى رحمة الله وإلى حياة عند الله بكافة معانيها ، فهو سعيد بجوار ربه ، ونحن في الغايات الدنيوية عندما نريد أن نذهب إلى مكان نُسرّ ممن يعجل لنا الزمن لنصل إلى هذا المكان .

فبدلاً من أن أذهب إلى الإسكندرية ماشياً أذهب راكباً حصاناً أو أذهب راكباً سيارة ، والمترفه يذهب راكباً طائرة ، فإذا كانت الغاية مرجوّة ومحبّبة إلى النفس ، وبعد ذلك يجيء لك حدث يقرب لك المسافة من الغاية ، فلماذا تحزن إذن ؟ لقد استشهد . إياك أن تقول : إنّ الله حرمني قوته في نصرة الحق ، لا . هو أعطى قوة أخرى لكثير من خلقه نصر بهم الحق ، إنك عندما تعرف أن إنساناً باع نفسه لله ، لابد أن تعرف أن الغاية عظيمة ؛ ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة بدر ، يقدم أهله ؛ لأنه يعرف أنه إن قُتل واحد منهم إلى أين سيذهب ، إذن فهو يحب أهله ، لكنه يحبهم الحب الكبير ، والناس تحب أهلها هنا أيضاً لكن الحب الدنيوي .

« ولا تحزنوا » على ما فاتكم من الغنائم أو لا تحزنوا على ما فاتكم من النصر لماذا ؟ وتأتي الإجابة ، « وأنتم الأعلون » . . ولذلك جاء مصداق ذلك حينما نادى أبو سفيان فقال : « اعل هبل » أي أن إلههم صار عالياً ، فقال الرسول لأصحابه : ألا تردون عليهم ؟ ، قالوا : بماذا نرد قال : قولوا لهم : الله أعلى وأجلّ فقال أبو سفيان : « لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » ثم قال أبو سفيان : إن موعدكم « بدر » العام المقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

لرجل من أصحابه : « قل نعم هو بيننا وبينك موعد »[١]

فـ « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . فما دمتم على الإيمان فأنتم الأعلون ، وإذا أردتم أن تعرفوا معنى « الأعلون » حقاً ، فقارنوا معركة « أُحُد » بمعركة « بدر » ، هم قتلوا منكم فى أُحُد ، وأنتم قتلتم منهم فى بدر . ولكنكم أسرتم منهم فى بدر ، ولم يأسروا منكم أحداً فى « أُحُد » . وأنتم غنمتم فى بدر ، ولم يغنموا شيئاً فى أُحُد .

وأنتم الأعلون لأن الله حمى مدينتكم مع أنه لا حامية فيها ممن يكون فيه معنى الجندية . كل ذلك وأنتم الأعلون ، هذا إذا نظرنا إلى معركة بمعركة . وإن نظرنا إلى المعركة نفسها « أُحُد » وندع بدراً وحدها ، فى ظل قوله تعالى : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » لقد ثبتت تلك القضية لأنكم حينما كنتم مؤمنين ـ ومن شرط الإيمان اتباع أمر الذى لا ينطق عن الهوى ـ انتصرتم . وانتصرتم انتصاراً رائعا ؛ لأنكم قتلتم فى أول جولة للحرب بضعاً وعشرين من صناديدهم وفيهم صاحب الراية . ولكنكم حينما خالفتم أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، تلخلخ الإيمان فى قلوبكم .

إذن فالعملية التى حدثت تؤكد صدق « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . فأنتم علوتم فى أول الأمر ، وعندما خالفتم الأمر صار لكم ما صار ؛ فقد صدقت القضية فى قول الله : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

وأيضا فإنكم لو نظرتم إلى المعركة نفسها لوجدتم أن عدوّكم لم يبق فى أرض المعركة ، بل أنتم الذين بقيتم فى موضع المعركة . وأين ذهب هو ؟ أذهب إلى موقع آخر ينال فيه غلبة ونصرا ؟ لم يكن هناك إلا المدينة ، والمدينة ليس فيها أحد ، ولم يذهب عدوكم إلى هناك ، وإنما ذهب ناحية مكة ، إذن فهو الذى هرب .

وبعد ذلك ماذا حدث ؟ ألم يؤذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس ويطلب العدوّ مرهباً له ليظنوا به القوة ، وإن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ؟

---

(١) رواه ابن إسحاق وأحمد والبخاري ومسلم .

ولقد خرج رسول الله ، مع من ؟ أجاء بحامية لم تشهد المعركة ؟ لا . بل قال عليه الصلاة والسلام مناديا المسلمين : « إليّ عباد الله » ، فالذين شهدوا المعركة سبعمائة ، جرح منهم الكثير وقتل منهم خمسة وسبعون ، فيهم حمزة ، ومصعب بن عمير ، وعبدالله بن جحش ، وشماس بن عثمان ، وسعد مولى عتبة ، هؤلاء خمسة من المهاجرين ، والباقى من الأنصار ، هؤلاء مطروحون من العدد الذى شاهد أول الموقعة ، حتى أن رسول الله لم يأخذ بدلاً منهم من المدينة من القوم الذين عرضوا أنفسهم ليكونوا مع الجيش الذى يطارد قريشاً ، بل آثر الرسول أن يذهب بمن ذهب معه إلى المعركة أنفسهم ، ولم يكن منهم بطبيعة الحال الشهداء أو الجرحى .

لم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ممن لم يشهد المعركة إلا واحداً . وهوسيدنا جابر بن عبدالله . الذى لم يخرج فى معركة أُحُد واعتذر إلى رسول الله بأن أباه عبدالله بن عمرو بن حرام قد خلّفه على بنات له سبع وقال له :

يا بنيّ إنه لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رَجُل فيهن ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نَفْسى فتخلّفْ على أخواتك فتخلف عليهن فقبل رسول الله عذره،وأذن له فخرج معه وطاردهم رسول الله ومن معه إلى حمراء الأسد ، أما والده عبدالله بن عمرو فقد استشهد فى أُحُد ومع ذلك فقد طلب من رسول الله على الرغم من استشهاد أبيه أن يخرج إلى حمراء الأسد . وذلك لنعلم أن الله يقول :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

هذا وإن واحداً من المشركين الذين كانوا موضع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حلفائه وهو معبد الخزاعى ، مَرَّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أُحُد وقال له : يا محمد : أما والله لقد عز علينا ما أصابك ، ثم لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء[1] وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه

(١) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة ـ القاموس المحيط .

وسلم وأصحابه فقال له أبو سفيان: ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله ، ولم يزل بهم حتى ثنى أبا سفيان ومن معه فولوا وجوههم إلى مكة خائفين مسرعين ، وقد ذهب رسول الله إلى حمراء الأسد فلم يجد أحداً فعسكر رسول الله ثلاثة أيام هناك ، ومعنى ذلك أنهم هم الذين فروا من المعركة . إذن فأنتم الأعلون ، ولكن لاحظوا الشرط « إن كنتم مؤمنين » . ثم بعد ذلك يُسَلِّى الله المؤمنين فيقول :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

وقد تكلمنا ـ من قبل ـ عن « المس » وهو : إصابة بدون حس . . أى لمس لكنك لا تحس بحرارة أو نعومة مثلا ، إنما « اللمس » هو أن تحس فى الشىء حرارة أو نعومة ويحتاج إلى الالتصاق المؤقت ، إنما « المس » هو ما لا تكاد تدرك به شيئاً ، و« القَرْح » هو : الجراح ، وفى لغة أخرى تقول « القُرح » ـ بضم القاف ـ وأقول: القُرح وهو الألم الناشىء من الجراح ، كى يكون لكل لفظ معنى .

وأنت قد ترى بعض الألفاظ فتظن أن معناها واحد فى الجملة ، إلا أن لكل معنى منها ملحظاً ، أنت تسمع مثلاً : رأى ، ونظر ، ولمح ، ورمق ، ورنا . كل هذه تدل على البصر . لكن كل لفظ له معنى :

رمق: رأى بمؤخر عينيه ، ولمح: أى شاهد من بعد ، ورنا: نظر بإطالة ، وهكذا .

ويقال أيضاً : جلس ، وقعد ، فالمعنى العام يكاد يكون واحداً ، لكن المعنى الدقيق يوضح أن الجلوس يكون عن اضطجاع . والقعود عن قيام ، كان قائماً فقعد ، والاثنان ينتهيان إلى وضع واحد ، فكذلك « قَرح » و« قُرح » كل لفظ له معنى دقيق .

ويقولون - مثلاً - إن للأسد أسماء كثيرة ، فيقال : « الأسد » و« الغضنفر » و« الرئبال » و« الوَرْد » و« القسْورة » . صحيح هذه أسماء للأسد ، ولكن لكل اسم معنى محدد ، فـ « الأسد » هو اللفظ العام والعَلَم على هذاالحيوان ، و« الغضنفر » هو الأسد عندما ينفش لبدته ، و« الوَرْد » هو حالة للأسد عندما يكون قد مط صلبه ، فكل موقف للأسد له معنى خاص به .

وقوله الحق : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » لاحظ أن المتكلم هو الله فافطن جيداً إلى مرادات كلامه . ونعرف أنه فى الشرط والجواب ، أن الشرط يأتى أولاً ثم يأتى الجواب من بعد ذلك مترتبا عليه ونتيجة له ، كقولنا « إن تذاكر تنجح » إن النجاح هو جواب لشرط وهو الاستذكار .

وقوله الحق : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » فهل المعنى المراد من هذه الجملة الشرطية أن مس القرح للكافرين الذى حدث فى بدر كان كجزاء لمس القرح للمؤمنين فى أحد ؟ لا ، إنه لا يكون أبداً جواباً لشرط ؛ لأنه لو كان جواب شرط لقال الحق : إن يمسسكم قرح فسيمس القوم قرح مثله . ولكنه لم يقل ذلك لأن القرح الذى أصاب المشركين فى بدر كان أسبق من القرح الذى أصاب المؤمنين فى أحد .

وكأن الحق يقول : إن يمسسكم قرح فلا تبتئسوا ؛ فقد مس القوم قرح مثله ، وليس ذلك جواب الشرط ، ولكنه جاء ليُستدل به على جواب الشرط ، أى أنه تعليل لجواب الشرط ، أقول ذلك حتى لا يتدخل دعىّ من الأدعياء ويتهم القرآن - والعياذ بالله - بما ليس فيه . إنه - سبحانه - يثبت المؤمنين و يسلّيهم . ومثال ذلك ما نقوله نحن لواحد إذا أصابته كارثة :

إن كان قد حدث لك كذا ، فقد حدث لخصمك مثله . إذن فنحن نسليه . والمقصود هنا أن الحق يسلّي المؤمنين : إن يمسسكم قرح فلا تبتئسوا ، فليكن عندكم سُلُوّ ولْتتجاوزوا هذا الأمر ولترض به نفوسكم ؛ لأن القوم قد مسهم قرح مثله .

والأسوة والتسلية ، هل تأتى بما وقع بالفعل أم بما سيقع ؟ . إنها تأتى بما وقع بالفعل ، إذن فهى تعلل تعليلاً صحيحاً : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » .

وأطلق الحق سبحانه من بعد ذلك قضية عامة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » . ما معنى المداولة ؟ . داول أى نقل الشيء من واحد لآخر . ونحن هنا أمام موقعتين ؛ غزوة بدر وغزوة أُحُد . وكان النصر للمسلمين فى غزوة بدر بالإجماع ، أما غزوة أُحُد فلم يكن فيها هزيمة بالإجماع ولم يكن فيها نصر .

إذن فقوله الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » أى مع التسليم جدلاً بأن الكفار قد انتصروا ـ رغم أن هذا لم يحدث ـ فإننا نقلنا النصر منكم أيها المؤمنون إليهم .

وإياك أن تفوتك هذه الملاحظة ، بأن النصر لم ينتقل إليهم إلا بمخالفة منكم أيها المؤمنون . ومعنى مخالفة منكم ، أى أنكم طرحتم المنهج . ومعنى أنكم طرحتم المنهج ، أى أنكم أصبحتم مجرد « ناس » مثلهم .

ومادمتم قد صرتم مجرد ناس بدون منهج مثلهم ومتساوين معهم ، فإن النصر لكم يوم ، ولهم يوم . ولنلحظ أن الحق لم يقل : إن المداولة بين الناس هى مداولة بين مؤمنين وكافرين .

فإن ظللتم مؤمنين فلا يمكن أن ينتقل النصر إلى الكفار ، إنما النصر يكون لكم . انظر ماذا قال : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ولم يقل بين المؤمنين والكافرين ، أى بينكم وبين قريش .

وليس المقصود بالأيام ما هو معروف لدى الناس من أوقات تضم الليل والنهار ، ولكن المقصود بـ« الأيام » هنا هو أوقات النصر أو أوقات الغلبة . ويقال أيضاً : « يوم فلان على فلان » إذن «وتلك الأيام نداولها بين الناس » لم تتضمن المداولة بين المؤمنين والكافرين ، ولكنها مداولة بين الذين مالت أبصارهم إلى الغنائم فتخلخل إيمانهم ، ففازت قريش ظاهرياً . فلو ظللتم على إيمانكم لما حدث ذلك أبداً . لكنكم تخليتم عن منهج ربكم ، وبذلك استويتم وتساويتم مع غير المؤمنين ، وبذلك تكون الأيام لذلك مرة ولهذا مرة أخرى ، إنها مطلق عدالة .

علينا أن نتذكر الشرط السابق ، لا لعدم الهزيمة . بل للعلو والنصر :

« وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

إن الحق سبحانه فى مسألة مداولة الأيام ينبه المؤمنين الذين تخلخل إيمانهم : مادمتم اشتركتم معهم فى كونكم مجرد « أناس » فيصبح النصر يوماً لهم ويوماً لكم ، والذكى العبقرىّ الفطن الذى يحسن التصرف هو من يغلب ؛ لأن المعركة هنا تدور بين قوة بشر مقابل قوة بشر . ومادام المسلمون قد تخلوا عن منهج الله فقد صاروا مجرد بشر فى مواجهة بشر . ولذلك قلنا:إنه عندما تخلى الرماة عن إنفاذ أمر القائد الأعلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهرت عبقرية خالد بن الوليد على عبقرية المقاتلين المسلمين .

ويجب أن نلحظ فى قوله الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » أننا لا يمكن أن نقول : إن مداولة الأيام تكون بين المؤمنين والكافرين ، إنما هى بين الناس ؛ لأن الناس هم مجموعة الإنسان ، فإن تجردوا عن منهج السماء فهم سواسية ، وصاحب الحيلة يغلب ، أو صاحب القوة يغلب ، أو صاحب العدد أو العُدّة يغلب .

ولكن ما الذى يعوض كل تلك الإمكانات ويحقق النصر ؟ إنك إن تأخذ الله فى جانبك فلن يجرؤ مخلوق أن يكون فى مواجهة الحق فى معركة . لقد قلنا قديماً وعلينا أن نعيها جيداً : إن الولد الصغير حينما يضطهده زملاؤه فيلجأ إلى حِضن أبيه ، عندئذ ينصرف كل منهم إلى حاله ، لكن أقرانه يستطيعون أن يهزموه عندما يبتعد

عن أبيه . فما بالنا ونحن عيال الله ؟ وكذلك شأن الكفار مع المؤمنين .

إن الكفار قادرون على الانفراد بالمؤمنين حينما يتخلى المؤمنون عن منهج الله ؛ لأن الله لن ينصر أناساً ليسوا على منهجه ، فلو نصر الله أناساً على غير منهجه فإن ذلك يبطل قضية الإيمان . وعندما نستقرىء القرآن الكريم ؛ نجد أن كل خبر عن الإنسان وهو معزول عن المنهج الإلهى هو خبر كله شر .

فسبحانه يقول :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾

(سورة العصر)

إن الإنسان على اطلاقه لفى خسر ، ولكن من الذى ينجو من الخسران ؟ وتأتى الإجابة من الحق فيقول :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

وتتأكد القضية فى موضع آخر من القرآن الكريم فيقول ـ سبحانه ـ

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ﴾

(سورة المعارج)

إذن كل كلام ـ فى القرآن ـ عن الإنسان على إطلاقه يأتى من ناحية الشر . وما الذى ينجيه من ذلك ؟ إنه المنهج الإلهى .

إذن فقول الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » تحمل تأنيبا ولذعة خفيفة لمن أعلنوا الإيمان ولكنهم تخلفوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحد .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » .

ففى وقت النصر نجد حتى الذى لم يشترك فى المعركة يريد أن يُدخل نفسه ضمن المنتصرين . لكن وقت الهزيمة فالحق يَظْهر ، والذى يظل فى جانب الهزيمة معترفا بأنه شارك فى نزولها بالمسلمين وان لم يكن شارك فقد عذر أو لام من كان سببا فيها ، وهو مع ذلك يسهم فى حمل أوزارها وآثارها الضارة ، ويتحمل ويشارك فى المسئولية ، إنه بذلك يكون صادقا .

وقد يقول قائل : هل الله لا يعلم الذين آمنوا ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى يعلم الذين آمنوا سواء حدثت معركة أو لم تحدث . لكن علم الله الأزلى الغيبىّ لا نرى نحن به الحُجّة ، ولذلك لا تكون الحجّة ظاهرة بيننا ، ولكن حين يبرزُ علم الله إلى الوجود أمامنا فإنه علم تقوم به الحُجة واضحة على من آمن ، وعلى من لم يحسن الإيمان ، وذلك حتى لا يدّعى أحد لنفسه أنه كان سيفعل ، لكن الفرصة لم تواته .

وهكذا تأتى المواقف الاختبارية والابتلاءات ليعلم كل منا نفسه وتبرز الحُجة علينا جميعا . إذن : فهناك فرق بين علم الله الأزلىّ للأشياء كما سوف تحدث ، ولكن لا تقوم به الحُجة علينا . فقد يدعى البعض أنه لو قامت معركة شديدة فإنهم سوف يصمدون ، ولكن عندما تقوم المعركة بالفعل فنحن نرى مَنْ الصّامد ومَنْ هو غير ذلك من المتخاذلين الفارين ؟ ولنضرب لذلك مثلا ولله المثل الأعلى : نحن فى حياتنا العادية نجد أن عميد إحدى الكليات يأتى إلى المدرس ويقول له : نحن نريد أن نعقد امتحانا لنتعرف على المتفوقين من الطلاب ، ونمنح كُلا منهم جائزة .

فيرد المدرس : ولماذا الامتحان ؟ إننى أستطيع أن أقول لك : من هم المتفوقون ، وأن أرتبهم لك من الأول ومن الثانى وهكذا .

لكن عميد الكلية يصر على أن يعقد امتحانا حتى لا يكون لأحد حجة ، ويختار العميد مدرسا آخر ليضع هذا الامتحان . وتظهر النتيجة ويكون توقع المدرس الأول

هو الصائب ، وهكذا يكون تفوق هؤلاء الطلاب تفوقا بحُجة . وإذا كان ذلك يحدث فى المستوى البشرى فما بالنا بعلم الله الأزلى المطلق ؟

إن الحق بعلمه الأزلى يعلم كل شىء ومحيط بكل شىء ، وهو سبحانه لا يقول لنا : أنا كنت أعلم أنكم لودخلتم معركة ستفعلون كذا وكذا . .

وكان يمكن أن يجادلوا ويدعوا لأنفسهم أشياء ليست فيهم ، لكن الحق يضع المعركة وتكون النتيجة مطابقة لما يعلمه الله أزلا . إذن فالتغيير هنا لا يكون فى علم الله ، لكن التغيير يكون فى المعلوم لله ، ليس فى العالِم بل فى المعلوم بحيث نراه حُجة علينا .

ويقول الحق : « ويتخذ منكم شهداء » وساعة تسمع كلمة « يتخذ » هذه ؛ اعرف أنها اصطفاء واختيار . وسبحانه يقول :

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النساء)

أى أنه جل وعلا قد آثر إبراهيم واصطفاه ، إذن فالاتخاذ دائما هو أن يأخذه إلى جانبه لمزية له ورفعة لمكانته .

وحين يقول الحق : « ويتخذ منكم شهداء » فنحن نعرف أن « شهداء » هى جمع شهيد ، وكلمة شهيد لها معانٍ متعددة ، فالشهيد فى القتال هو الذى يُقتل فى المعركة ، وهذا سيكون حيا ويرزق عند ربه . وإياك أن تقول : إننا عندما نفتح قبر الشهيد سنجده عظاما وترابا . وهذا يعنى أنه سلب الحياة . . لا ، إن الله وضح أن الشهيد حىّ عِنده ، وليس حيا عند البشر . وإذا فتح أحد من الناس القبر على الشهيد فسيراه عظاما وترابا ؛ فقد جعل الله سبحانه للشهيد حياة عنده لا عندنا .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فللشهداء عند ربهم حياة لا نعرف كنهها ، ويوم نفتح عليهم قبورهم تصير أمرا محسا ، ولكن الله نبهنا أن الشهداء أحياء عند ربهم . وعندما نتأمل كلمة « شهداء » نجد أنها تعنى أيضا الشهادة على الحق الذى قامت من أجله المعركة ، وكل إنسان يُحب الخير لنفسه ، فلو لم يعلم هؤلاء أن إقدامهم على ما يؤدى إلى قتلهم خير لهم من بقائهم على حياتهم لما فعلوا .

وبذلك يكون الواحد منهم شاهدا للدعوة وشهيدا عليها . وقد ينصرف المعنى فى « شهداء » إلى أنهم بلّغوا الدعوة حتى انتهت دماؤهم . ويذيل الحق الآية بقوله : « والله لا يحب الظالمين » .

ومعنى هذا التذييل أن المعركة يجب أن تدور فى إطار الحق ، ومثلما قلنا : مادام الناس متخلفين عن المنهج فإن الله لا يظلمهم بل ستدور المعركة صراع بشر لبشر ، والقادر من الطرفين هو الذى يغلب . فالحق سبحانه بالرغم من كراهيته للكفر إلا أنه لا يُحابى المسلم الذى لا يتمسك بمطلوب الإيمان ، لذلك قد يغلب الكافرُ المسلمَ الذى لا يتمسك بمطلوب الإيمان ، ولكن إن تمسك المؤمنون بمطلوب الإيمان فالنصر مضمون لهم بأمر الله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

والتمحيص يختلف عن المحْق ، لأن التمحيص هو تطهير الأشياء وتخليصها من العناصر الضارة ، أما المحق فهو الذهاب بها كلها . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

إن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال هكذا ، بل لابد من تجربة تثبت أنكم فُتِنتُم ونجحتم فى الفتنة ، والفتنة هى الامتحان . إذن فلا تحسبوا أن المسألة سوف تمر بسهولة ويكتفى منكم أن تقولوا نحن نحمل دعوة الحق ، لا . إذا كنتم صادقين فى قولكم يلزمكم أن تكونوا أسوة حين يكون الحق ضعيفا ؛ فالحق حين يكون قويا فهو لا يحتاج إلى أسوة . بل قضية الإيمان الحق تحتاج إلى الأسوة وقت الضعف . ودخول الجنة له اختبار يجب أن يجتازه المؤمن .

والحق يقول : « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » وعندما نسمع ذلك فعلينا أن نعرف أن الله يعلم علما أزليا ممّن المجاهد ومن الصابر ، ولكنه علم لا تقوم به الحُجة على الغير ، فإذا حدث له واقع صار حُجة على الغير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

وكان القوم الذين فاتهم شرف الاشتراك فى بدر قد أرادوا أن يذهبوا مع الرسول للمشاركة فى غزوة أُحد ، ويوضح لهم الحق : أكنتم تظنون أن تمنى المعارك وحده يحقق النصر ، وهل كنتم تظنون أن كل معركة يدخلها المؤمنون لابد أن تكون منتصرة ؟ وإن كنتم تظنون أن المسألة هى نصر لمجرد التمنى ، فمعنى ذلك أنكم دخلتم إلى معسكر الإيمان من أجل الفأل واليُمن والنصر ، ونحن نريد أن نعرف من الذى يدخل معسكر الإيمان وهو بائع روحه وهو مُحتسب حياته فى سبيل الله .

فلو أن الأمر يمر رخاء ، لدخل كل واحد إلى معسكر الإيمان ، لذلك يقول الحق : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » . فهل ظننتم أنكم تدخلون الجنة بدون أن يُخرج الحق على الملأ ما علمه

غيبا ، وتترجمه الأحداث التى يُجريها سبحانه فيصير واقعا وحُجة عليكم ، ويبرز الله سبحانه من الذين جاهدوا ؛ أى دخلوا فى زُمرة الحق ، والذين صبروا على الأذى فى الحق .

ويقول سبحانه : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » أى إن ما كنتم تتمنونه قديما صار أمامكم ، فلو أن التمنى كان صحيحا لأقبلتم على الموت كما تقبلون على الحياة . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

ونحن نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه الأول هو « محمد » ، وله اسم ثانٍ عرفناه من القرآن وجاء فى الإنجيل هو « أحمد » :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الصف)

وقد ورد اسمه صلى الله عليه وسلم « مُحمد » فى القرآن أربع مرات ، و « أحمد » وردت مرة واحدة .

والآية التي نحن بصددها ، وهي آية ذكر فيها اسم محمد : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » . ولنقرأ قول الحق :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾

(سورة الأحزاب)

وقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ﴾

(سورة محمد)

وها هو ذا القول الكريم :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

والاسم هو ماوُضع عَلَماً على المسَمَّى ؛ بحيث إذا ذُكر الاسم جاء إلى الذهن المسمى ، فإذا اشترك اثنان في بيئة واحدة في اسم ؛ فلا بد من التمييز بينهما بوصف . فإذا كان في أسرة واحدة ولدان اسم كل واحد منهما مُحمد ، فلا بد أن نميز بين الاثنين بصفة ، وفي الريف نجد من يسمي « مُحمدًا الكبير » و« مُحمدًا الصغير » .

وكلمة « مُحمد » وكلمة « أحمد » مشتركتان في أصل المادة ؛ لأنهما من « الحاء والميم والدال » فالمادة هي الحمد ، إلا أن التوجيه الاشتقاقي في محمد غير التوجيه الاشتقاقي في أحمد ، لأن الاسم قبل أن يكون علماً إذا خرجت به عن معناه الأصلي ، انحل عن معناه الأصلي ، وصار علما على الشخص .

ولذلك قد نجد رجلا له جارية سوداء فيسميها « قمرا » وقد يكون للرجل عبد شقى فيسميه : « سعيدا » . فإذا صار الاسم علما على شيء فإنه ينتقل من معناه الأصلى ويصير عَلَماً على المسمَّى ، لكن الناس حين تُسمى أبناءها تلمح التفاؤل فى أن يصير المعنى الأصلى واقعا .

والدميمة التى يسميها صاحبها « قمرا » افتقدت جمال المسمى ، ولذلك فهو يريد لها أن تأخذ جمال الاسم . وكلمة « مُحمد » حين ننظر إليها فى الاشتقاق نجد أنها ذاتٌ يقع عليها الحَمْد من غيرها ، مثلما تقول : فلان مكرَّم أى وقع التكريم من الغير عليه .

وكلمة « أحمد » نجدها ذاتا وقع عليها الحمد لغيرها . وعندما نقول : مُكرِّم ـ بضم الميم وفتح الكاف مع تشديد الراء مكسورة ـ أى وقع التكريم منه لغيره . ونحن عندنا اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى القرآن وكلاهما من مادة « الحمد » فـ « محمد » ملحوظ فيه أن الحمد وقع عليه كثيرا من غيره . لكن لو كان المراد أن الحمد وقع عليه دون الكثرة فيه لكان اسم « محمود » هو الذى يطلق عليه فقط .

أما « أحمد » فقد قلنا إنه ملحوظ فيها أن الحَمْد وقع منه لغيره . و « أحمد » تتطابق مع أفعل التفضيل فنحن نقول : « فلان كريم وفلان أكرم من فلان » . إذن فـ « أحمد » أى وقع منه الحمد لغيره كثيرا ، فلو كان الحمد قد وقع منه بقدر محدود لقلنا « حامد » . إذن فـ « أحمد » مبالغة فى « حامد » وقع منه الحمد لغيره كثيراً فصار أحمد . و « محمد » مبالغة فى « محمود » ، وقع عليه الحمد من غيره كثيرا فصار محمدا .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم جمع له الله بين الأمرين ؛ فهو محمد من الله وحامد لله ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الله له بين مقامين : مقام الاصطفاء ومقام المجاهدة ، فبالاصطفاء كان « محمدا » و« محمودا » ، وبالمجاهدة كان « حامدا » و« أحمد » . إذن نحن هنا أمام مقامين اثنين لرسول الله صلى الله عليه

وسلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبى التوبة ونبى المرحمة »[1] .

وسيكون لذلك كلام ونحن نتناول هنا بالخواطر معركة أُحُد ، فبعد أن انحل القوم من الرماة عن أمره ، وحدثت الكرَّة عليهم من المشركين القرشيين ، بعد ذلك يتجه الصحابة هنا وهناك ليفروا ، ويتكتل المشركون على رسول الله لدرجة أن ابن قمئة يمسك حجرا ويضرب به حضرة النبى عليه الصلاة والسلام فيكسر رَبَاعِيَّته . وتنغرز فى وجنتى الرسول حلقتا المغفر ، ويسيل منه الدم ، ويحاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصعد على صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها . وكلها مجاهدات بشرية .

أما كان الله بقادر أن يُجنِّب رسوله كل ذلك ؟ إنه سبحانه قادر . ولكن كل ذلك كان تكريما من الله ، ولم يرد سبحانه أن يحرم رسوله من لذة المجاهدة ، وحتى يعرِّف الله المؤمنين بمحمد تقول : إن الله لم يأت بمحمد ليدلله على خلقه ، ولكن ليدُلَّ كُلَّ مؤمن على أن رسول الله حينما حدث له ما حدث قد ذاق المجاهدة ؛ فقد فر بعض المقاتلين من المعركة فى أُحُد ، وكادت ريح الهزيمة تهب على معسكر الإيمان ، هاهو ذا سيدنا أبو عبيدة رضى الله عنه يذهب إلى رسول الله فيجد حلقتى المغفر فى وجنتيه صلى الله عليه وسلم ، فيحاول سيدنا أبو بكر أن يخلع حلقتى المغفر ، فيتألم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول سيدنا أبو عبيدة :
- إليك يا أبا بكر . بالله دعنى .

ويمسك أبو عبيدة بإحدى الحلقتين وينزعها من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته ، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى فكان أبو عبيدة - رضى الله عنه - ساقط الثنيتين ، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . وينزف دمه صلى الله عليه وسلم ، وسيدتنا فاطمة يلهمها الله أن تأتى بقطعة من حصير وتحرقها ، وتأخذ

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى موسى الأشعرى .

التراب الباقى من الحريق وتضمد به الجرح . إن الله لم يشأ أن يحرم رسوله لذة المجاهدة .

ويأتى أنس بن النضر ويجد الصحابة وفيهم عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله وقد ألقوا ما بأيديهم ، فيسألهم أنس : ما يجلسكم ؟ فيقولون : قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم استقبل القوم من المشركين فقاتل حتى قتِل .

هذه كلها مواقف لم تكن تأتى وتظهر إلا بهذه المعركة . « وما محمد إلا رسول » أى اسمعوا . هذا محمد وهذه منزلته ، هو رسول من الله جاء بعد عيسى بن مريم ، وكان من الواجب أن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مؤكد على بشريته . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » .

وهل انقلب أتباع الرسل السابقين على أعقابهم حينما ماتت رسلهم ؟ فكيف تكونون أقل شأنا من هذه الأمم ؟ هبوا أن ذلك قد حدث ، فلماذا لا يبقى الخير الذى بلغه فيكم رسول الله إلى يوم القيامة ؟ الرجل الذى يكون قد صنع خيرا يموت بموته ، أيكون قد صنع شيئا ؟ لا ؛ فالذى يريد أن يصنع خيرا فعليه أن يصنع خيرا يخلفه .

لذلك فالزعامات الفاشلة هى التى يكون الفرد فيها زعيما ، ثم يموت ونبحث عن زعيم بعده فلا نجد ونتساءل : لماذا خنق الزعيم أصحابه وزملاءه ؟ أكان خائفا منهم ؟ ونظل نتمنى أن يكون قد ربَّى الزعيم أناسا ، فإذا ما ذهب نجد من يخلفه ، فلا يوجد إنسان يضمن حياته ؟ لذلك يقول الحق : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » .

وساعة تسمع القول الكريم : « وما محمد إلا رسول » فهذا أسلوب اسمه أسلوب

القصر . إنه سبحانه وتعالى يقصر محمدا على الرسالة . فإذا قصر محمد صلى الله عليه وسلم على الرسالة فهذا يعنى أن بعض المعاصرين له كانوا يعتقدون أن محمدا أكبر من رسول ولا يموت . فأوضح الله سبحانه أن محمدا رسول ، وقد خلت من قبله الرسل ، ولن يخلد الله أحدا .

وهل غاب ذلك عن الذهن ؟ نعم كان ذلك يغيب عن الذهن بدليل أنه حتى بعد أن نزلت هذه الآية وصارت قرآنا يُتلى ، نجد أن سيدنا عمر رضى الله عنه وكانت له فطرة صافية توافق وحى الله ، إنه محدَّث مُلْهَم .

ها هو ذا عمر بن الخطاب حينما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل إلى رحاب الله يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يموت حتى يقطع أيدى أناس من المنافقين كثير وأرجلهم . قال عمر بن الخطاب ذلك من هول الفاجعة ونسى الآية فيأتى سيدنا أبو بكر فيقول : من كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لم يمت ، ومن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، وتلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » . فقال عمر بن الخطاب : « فلكأنى لم أقرأها إلا يومئذ » .

ثم إن عمر بعد أن بايع المسلمون أبا بكر بالخلافة قال : أما بعد فإنى قلت لكم أمس مقالة ، وإنها لم تكن كما قلت ، وإنى والله ما وجدت المقالة التى قلت لكم فى كتاب أنزله الله ، ولا فى عهد عهده إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يَدْبُرنا[1] فاختار الله عز وجل لرسوله الذى عنده على الذى عندكم ، وهذا الكتاب الذى هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا كما هُدِىَ له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه تعطينا أمرين اثنين :

الأمر الأول : هو عِشق الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) يدبرنا : يكون آخرنا موتًا .

والأمر الثانى : هو حاجة إيمان ؛ فالعشق لا يستقيم ولا يصح أن يخرجنا عن طور التصور الإيمانى ؛ فعمر بن الخطاب قال : عندما سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية عرفت حتى ما تقلنى رجلاى ، وحتى هويت على الأرض .

إذن فقوله سبحانه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » يعنى لا ترتفعوا به أنتم أيها المؤمنون برسالته فوق ما رفعته أنا .

ومعنى « ينقلب على عقبيه » أى يرَجع . فهل هذا الرجوع رجوع عن المعركة ؟ أو رجوع عن أصل التشريع وأصل الديانة وأصل الرسالة التى جاء بها محمد ؟ إن هذا يصح ، وذلك يصح . وقوله الحق : « أفإن مات أو قتل » قول واضح ، وسبق أن تعرضنا إلى الموت وإلى القتل ، وقلنا : إن الموت والقتل مؤداهما واحد ، وهو الذهاب بالحياة ، إلا أن الذهاب بالحياة مرة يكون بنقض البنية التى لا تسكن الروح فيها إلاّ بمواصفاتها ، فإن نقضت البنية ولم تجد الروح المسكنَ الملائم لها تتركه ، لكن الموت على إطلاقه : هو أن تذهب الحياة بدون نقض البنية ، فالإنسان يذهب حتف أنفه ، أى نجده قد مات وحده .

إذن فنقض البنية يؤدى إلى ذهاب الحياة بالقتل ؛ لأن الروح لا تسكن فى مادة إلا بمواصفات خاصة ، فإذا انتهت هذه المواصفات ذهبت الروح . لكن عندما تذهب الروح بمفردها بدون نقض للبنية فهذا هو الموت لا القتل .

والله سبحانه يقول : « أفإن مات أو قتل » ذلك أنهم أشاعوا أن النبى قد قتل . وكيف يجوز ذلك على الصحابة والله قد قال :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

وهنا نقول : هل أنت علمت أن هذه الآية قد نزلت قبل أُحُد أو بعدها ؟ وهل أنت حسن الظن بأن كل صحابى يكون مستحضرا لكل آيات القرآن فى بؤرة

شعوره ؟ ألا ترى أنهم عندما سمعوا خبر قتله هربوا ، وإذا كان سيدنا عمر قد نسى هذه الآية : « أفإن مات أو قتل » كما أنه يحتمل أن يكون المراد من عصمة الله رسوله من الناس أنه ـ سبحانه ـ يحفظه من فتنة الناس وإذلالهم .

وهكذا أراد الله أن تمثل لنا معركة أُحُد كل الطوائف والأصناف التى تُنسب إلى الإيمان تمثيلا يتضح فى موقف ابن أُبىّ حيث انخذل وانقطع عن رسول الله بثلث القوم ، ومرحلة أقل منها ، تتمثل فى طائفتين هَمَّتا ، ثم شاء الله أن يربط على قلوبهما فيظلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما نشبت المعركة كان للرماة موقف فى المعركة الأُحدية .

فحين رأوا النصر أولا ورأوا الغنائم سال لعاب بعضهم على الغنائم ، فحصل انشقاق فيهم ، فعبدالله بن جبير وهو رئيس الرماة ومعه من معه من القلة يُصر على تنفيذ أمر رسول الله فيقاتل حتى استشهد ، واستشهدوا وهؤلاء هم الذين أرادوا الآخرة . بينما كان هناك قوم آخرون أرادوا الغنائم ، وحينما أشيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُتل فرت البقية الباقية من الرماة وغيرهم من المعركة ، ورسول الله ينادى القوم : « إلىّ عباد الله إلىّ عبادالله »[1] .

كل هذه مصاف إيمانية تمثل لنا كيف يُصفى الله مواقف المنسوبين إليه . وتظهر وتوضح موقف كل واحد ، وأنه مفضوح إيمانيا إن وقف موقفا يخالف منهج الله . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الوقت ـ فى موقف الإنهاك لقوته البشرية لدرجة أننا قلنا : إنه أراد أن يصعد فلم تَقو مادته البشرية ، فطأطأ طلحة ظهره ليصعد النبى عليه ، وهو فى هذه المرحلة من الإنهاك المادى البشرى يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعطيه من القوة فى هذا الضعف وفى هذا الإنهاك ما يقف به أمام جبار من جبابرة قريش . كان هذا الجبار يتهدده .

ولو أن الموقف كان موقف قوة لرسول الله أكان من المعقول أن ينتصر رسول الله على جبار قريش ؟

(١) رواه الحافظ ابن كثير فى التفسير .

ولكن الله يريد أن يُرينا تأييد الله لرسوله ، فى موقف إنهاكه وكيف يقف من جبار قريش هذا الموقف ، هذا الجبار هو « أبى بن خلف الجمحى » وكانت عنده رَمَكة(١) فيقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الرمكة أنا أعلفها كل يوم فَرَقاً(٢) من ذُرة لأقتلك عليها . فيقول له رسول الله قولة الواثق من أن ربه لن يخذله : « بل أنا أقتلك إن شاء الله » .

لم يلتق هذا الرجل مع رسول الله وهو فى قوته ، ولكنه جاء لرسول الله وهو فى هذا الموقف الذى أثخنته فيه الجراح وكسرت رَباعيته ودخلت حلقتا المغفر فى وجنتيه وسال دمه . وبعد ذلك يأتى إليه هذا الرجل ـ أبى بن خلف الجمحى ـ وهو يقول : أين محمد ؟ لانجوت إن نجا ، فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟

فيشير إليهم رسول الله أن اسكتوا . إنه ـ رسول الله ـ لا يريد قوة لقوة ، ولكنه علم أن أُبَيّاً قد عرف أن رسول الله منهك فجاء فى هذا الوقت ، فأخذ رسول الله الحربة ، وضرب أبى بن خلف بها فنالت منه ، فسقط من على فرسه يخور كما يخور الثور ، فقال له أصحابه : « لا بأس عليك يا أُبَىُّ ، ما أجزعك : إنما هو خدش »(٣) .

وهذا الذى قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى اشتد عليه غضب الله تعالى لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال : « اشتد غضب الله على مَنْ قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى سبيل الله واشتد غضب الله على قوم دَمّوْا وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٤) .

ولننظر كيف أن الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استكبارا وعنادا ، ولم

(١) الرمكة : أنثى البرذون ويطلق على غير العربى من الخيل ، عظيم الخلقة غليظ الأعضاء قوى الأرجل عظيم الحوافر .

(٢) الفَرَقُ : مكيال يسع ستة عشر رطلاً = ٧ كجم تقريبا .

(٣) ابن كثير فى التفسير .

(٤) رواه البخارى .

يعادوه عقيدة قلبية ، إنهم يعتقدون صدقه ، ويعتقدون حُسن بلاغه عن الله ، ويتحقق ذلك من قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

فما هو الاستيقان هنا ؟ لقد قال أصحاب أبىّ له : ما أجزعك إنما هو خدش فقال أبىّ : والذى نفسي بيده لو كان الذى بى بأهل الحجاز لماتوا جميعا . لكن أصحاب أبى قالوا له مرة أخرى : لا بأس عليك يا أبى إنه خدش بسيط . لكنّ أبى يقول :

ـ لا والله لقد علمت أنه يقتلنى ؛ لأنه قال لى بمكة : « أنا قاتلك إن شاء الله » فوالله لو بصق على لقتلنى . فمات وهم قافلون به إلى مكة .

هذا يحدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى موقف الضعف والإنهاك ، ويشاء له الله أن يقتل جبارا من جبابرة قريش وهو فى هذه الحالة . إن كل ذلك لأدلة تثبت لهم أن البشرية المادية لا علاقة لها مطلقا بمدد النصر من الله ؛ فالله يُمد رسوله حتى فى وقت الضعف . ومدده سبحانه لرسوله وقت ضعف الرسول هو إعلام بقيوميته سبحانه على جنوده ؛ لأنهم لو ظلوا أقوياء لقيل فى عرف البشر : أقوياء وغلبوا .

لكن هاهو ذا الرسول يصيب الجبار من قريش فى مقتل والرسول ضعيف ، وبعد ذلك يعطى الحق سبحانه لرسول الله أشياء إيمانية تزيده ثقة بأنه هو رسول الله ، وتزيد المؤمنين ثقة بأنه رسول الله . لقد خرج إلى المعركة وهو يعلم بما سيكون فيها ؛ لأنه قال : (إنى قد رأيت والله خيرا رأيت بقرا تُذبح ورأيت فى ذباب سيفى ثَلْمًا ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة)[1] .

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٦٢ .

وقال صلى الله عليه وسلم : (لقد رأيتني يوم أحد وما في الأرض قربي مخلوق غير جبريل عن يميني وطلحة عن يساري)[1] .

إذن فالمعركة بكل أحوالها عُرضت عليه ، ومع ذلك أقبل رسول الله على المعركة ليستدل من ذلك على أن الله أعطاه المناعة قبل أن يخوض المعركة . هذا ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم ، لقد رأى فأول ، وأما الذى يتعلق بالناس ، فيأتي إلى واحد من قتلى المعركة ـ وقتلى المعركة ، لا يُغسّلون ؛ لأن الذى يغسل هو من يموت في غير معركة ـ يأتي الرسول إلى واحد من هؤلاء الشهداء فيقول :

« إن صاحبكم لتغسله الملائكة » ـ يعني حنظلة ـ المؤمنون يرون أنه صلى الله عليه وسلم قد خرج عن القاعدة في الشهداء . كيف ؟ . لقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخبر بعد ذلك . . ولا يُخرج حنظلة عن قانون الشهداء أنه يُغسّل . . ولكن الذى يغسله هم الملائكة . . إن الملائكة تغسل حنظلة .

وبعد أن رجع رسول الله إلى المدينة يسأل أهله ما شأنه . . فيعلم أن حنظلة قد دخل بعروسه . . ثم نودي للمعركة . . فأعجله نداء المعركة . . فذهب إلى المعركة جُنبا . . فذلك غُسْل الملائكة له ، لقد تأكد الخبر من زوجة حنظلة . . إذن فهذه شهادة أخرى أن الله سُبحانه وتعالى لم يتخل عنهم في أوقات الضعف ، وأن تلك العملية كانت عملية مقصودة .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطي الرسول صلى الله عليه وسلم أشياء لتؤكد لنفسه أنه رسول الله . ألم نقل سابقا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء له صحابته فقالوا : يا رسول الله : إن جابر بن عبدالله عليه دين ليهودي وأجل الدين إلى جَزّ التمر وتمْرُه خَاسٍ هذا العام أي فسد من آفةٍ مثلا فنحب يا رسول الله أن تطلب من اليهودي أن يُنظر جابرا ـ أي ينتظر عليه ويؤخره إلى وقت آخر ـ فذهب رسول الله إلى اليهودي وطلب منه أن يُنْظِر جابرا ، فلم يرض اليهودي وقال : لا يا أبا القاسم . .

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة .

فأعاد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اليهودى : لا يا أبا القاسم . فأعاد عليه الرسول مرة ثالثة فقال اليهودى : لا يا أبا القاسم . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بثقة الإيمان بالله ما معناه : يا جابر اذهب بي إلى بستانك .

وذهب رسول الله فجاس خلال النخل ، ثم ذهب إلى عريش جابر الذى يجلس فيه ، واضطجع وقال : يا جابر جز واقض . قال جابر : فذهبت فجززت ، فإذا ما جززته يؤدى ما علىّ لليهودى ويبقى لى ما لم يبق لى وأنا غير مدين . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« **أشهد أنى رسول الله** » . إن الحق سبحانه يعطى رسوله بينات توضح أنه رسول الله ؛ فاليهودى لم يرض بشفاعة النبى ، فيعطى الله رسوله ما يؤكد أنه رسول الله . وهكذا نرى أن الله يعطى رسوله فى وقت الضعف الأدلة التى تؤكد له أنه رسول الله . والذى يدل على ذلك هؤلاء الذين أحبوا أن يؤذوه فى اسمه . إنّ اسمه مُحمد كما نعرف ، وهو محمد » أى الممدوح من الكل ، وبكثرة ، فيأتى خصومه ويريدون أن يهجوه وأن يلعنوه ، فيصرفهم الله سبحانه وتعالى حتى عن شتم الاسم لا المسمى فقط .

إن الله أراد أن يصعد العصمة ، وأراد ـ سبحانه ـ ألا ينالوا بالسباب من اسم رسول الله ، فألهم الله خصوم رسول الله أن يسموا المشتوم عندهم « مذمما » بدلا من « محمد » . وعندما يريدون اللعن ، فهم لا يلعنون الاسم محمدًا ولكنهم يسبون الاسم الذى اختاروه وهو « مذمم » ، فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عندما سمع ما قالته أم جميل امرأة أبى لهب :

« مذمما عصينا . . وأمره أبينا . . ودينه قلينا »[١] . وهى تقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حدث أن حمالة الحطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها حجر فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر فقالت :

(١) قلينا : أبغضنا .

يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه أما والله إنى لشاعرة وقالت ما قالت .

ويقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ألا تعجبون لِمَا يصرف الله عنى من أذى قريش يشتمون مُذَمَّماً ويلعنون مذمما وأنا محمد »[1] .

هكذا نرى من أفواه الحاقدين على رسول الله أنه معصوم بإرادة الله ، حتى الاسم أبعده الله عن اللعن ، أما المسمى فلن يلعن ولن يشتم .

إن ما حدث فى غزوة أحد كان هو التربية الأولى لصحابة رسول الله ، والتأكيد على صدق بلاغه عن الله . إن هذه المعركة قد صورت ذلك وجسدته ، ولذلك حين نلحظ المعارك التى جاءت بعد هذه المعركة فإننا لا نجد للمؤمنين هزيمة أبدا ، لأنهم صُفوا التصفية وربُوا التربية التى جعلت كل واحد منهم عارفا أن الله يعلم ما يخفيه وإن لم يحسن البلاء والجهاد فسيفضح الله ما فى نفسه ، وسيعلن الله عنه ؛ لذلك دخل كل مؤمن منهم المعارك وهو مقبل على الجهاد ، وكل المعارك بعد أُحُد جاءت نصرا وجاءت سلاما .

وهنا يعلمنا الحق أن البقاء على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النجاة وهو النصر ، ويحذرنا سبحانه ألا ينقلب المؤمن على عقبيه ، قال لنا : (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) .

« ومن ينقلب على عقبيه » هى صورة حركية مادية مرئية . وقد حدث ذلك من بعض الصحابة فى معركة أُحُد ، لقد فر البعض وانقلب بعضهم إلى المدينة ، ومعنى « انقلب » أى أعطى ظهره للمعركة بعد أن كان مواجها لعدوه ، وهى مثل قوله : « وَلَّوُا الأدبار » .

---

(١) رواه البخارى فى المناقب ، والنسائى فى الطلاق ورواه أحمد فى المسند .

ولكن فى قوله : « انقلبتم على أعقابكم » فيه انقلاب حسى أيضا ، وفيها كذلك انقلاب نفسى ، وهو الانصراف عن أصل الدين ، ولذلك سيعرفنا الحق أن المنافقين بعد حدوث تلك الواقعة وبعد ما فشا وذاع فى الناس قتل الرسول كان لهم كلام ، وضعاف الإيمان كان لهم كلام آخر ؛ فالمنافقون الذين هم أكثر شرا من الكفار قالوا : لو كان نبيًّا لما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

أما الذين آمنوا إيمانا ضعيفا فقالوا : سنذهب إلى ابن أُبَىّ ليأخذ لنا أمانا من أبى سفيان . فيقف أنس بن النضر قائلا : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ أى المنافقون ـ وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء ـ أى ضعاف الإيمان ـ .

لقد وزعها بالحق ؛ فهو يبرأ إلى الله من قول المنافقين الذين قالوا : إنهم سيعودون إلى دينهم القديم ، ويعتذر ويستغفر عن ضعاف الإيمان . ويقول سبحانه : « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » . لماذا؟ لأن الله أزلاً وقبل أن يخلق شيئا من خلقه له كل صفات الكمال ، إذن فأى صفة من صفات الكمال لم تطرأ عليه ـ سبحانه ـ من خلقه ، إنه ـ سبحانه ـ أوجد الكون بما فيه الخلق لأنه قادر ، وأوجده لأنه حكيم ، وأوجده لأنه عالم ، إذن فخلق الخلق لم يزد الله صفة من صفاته ، فحين خلقكم وصنعكم أعطى لكم المنهج لتكونوا خلقا سويا . إذن فالمصلحة تعود علينا نحن الخلق ، فكان يجب أن تنظروا إلى المناهج التى تأتى من الله على أنه لا نفع فيها لله ، ولكن النفع فيها عائد عليكم . ولذلك فمن يلحظ هذه ، فهو يعرف أن ربنا يستحق الشكر على أنه كلفنا بالمنهج . ولذلك جاءت الآية من بعد ذلك لتقول : « وسيجزى الله الشاكرين » لأن الشكر إنما يؤديه العبد على نعمة ، نعمة تمحيص وتعليم وبيان مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه . لقد تعلم المؤمنون أن الله يستحق منهم الشكر على هذه النعم .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى قضية عامة ، القضية العامة للناس جميعا هى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ

كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

وساعة تسمع « ما كان » أى « ما ينبغى » . فنحن فى حياتنا نقول : ما كان لك أن تضرب زيدا ، ونقصد أنه ما ينبغى أن تضرب زيدا . فقوله: « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله » هذا القول قد يدفع إلى التساؤل : وهل الموت أمر اختيارى ؟ لا ، ولكن تعبير الحق سبحانه له إيحاء ؛ لأنك عندما تقول : ما كان لفلان أن يفعل كذا ، فهذا معناه أن لفلان أن يختار أن يفعل ذلك أو لا يفعله ، وفى قدرة فلان أن يفعل أو لا يفعل . أما عن قدرة الله فلا يمكن أن يقول أحد ذلك .

إننا نفهمه على فرض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، فما لها أن تموت إلا أن يأذن الله . فإذا كانت النفس هى التى تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، ومع ذلك لا تملك أن تموت ، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلكة . إذن فالموت إن أرادته النفس فلن يأتى إلا أن يكون الله قد أذن بذلك . وإننا نجد فى واقع الحياة صورا شتى من هذه الصور .

نجد من يضيق ذرعا بهذه الحياة ؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسع للبلاء والكد فى الدنيا فينتحر ، إنه يريد أن يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه . أما الذى يملك الطاقة الإيمانية الرحبة فأى شقاء أو بلاء يقابله يقول : إن لى ربا ، وما أجراه علىّ ربى فهو المربى الحكيم الذى يعرف مصلحتى أكثر مما أعلم ، ولعل هذا البلاء كفارة لى عن ذنب .

وهذا عكس من يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه ، فيحاول أن يقتل نفسه ، وكل منا قد رأى أو سمع عن بعض الذين يريدون ذلك لكن يتم إنقاذهم ويدركهم من ينقذ

مشيئة الله فى إنقاذهم ، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصا سامة ، أو إطفاء حريق من أشعل فى نفسه النار . فالمنتحر يريد لنفسه الموت ولكن الله إذا لم يأذن ، فلا يبلغه الله هذا ، فقد تجد مُنتحرا يريد أن يطلق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة ، أو تجد منتحرا آخر يريد أن يشنق نفسه بحبل معلق فى السقف فينقطع الحبل ، لماذا ؟ لأنه لا يقبض الحياة إلا من وَهَبَ الحياة .

قد يقول قائل : ولكن هناك المقتول الذى يقتله إنسان آخر . وهنا يرد المثل الشعبى : لو صبر القاتل على المقتول لمات بمفرده . إن اللحظة التى تفارق الروح مادة الجسد موقوتة بأجل محدود ، فمرة تأتى اللحظة بدون سبب ، فيموت الإنسان حتف أنفه ، ويقول أصدقاؤه : لقد كان معنا منذ قليل . إنهم ينسون أنه مات لأنه يموت بكتاب مؤجل .

ولذلك نجد إنسانا يسعى إلى عافية الحياة ، فيذهب إلى إجراء جراحة ما ، وأثناء إجراء الجراحة يموت . ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقى حين يقول فى ذلك :

فى الموت ما أعيا وفى أسبابه
كل امرىء رهن بطىّ كتابه
أسد لعمرك من يموت بظفره
عند اللقاء كمن يموت بنابه
إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فالطب من أذنابه

إن الكتاب إذا انطوى فقد انتهى الأمر ، حتى عندما يلتقى الإنسان بأسد ، فيستوى الموت بالناب ، كالموت بظفر الأسد . فإن نام الموت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضه قرص دواء أو جرعة ماء . أما إن استيقظ الموت فالطب والعلاج قد يكون ذَنَباً أو أداة للموت ، والقاتل كل ما فعله أنه نقض بِنْية المقتول ، وهذا هو ما يعاقب عليه .

إذن فقول الحق : « وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » يطلق قضية

عامة . والكتاب المؤجل يطلق مرة على زمن العمر كله ، ومرة يطلق على النهاية النهائية منه ، والنهاية النهائية هي الموت الحقيقي . فالقاتل حين ينقض بنية القتيل إنما يوافق الأجل المكتوب الذي أراده الله . لكن لماذا نعاقب القاتل إذن ؟ نحن نعاقبه لأنه نقض بنية إنسان آخر .

والحق يقول : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . ولنلحظ قوله : « بإذن الله » فهي تدلنا على أن الله هو الذي يطلق الإذن . والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة . ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسند مرة هذه العملية لله فيقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾

(سورة الزمر)

ومرة أخرى يسند القرآن هذه العملية لِمَلَكٍ واحد :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾

(سورة السجدة)

ومرة يسندها الحق سبحانه إلى رسل من المعاونين لملك الموت :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾

(سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى صادق في كل بلاغ عنه ؛ لأن كل أمر يحدد الأجل ليس بمراد الموكَّل بإنهاء الأجل ، إنما هو بإذن من الله تعالى الذي يحدد ذلك . ومادام كل أمر قد صدر منه فهو سبحانه الذي يتوفى الأنفس ، وبعد ذلك فالملك الذي يتوفى

الأنفس - عزرائيل - له أعوان ؛ فهو عندما يتلقى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشر كل واحد مهمته . إذن فصيرورة الأمر بالموت نهائيا إلى الله .

وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله ، هذا هو الإذن ، والإذن يقتضى مأذونا ، والمأذون هم ملائكة الموت الذين أذن لهم ملك الموت بذلك ، وملك الموت تلقى الإذن من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » فالذى يريد جزاء الدنيا وهو الذى يطلب جزاء حركته فيها ، يأخذها ، ولو كان كافرا :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

وهذا ينهى عملية أن تقول : إن الكفار حالتهم أفضل من حالتنا ، الكفار متقدمون ؛ ونحن متخلفون . وهل لم تأت فترة كان فيها المؤمنون متقدمين جدا ؟ لقد جاءت فترة تقدم فيها المؤمنون ، وكانوا متقدمين لألف سنة ، وهم الدولة الأولى فى العالم . وكان الكفار يسمون زمانهم ودولهم بأنها تحيا فى عصور الظلمات . لماذا أنكرتم هذه !؟ لأن التاريخ جاء لنا من ناحية هؤلاء وقد شوهوه ، ولذلك نقول لهم : نحن كنا متقدمين وأنتم والتاريخ يشهد بذلك .

ولذلك قلنا : يجب على المؤمن بالله أن يكون غيورا على أسباب الله ، فلا يدع

أسباب الله للكافر بالله ، أيأخذ الكافر بأسباب الله وأنت يا مؤمن بالله تترك الأسباب ليأخذها هو !؟ لا ؛ لأن من يعبد الله أولى بسرِّه فى الوجود ، فكوننا نتركهم يأخذون الأسرار العلمية ولا ننافسهم فى هذا المجال هذا تقصير منا .

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين » ونلحظ أن الحق قد جاء بلفظ « الشاكرين » مرتين ، والقرآن يؤكد هذا المعنى . إنه سبحانه أعطاكم أسبابا فإن كانت الأسباب قد جاءت لكم بمسائل الدنيا فهى تستحق الشكر ، وإن كانت ستعطيكم تكليفا مع الأسباب فهذا التكليف سيعطيكم خير الآخرة ، وهو أمر يستحق الشكر أيضا .

وبعد هذا الكلام النظرى « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . . يقول ما يؤكد وجوده فى موكب الإيمان الذى سبقكم ؛ لأن فيه فرقا بين الكلام وبين أن يقع مدلول الكلام ، فواقع الكلام سبقكم فيقول :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

« وكأين » هذه يقولون : إنها للتكثير ، مثل « كم » ؛ فعندما يقول لك إنسان مثلا : لماذا تجافينى ؟ فتقول له : كم زرتك ؟ إن قولك : « كم زُرتك ! » فى ظاهرها أنها استفهام ، وأنت لا تريد أن تقول له مستفهما كم مرة زُرته فيها ، بل تقول له : أنت الذى عليك أن تقول ـ لأنك بقولك ستعترف أنى زُرتك كثيرا ، فيكون الجواب موافقا لما فعلت . وأنت لا تقول « كم زرتك » إلا وأنت واثق أنه إذا أراد أن يجيب فسيقول : « زرتنى كثيرا » ولو كنت لا تثق أنه سيقول : زرتنى كثيرا ، لَمَا قلتها ،

فعندما تقول له : كم زرتك ، كم تفضلت عليك ، كم واسيتك ، كم أكرمتك ؟ فإن « كم » تأتى للتكثير ، وتأتى مثلها « كأين » إنها للتكثير أيضا ، عندما تقول مثلا : « ياما حصل كذا » و « ياما » هذه معناها « كأيّن » .

وقد يسألك صديق : كيف حدثت هذه الحكاية ؟ فتقول له : كأى رجل يفعل كذا ويحصل له كذا ، اى أن المسألة ليست غريبة ، إن قولك : كأى رجل معناها أنها شاعت كثيرا ، وعندما تقول : كم مرة زرتك ، وكم من مرة زرتك فهذان الاستعمالان صحيحان والمعنى : كثير من نبى قاتل معه مؤمنون برسالته كما حدث وحصل مع رسول الله . وقوله الحق « رِبّيون » أى ناس فقهاء فاهمون سبل الحرب ، و« ربيون » أيضا تعنى : أتباعا يقاتلون ، و« ربيون » يمكن أن ينصرف معناها إلى أن منهجهم إلهى مثل « الربانيين » .

وقول الحق: « فما وهنوا » أى ما ضعفوا ، إذن فهو يريد أن يأتى بالأسوة ، وكأنه سبحانه يقول : أنتم لماذا ضعفتم فى موقفكم فى غزوة أُحُد وأنتم تقاتلون مع رسول الله . لقد كان الأولى بكم أن يكون حماسكم فى القتال معه أشد من حماس أى أتباع نبى مع نبيهم ؛ لأنه النبى الخاتم الذى سيضع المبدأ الذى ستقوم عليه الساعة ، ولن يأتى أحد بعده ، فكان يجب أن تتحمسوا ؛ فأنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأنا ادخرتكم لذلك .

إن الحق يعطيهم المثل وفيه تعريض بهم وعتاب لهم ، وفى هذا القول تعليم أيضا ، فيقول : « وكأين من نبى » أى وكثير من الأنبياء « قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم » ونستوحى من كلمة « وهنوا » أى ما ضعفوا . فكأنه قد حدث فى القتال ما يضعف ، « فما وهنوا لما أصابهم » أى ما حدثت لهم نكسة مثلما حدثت لكم .

« وما ضعفوا وما استكانوا » . وكل من « وهنوا » و« ضعفوا » و« استكانوا » هذه جاءت فى موقعها الصحيح ؛ لأن « الوهن » بداية الضعف ، و« الوهن » محله القلب وهو ينضح على الجوارح ضعفا . و« استكانوا » ماذا تعنى ؟ إنها من « سكن » . والسكون تقابله الحركة .

والحرب تحتاج إلى حركة ، والذى يأتى للحرب فهو يحتاج إلى كرّ وفر . أما الذى لا يتحرك فهذا معناه أنه ليس لديه قدرة على أن يتحرك ، وساعة تسمع ـ الألف والسين والتاء ـ وتأتى بعدها كلمة ، نعلم أن (الألف والسين والتاء) للطلب ، « فاسْتَفْهَم » أى طلب أن يفهم ، وهى تأتى لطلب المادة التى بعدها . كأن نقول : « استعلم » أى طلب أن يعلم ، أو نقول : « استخبر » أى طلب الخبر ، و« استكان » يعنى طلب له كوْنًا أى وجودًا ، فكأنهم بلغوا من الوهن ومن الضعف مبلغاً يطلبون فيه أن يكون لهم مجرد وجود ؛ لأن الوجود مظهره الحركة ، والحركة انتهت ، هذا هو معنى « استكانوا » .

ومادامت مِن الكون يكون وزنها ـ مثلما يقول الصرفيون ـ « استفعل » يعنى طلب الكون ، وطلب الوجود ، وقد يكون وزنها ليس كذلك ؛ إذا كانت من سكن ، وهى بهذا الاعتبار لا يكون فيها طلب ؛ لأن السين ستكون أصلية ، فوزنها ليس « استفعل » بل هو « افتعل » فـ « استكانوا » هل تعنى أنهم طلبوا السكون ؟ لا ؛ لأنهم كانوا ساكنين ، إذن فالأولى أن يكون معناها أنهم طلبوا مجرد الوجود ، هذا ما أميل إليه وأرجحه ، وقيل فى معناها : فما خضعوا وما ذلوا من الاستكانة : وهى الذلة والخضوع .

« فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » فما يصيب العبد ابتلاء من الله ، وفى الحديث : « إذا أحب الله قوما ابتلاهم »[١] . وكل ذلك الوهن والضعف ، لا يشغلهم عن المعركة ، لأنهم لو صبروا على التحمل لأمدهم الله بمدد من عنده ؛ لأنه حين تفرغ أسباب الخلق وتنتهى يأتى إمداد الخالق .

ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى بتذييل الآية : « والله يحب الصابرين » أى وكفى جزاء عن الصبر أن تكون محبوبا لله ؛ لأننا قلنا سابقا : قد نحب الله لنعمه التى أنعمها علينا ، ولكن المسألة ليست فى أن تحب الله أنت ، وإنما فى أن تصير بتطبيق

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والضياء المقدسى عن أنس ، وصححه السيوطى .

منهجه فيك محبوبا لله . وقد أثر عن بعضهم قوله :

وإلا ألم تَرَ كثيراً أحَبَّ ولم يُحَبّ ؟!!

أنت أحببت للنعم ، ولكنك تريد أن تكون محبوبا من الله ؛ لأن حبك للنعم لا يكفى ، فمثل هذه النعم أخذها الكافر أيضاً ، إذن فهناك حاجة أخرى . هناك مقدم وهناك مؤخر ، فالمقدم هو نعم الحياة وكل البشر شركاء فيها مؤمنهم وكافرهم ، ولكن المؤخر هو جزاء الله فى الآخرة وهو الأصل .

إذن ، فلو أن الناس فطنوا إلى قول الله : « والله يحب الصابرين » لقالوا : كفى بالجزاء عن الصبر أن نكون محبوبين لله ، حين أصابهم ما أصابهم . صحيح أن الإصابة لم تصنع فيهم وهناً أو ضعفا أو استكانة ، وهذا معناه أن فيهم مُسكة اليقين بالله . ومُسكة اليقين بالله تجعلهم أهلا لإمداد الله . فليس لك إلا أن تصبر على ما أنت فيه لتعرف مدد الله لك . ومدد الله لك لا يتجلى بحق إلا وقت الضعف ؛ لأنك وقت قوتك قد تعمل مثل الذين قيل فيهم :

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لكن المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم « فما وهنوا » ؛ لأنهم كانوا متيقظين إلى قضية إيمانية : إن الله لا يسلمك لنفسك إلا حين تغيب عنه ، فقالوا : ولماذا حدث لنا هذا ؟ لم يقولوا : ربنا انصرنا كى نخرج من الضعف ، لا . بل فكروا فى الأسباب التى أدت بهم إلى هذا :

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا

﴿ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

فكأن ما حدث نتيجة لذنب تقدم ففطنوا إلى السبب ، كان المفروض أنهم فى معركة ، وهذه المعركة أجهدتهم وأنهكتهم ، صحيح أنهم لم يضعفوا ، وكان المفروض أن يقولوا: « يارب انصرنا أولا » لا . بل قالوا : لابد أن نعرف السبب فى النكسة الأولى ، السبب فى هذه النكسة أن الله لم يسلمنى إلى نفس إلا لأنى نسيته .

« وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا » ، « ربنا » ، وانظر لكلمة النداء فى « ربنا » ، كان يمكن أن يقولوا : يا ألله إنما جاءوا بكلمة « ربنا » لماذا ؟ لأن علاقة العبد بالربوبية هى قبل علاقته بالألوهية ، فالألوهية مكلفة ، فمعنى « إله » أى : معبود ، ومادام معبودا فله تكليف يطاع فيه ، وهذا التكليف يأتى بعد ذلك ، هو سبحانه له ربوبيتهُ فى الخلق . قبل أن يكلفهم ، ومادام الرب هو الذى يتولى التربية ، فالأولى أن يقولوا : يارب ، إذن قولهم : « ربنا » يعنى أنت متولى أمورنا ، أنت الذى تربينا .

« ربنا اغفر لنا ذنوبنا » فكأنه لا شيء يصيبنا إلا بذنب من الغفلة ارتكبناه . ونعرف من كلمة « ذنب » أن الذى يفطن إلى معناها لا يفعلها أبدا ، لأن كلمة « ذنب » مأخوذة من مادة « الذَنَب » . والذَّنْبُ سيأتى بعده عقوبة . فاللفظ نفسه يوحى بأن شيئا سيأتى ، وعندما تتذكر عقاب الذنب فأنت لا تفعله .

« اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا » لأن كل معصية تكون تجاوزا عما أحلّه الله لك ، وزيادة غير مشروعة وإن كانت من نوع ما أحله الله ، ولكنها زيادة عن مقومات حياتك ؛ فالله شرع لنا الزواج لنأتى بالأولاد ، وعندما نأخذ أكثر من هذا من غير زواج نكون قد أسرفنا ، والله أعطانا مالا بقدر حركتنا ، فإن طمعنا فى مال غيرنا فقد أسرفنا . « وأسرفت » يعنى أن تأخذ حاجة ليست ضرورية لقوام حياتك . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إنه سبحانه يوضح : أنا حللت لك كذا من النساء فما الذى جعل عينيك تزوغ وتميل إلى غير ما أحله الله لك ؟ أنا أحللت لك كسب يدك وإن كنت فقيراً فستأخذ صدقة ، لماذا أسرفت ؟ إذن فكل أمر زائد على الحد المطلوب لبقاء الحياة اسمه « إسراف » « وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا » . لقد بدأوا يدخلون فى الحق ، لكنهم فى البداية رَأَوْا الباطل ، والباطل هو من أسباب تخلى الحق عن نصرتنا أولا ، لكن عندما يغفر سبحانه الذنب ويغفر الإسراف فى الأمر نكون أهلاً للمدد وأهلاً لتثبيت الله .

« وثبت أقدامنا » كيف يقول الحق ذلك والمفهوم فى المعركة أن الأقدام لا تثبت ؟ المعركة تطلب من المقاتل أن يكون صوالاً جوالاً متحركا ، إذن فما معنى « وثبت أقدامنا » ؟ إن قول الحق : «وثبت أقدامنا » يعنى لا تجعلنا نفر من أرض المعركة ، ولا نترك أرض المعركة أبدا . ولذلك قلنا : إن الكفار عندما حدث منهم ما حدث لم يظلوا فى أرض المعركة ، بل تركوا أرض المعركة وانصرفوا ، وهؤلاء المؤمنون ولو أنهم انهزموا إلا أنهم مكثوا فى أرض المعركة مدة ، وكروا وراء أعدائهم وطاردوهم . وقد اهتدى البشر أخيراً إلى هذا المعنى ، ففى فرنسا نيشان يسمونه « نيشان الذبابة » لماذا الذبابة ؟ لأن الذبابة إن طردتها عن مكان لابد أن تعود إليه ، فكذلك المفروض على القائد ـ مادام انسحب من منطقة ـ أن يوطن نفسه على العودة إليها ، فيعطوه نيشان الذبابة .

فقوله : « وثبت أقدامنا » فى أى منطقة ؟ وفى أى معركة ؟ علينا ألا نبرح أماكننا ؛ لأننا ساعة أن نبرحها فهذه أول الهزيمة ، وهذا أمر يُجَرِّىء العدو علينا .

« وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » . كلمة « وانصرنا على القوم الكافرين » هى حيثية ، فمادموا قد قالوا : «وانصرنا على القوم الكافرين » فهم إذن

مؤمنون ، ومؤمنون بحق ؛ ولذلك فإن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول قولته المشهورة : إنكم تنتصرون على عدوكم بطاعة الله ، فإن استويتم أنتم وهم فى المعصية غلبوكم بعُدتهم وعَددهم .

ولذلك فالإيمان يتطلب أن تنتبهوا إلى موطن الضعف فيكم أولا ، والذى استوجب أن يصيبكم ما أصابكم ، حقًا إنكم لم تضعفوا ، ولم تستكينوا وأصابكم من المعركة شيء من التعب والألم . وكأن الحق يوضح لنا أنهم قد تنبهوا فأحسنوا البحث فى نفوسهم أولا ، لقد تكلموا عن الذنوب وطلبوا المغفرة وتكلموا عن الإسراف على النفس ، وبعد ذلك تكلموا عن المعركة . فماذا كان العطاء من الله ؟

ويأتينا الجواب فى قوله الحق :

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

أى أن الذى يريد الدنيا فالله يعطيه من الدنيا غنائم وأشياء ، ولنا أن نلحظ أن الحق عندما يتكلم هنا عن الدنيا فهو لم يصفها بحُسن أو بشيء ، فقط قال : « ثواب الدنيا » ، لكن عندما تكلم عن الآخرة فهو يقول : « وحُسن ثواب الآخرة » وهذا هو الجمال الذى يجب أن يُعشق ؛ لأن الدنيا مهما طالت فهى متاع وغرور وزخرف زائل ، ومهما كنت منعما فيها فأنت تنتظر حاجة من اثنتين : إما أن تزول عنك النعمة ، وإما أن تزول أنت عن النعمة .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله يحب المحسنين » وقد أحسنوا حين ناجوا ربهم بعدما أصابهم . إنهم سألوا المغفرة ، وسألوا أن يغفر لهم إسرافهم فى أمرهم ، وأن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على القوم الكافرين ؛ لأنهم رأوا أن قوتهم البشرية حين

يتخلى عنهم مدد الله تصبح هباءً لا وزن لها .

« فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » ومثلما قلنا فى الصبر : « والله يحب الصابرين » كفى بالجزاء على الصبر أن تكون محبوباً لله ، كذلك كفى بالجزاء على الإحسان أن تكون محبوبا لله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ ﴾

ومادمتم مؤمنين وهم كفار فكيف يتأتى منكم أن تطيعوا الكافرين ؟ إنكم وهم من أول مرحلة مختلفون ؛ أنتم مؤمنون وهم كفار ، والكافر والمنافق سيستغل فرصة الضعف فى النفس الإيمانية المسلمة ، ويحاول أن يتسلل إليها ، مثلما قلنا : إن جماعة من المنافقين قالوا : قتل محمد ، ولم يعد فينا رسول فلنلجأ إلى دين آبائنا . والمؤمنون الذين أصابتهم لحظة ضعف قالوا : نذهب إلى ابن أُبى ـ المنافق الأول فى المدينة ـ ونطلب منه أن يتوسط لنا عند أبى سفيان ليأخذ لنا الأمان .

ولذلك يقول الحق : « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين » ، فإن كان الموقف يحتاج إلى ناصر فلا تطلبوا النصير من الكافرين ، ولكن اطلبوه ممن آمنتم به . وينزل القول الحق :

﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠ ﴾

ألم يقل أبو سفيان : « لنا العُزَّى ، ولا عُزَّى لكم » ، فقال لهم النبى قولوا لهم : الله مولانا ولا مولى لكم ، وعندما قال : يوم بيوم ، أى يوم أُحُد بيوم بدر ، الحرب سجال . فرد عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : لا سواء ، أى نحن لسنا مثلكم ؛ قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار ، فكيف تكون سواء وكيف تكون سجالاً !؟

« بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » ونفهم قول الحق: « خير الناصرين » أى يجوز أن يوجد الله بشرا كافرين أو غير كافرين وينصروكم نصرا سطحيا ، لا نقول إن هذا نصر إنما النصر الحقيقى هو النصر الذى يأتى من الله ، لماذا ؟ لأن النصر أول ما يأتى من ناحية الله فاطمئن على أنك خالص ومخلص لله وإلا ما جاءك نصره ، فساعة يأتيك نصر الله فاطمئن على نفسك الإيمانية ، وأنك مع الله .

وقول الحق: « خير الناصرين » دليل على أنه من الممكن أن يكون هناك ناصر فى عرف البشر . وقد قال المؤمنون : يارب نحن ضعاف الآن وإن لم نذهب لأحد ليحمينا ماذا نصنع ؟ فيوضح لهم الحق : كونوا معسكرا إيمانيا أمام معسكر الكفر ، وإياكم أن تلجأوا إلى الكافرين بربكم ؛ لأنهم غير مأمونين عليكم . وإن كنتم تريدون أن تعرفوا ماذا سأفعل : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » . فإذا ألقى الرعب فى قلوب الكافرين فماذا يفيدهم من عَدَدِهم وعُدَدِهم ؟! عددهم وأموالهم تصير ملكا لكم وتكون فى السَّلَب والغنيمة .

﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

وألقى الحق فى قلوبهم الرعب بالفعل . فساعة قالوا لأبى سفيان : إن محمداً قادم إليك بجيش كثيف من المدينة ، وانضم له مقاتلون لم يحاربوا من قبل ، وقادم إليكم فى حمراء الأسد . ماذا صنع أبو سفيان وقومه ؟ ألقى الله الرعب فى قلوبهم وفروا .

وكلمة « سنلقى » مأخوذة من « الإلقاء » وهو لا يكون إلا لمادة وعين . ويبين لنا القرآن هذا الأمر حين يقول : « فألقى الألواح » ، هذه حاجة مادية . قال تعالى :

﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

إنه أمر مادى . . ونحن نقول : ألقى الحجر . والحق سبحانه يقول :

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إنها حبال ، أى أمر مادى . وسبحانه وتعالى يقول عن الوحى لأم موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

فالإلقاء أمر مادى ، كأن الله يريد أن يجعل المعنى وهو الرعب شائعا ، فقال : أنا سأجمع الرعب وأضعه فى القلب ، ويكون عمله ماديًا . فإذا ما استقر الرعب فى القلب جاء الخور ، وإذا سكن الخور القلب نضح على جميع الجوارح تخاذلا ، فيقول : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » فكأنه مثل لنا الرعب ، والرعب أمر معنوى وهو التخوف من كل شيء ، فأوضح : بأنه سيأتيهم بالرعب ويلقيه فى القلب ، فيبقى به ليصنع الخور والخذلان .

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » انظروا إلى التعابير الصادرة عن الله . إنه هنا يأتى بـ « نون العظمة » ، « سنلقى » ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى ساعة

يتكلم عن أمر يحتاج إلى فعل فهو سبحانه يأتى بـ « نون العظمة » كقوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ولأن إنزال الذكر عملية عظيمة ، فنأتى بـ « نون العظمة » . لأننا سننزله بقدرة وسننزله بحكمة ، وننزله بعلم وننزله بسمع ، وننزله ببصر ، وننزله بقيومية ، وننزله بقبض ، وننزله ببسط ، فقوله : « إنا نحن » فكأن نون العظمة تأتى هنا ، لكن ساعة يتكلم سبحانه عن الذات العلية فهو يقول : « إننى أنا الله » . لم يقل إننا ، ولكن فى الإنزال يقول :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة القدر)

لأن هذه عملية عظيمة جليلة ؛ فـ « نون العظمة » تأتى فيها يكون من شأنه حدث يُفعل ؛ وهذا الحدث الذى يُفعل يحتاج لصفات كثيرة ، ولذلك قلنا ساعة تبتدىء أىَّ عمل تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » لماذا ؟ لأن العمل الذى ستعمله يحتاج إلى قدرة عليه ، ويحتاج إلى علم قبل أن تعمله ، ويحتاج إلى حكمة ، أى أنه يحتاج إلى صفات كثيرة ، فأنت تدخل على العمل باسم القادر الذى يُقْدِرُك ؛ وباسم العليم الذى يعلمك ، وباسم الحكيم الذى يحكمك . وكل هذه الصفات ستتكاتف فى إبراز العمل كى يرحمك حتى فى الاستعانة ، فلا يقول لك : هات الصفات كلها التى يحتاج إليها فعلك ؛ لأن هناك صفات أنت لا تعرفها ، فيقول لك : هات الاسم الجامع لكل صفات الكمال . قل : « باسم الله » ، وهى تضم كل صفات الكمال .

إذن فأنت تلاحظ أنك إذا رأيت « نون العظمة » التى نسميها « نون الجمع » نجد أننا نقول : « نحن » للجماعة . أو للمتكلم الواحد حين يعظم نفسه ، ولذلك نلاحظها حتى فى قانون البشر ، ألم يقولوا فى الملكية : « نحن الملك » ، وهذه النون بالنسبة لله ليست نون الجماعة . إنما هى « نون العظمة » ، العظمة الجامعة لكل صفات الكمال التى يتطلبها أى فعل من الأفعال ، لذلك قال سبحانه : « سنلقى فى

قلوب الذين كفروا الرعب » فكل قلب به كفر يحتاج إلى إلقاء الرعب فيه . إذن فتأتى نون العظمة لتستوعب كل هذه القلوب الكافرة .

وهو سبحانه لا يتجنى عليهم بالقاء الرعب ، ولكن هم الذين استحقوا أن يلقى فى قلوبهم الرعب ، لماذا ؟ « بما أشركوا » . إن الإشراك بالله هو الذى جاء لهم بالرعب ؛ لأن الله يفعل ، والشركاء لا يفعلون . ولو أن شركاءهم حق لما تخلوا عنهم . فلماذا لم يأتوا بشركائهم لينصروهم ؟ لقد جاءهم الرعب لأنهم ليس لهم مولى ، ولو كان لهم آلهة قادرة ـ كما يدعون ـ لقالوا لتلك الآلهة : رب محمد يعمل معنا هكذا فلماذا لا تقفون له يا أربابنا ؟ لكنهم أشركوا بالله ما لا يضر ولا ينفع ، بل ضره أقرب من نفعه .

« بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » والسلطان هو القوة والحجة والبرهان مأخوذة من مادة « السين واللام والطاء » ونقول : فلان تسلط على فلان ، أى أرغمه بقدرته عليه . ويقولون : فلان سليط اللسان ، أى قادر أن يسب ، إذن فالسلطة هى : القهر ، والقوة التى ترغم على الفعل ، وفى المعنويات هى الحجة والبرهان . والمؤمنون دائما ذوو سلطان من الله ؛ لأنهم إن انتصروا ماديا فذلك سلطان القهر ، وإن انهزموا ماديا فعندهم سلطان الحق والدليل ؛ ولذلك قلنا سابقا : إن إبليس يأتى يوم القيامة ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وقلنا إن السلطان نوعان : إما قوة تقهرنا على أن نفعل المعصية ، وإما برهان ودليل يجعلنا نفعل المعصية .

والفرق بين القوة القاهرة وبين سلطان الدليل هو أن القوة القاهرة تجعلك تفعل وأنت مرغم غير راض عن الفعل . أما سلطان الدليل فيقنعك بأن تفعل ؛ فتكون قد فعلت برضاك ، فمرة يأتى السلطان بمعنى : قوة تقهرك على أن تفعل الفعل وأنت

مرغم . إنما قوة الدليل تقنعك أن تفعل ، فيأتى الشيطان ليقر على نفسه فى الآخرة ويقول : « وما كان لى عليكم من سلطان » أى ليس معى قوة تقهركم على المعصية ، وليس معى دليل يقنعكم حتى تفعلوا المعصية ، لا هذا ولا ذاك ، فما الحكاية إذن ؟ قال : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » . أى إنكم أطعتمونى واستجبتم لدعوتى بلا سلطان قوة أقهركم به على شىء ، ولا سلطان دليل أقنعكم به .

ويذيل الحق الآية بقوله : « ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين » أى أن المرجع الذى يأوون إليه هو النار ، والمأوى ؛ هو الموضع الذى ترجع أنت إليه . وكأن فى هذا المرجع ذاتية من الكافر تلقيه على النار فهو - أى الكافر - مأواه ومثواه الذى يرجع إليه . ولذلك يجب أن نفطن إلى قوله الحق فى بعض الأساليب : « وإليه تَرْجِعون » وقوله : « وإليه تُرجعون » . « وبئس مثوى الظالمين » . . أى مثوى لا مفر بعده أبدا ، فكل مثوى من الجائز أننا نرحل عنه ، لكن المثوى الذى سيبقى خلودا للظالمين هو النار وهو بئس المثوى . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا

﴿عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾

ونعرف أن في « صدقكم الله وعده » مفعولين : الأول هو ضمير المخاطبين في قوله : « صدقكم » ، والثاني هو قوله « وَعْد » المضاف إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة « الله » فهو ـ سبحانه ـ قد أحدث وعداً ، والواقع جاء على وفق ما وعد . لقد قال الحق :

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾

(سورة محمد)

وقال سبحانه :

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾

(سورة الصافات)

والآيتان تؤكدان قضية وعدية ، بعد ذلك جاء التطبيق العملي . فهل وقع الوعد أو لم يقع ؟ لقد وقع ، ومتى ؟ فهل يشير الحق في هذه الآية إلى موقعة بدر ؟

« إذ تحسونهم بإذنه » . و« تحسونهم » أي تُذهبون الحس منهم ، والحس : هو الحواس الخمس ، ومعنى أذهبت حسه يعني أفقدته تلك الحواس . « إذ تحسونهم » وقد حدث ، وتمكنتم منهم ؛ تقتلونهم وتأسرونهم ، أو الحس : هو الصوت الذي يخرج من الإنسان ، ومادام فقد الحس يعني انتهى ، « إذ تحسونهم بإذنه » فحينما صدقتم لقاءكم لعدوكم على منهج الله صدق الله وعده ؛ هذا في بدر .

أما هنا في أُحُد فقد جاء فيكم قوله : « حتى إذا فشلتم » أي جبنتم . « وتنازعتم في الأمر وعصيتم » أمر الرسول « من بعدما أراكم ما تحبون » وهي الغنائم ، « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . كأنه سبحانه يعطينا العبرة من معركتين : معركة فيها صدق وعد الله ، وفعلا انتصرتم ، وأيضا صدق وعد الله حينما تخليتم

عن أمر الرسول فحدث لكم ما حدث . إذن فالمسألة مبسوطة أمامكم بالتجربة الواقعية ، ليس بالكلام النظرى وليس بالآيات فقط ، بل بالواقع .

أو أن الأمر كله دائر فى أُحد ، نقول فرضا : هو يدور فى أُحد ودع بدرا هذه ، حينما دخلتم أيها المسلمون أول الأمر انتصرتم أم لم تنتصروا ؟ لقد انتصرتم ، وطلحة بن أبى طلحة الذى كان يحمل الراية للكفر قتل هو وبضعة وعشرون ، الراية الكافرة قد سقطت فى أول المعركة ، وحامل الراية يقتل وهذا ما وضحه قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر » فجماعة تقول : لنبق فى أرض المعركة ، وجماعة تقول : ننسحب . ورأيتم الغنائم فحدث منكم كذا وكذا . فتأتى النكسة ، ولو لم يحدث ما حدث لكان من حقكم أن تتشككوا فى هذا الدين ، إذن فما حدث دليل على صدق هذا الدين ، وأنكم إن تخليتم عن منهج من مناهج الله فلا بد أن يكون مآلكم الفشل والخيبة والهزيمة .

« حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر » ، فجماعة قالوا : نظل كما أمرنا الرسول ، وجماعة قالوا : نذهب إلى الغنائم « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . ومادمتم قد تنازعتم وقالت جماعة : لنتمسك بمواقعنا ، وقالت جماعة أخرى : لنذهب إلى الغنائم ، إذن فالذى أراد مواصلة القتال إنما يريد الآخرة ولم تلهه الغنائم ، والقسم الذى أراد الدنيا قال : لنذهب إلى الغنائم . وفى هذه المسألة قال ابن مسعود رضى الله عنه : والله ما كنت أعلم أن أحدًا من صحابة رسول الله يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أُحد .

أى أنه لم يكن يتصور أن من بين الصحابة من يريد الدنيا ، بل كان يظن أنهم جميعا يريدون الآخرة ، فلما نزل قول الله : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » عرف ابن مسعود أن من الصحابة من تتقلب به الأغيار . وذلك لا يقدح فيهم ؛ لأنهم رأوا النصر ، فظنوا أن المسألة انتهت ؛ لقد سقطت راية الكفر ، وقتل المؤمنون عددا من صناديد قريش . ولقد عفا الله عن المؤمنين وغفر لهم ما بدر منهم من مخالفة لأمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » نعم لأنكم كنتم مشغولين بقتالهم قبل أن تنظروا إلى الغنائم ، فلما نظرتم إلى الغنائم اتجه نظركم إلى مطلوب دنياكم ، فانصرفتم عنهم ، ولم تجهزوا عليهم ولم تتم لكم هزيمتهم وقهرهم ،« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » وابتلاؤكم فى هذه الغزوة إنما هو رياضة وتدريب على المنهج ، كأنها غزوة مقصودة للابتلاء ، فترون منها كل ما حدث . وبعد ذلك نجحت التجربة ، فبعد هذه المعركة لم ينهزم المسلمون فى معركة قط .

ولذلك يقولون : الدرس الذى يعلم النصر فى الكثير لا يعتبر هزيمة فى القليل . والمثال على ذلك : لنفرض أن ولداً من الأولاد رسب سنة ، ثم حمل ذلة الرسوب ، نجده ينال بسبب ذلك مرتبة متميزة بعد ذلك بين العشرة الأوائل ، إذن فالرسوب الأول له كان خيرا .

« ولقد عفا عنكم » لأنه كان لكم وجهة نظر أيضا عندما تصورتم أن المعركة انتهت بسقوط راية الكفر ومقتل طلحة بن أبى طلحة ومقتل بعض من الصناديد فى معسكر الكفر ، فظننتم أن المسألة انتهت ، لكن كان يجب أن تذكروا أن الرسول قال لكم : اثبتوا فى مراكزكم وأماكنكم حتى لو رأيتمونا نتبع القوم إلى مكة ، ولو رأيتموهم يدخلون المدينة .

أيوجد تحذير أكثر من ذلك !؟ « والله ذو فضل على المؤمنين » وسبحانه جل وعلا لم يخرجهم من الحظيرة الإيمانية بهذا القول الحكيم . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ

خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد » هنا جاء لهم بلقطة من المعركة ، حتى إذا سمع كل واحد منهم هذا الكلام يستحضر الصورة المخزية التي ما كان يصح أن تحدث ، « إذ تصعدون » ، فيه « تَصْعَد » ، وفيه « تُصعِد » وهنا « تُصعِدون » من « أَصْعَد » ، و« أصْعَد » أي ذهب في الصعيد ، والصعيد الأرض المستوية حتى تعينه على سرعة الفِرار . إنما « صَعِدَ » تحتاج إلى أن يكون هناك مكان عالٍ يصعدون إليه . وهم ساعة أرادوا أن يفروا جَرَوْا إلى الأرضِ السهلة ومَشَوْا ، فكل منهم لا يريد أن يتعثر هنا أو هناك ، إذن فالمناسب لها « إذ تُصعِدون ولا تلوون على أحد » والفار لا ينظر هنا أو هناك ؛ ليس أمامه إلا الأرض السهلة .

« ولا تلوون على أحد » أي لا تعرجون على شيء ، والأهم من ذلك أن هناك تنبيها من القائد الأعظم وهو الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يدعوكم « والرسول يدعوكم في أخراكم » أي يناديكم من مؤخرتكم طالبا منكم العودة إلى ميدان القتال « فأثابكم غما بغم » . أنتم غَمَمْتُم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنكم خالفتم أوامره ، فوقفكم الله هذا الموقف .

كلمة « فأثابكم غما بغم » كأنه يقول : عاقبكم . ولكنه سبحانه يأتي بها مغلفة بحنان الألوهية « فأثابكم » . إذن فهي ثواب .. أي أن الحق سبحانه وتعالى بربوبيته وبألوهيته ؛ يعلم أن هؤلاء مؤمنون فلم يَقْسُ عليهم ، قال : « فأثابكم غما بغم » فكأن ما حدث لكم تخليص حق .

« لكيلا تحزنوا على ما فاتكم » ولو لم تحدث مسألة الحزن والخزي والذلة لشغلتكم مسألة أنكم فاتتكم الغنائم والنصر ، ولظل بالكم في الغنائم ؛ لأنها هي السبب في هذا . كأن الغم الذي حدث إنما جاء ليخرج من قلبكم لقطة سيل اللعاب على الغنيمة . وما أصابكم من القتل والهزيمة ، « فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون » أي أنه سبحانه يقدر ما الذي استولى

عليكم ، لأن من الجائز « والرسول يدعوكم فى أخراكم » أنهم لم يسمعوا النداء من هول المعركة ، « والله خبير بما تعملون » وهو سبحانه خبير بكل فعل وإحساس .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾

وكلمة « أنزل » تدل على أن هذا عطاء عُلوى ليس له شأن بالأسباب المادية ولا بالقوانين البشرية ؛ لأن النوم عرض من الأعراض التى تطرأ على الأحياء ، هذا العرض تستوجبه عمليات كيماوية فى نفسك ، وهذه العمليات الكيماوية حتى الآن لا يعرفون ما هى ، وأقصى ما فُهم منه أنه ردع ذاتى لجسم الإنسان . فكأن الجهاز المتحرك المكون من مخ يعمل، وعين ترى، وأذن تسمع، وحواس وحركة هذا الجهاز له طاقة ، ساعة تنتهى منه الطاقة ، لا يقول لك : أنت الذى تترك العمل.لا ، بل

يقول لك : أنا لم أعد صالحا للعمل . إنه ردع ذاتى ، مثلما يريدون أن يصلوا إليه الآن فى مجال الآلات بمجرد فصل تيار الكهرباء آليا عن تلك الآلات فهى تتوقف .

فالردع الذاتى هو فى النوم ويأتيك النعاس . وتبين بالبحث العلمى أن هناك أشياء فى الجسم لا تخرج كفضلات . بل تحتاج إلى التعادل والتوازن الكيميائى . ونحن نعلم أن هناك بقايا كنتيجة للحركة ، وهناك احتراق للطاقة ، وكل حركة فيها احتراق ، وبقايا هذا الاحتراق تخرج مرة على هيئة بول ، ومرة يخرج غائطا ومرة يخرج مخاطًا ، وهكذا ، إذن كثير من هذه الفضلات هى نتيجة عمليات الاحتراق ، لكن هناك أشياء لا نريد لها أن تخرج ولكن نريدها أن تتعادل ، فعندما تنام لا يوجد لك حركة وتبتدىء الكيماويات داخل الجسم فى التعادل ، وهذا هو ما يفعله لك النوم الذى تستوجبه أسبابك المادية .

وصاحب الهم والغم لا ينام أبدا ؛ فهو يسهو عن نفسه ويرهق جسمه أكثر وتكون المصيبة كبيرة عليه ، وهنا يتنزل الحق فضله عليكم بالنوم لأن أسبابكم لا تساعد أيا منكم على أن ينام .

وأنتم تذكرون قديما أننا قلنا : إن الإمام عليًّا كرم الله وجهه لما اشْتُهِرَ بالفتيا ، وكلما سألوه عن أمر أفتى فيه ، فقالوا : نأتى له بمسألة معقدة ونرى كيف يأتى بالفتيا ، وكأنهم نسوا أنه يُفتى لأنه تربى فى حضن النبوة ، فقد جاءت النبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا على مازال صغيرا ، أما الصحابة الآخرون فقد جاءت النبوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كبار فى السن ، فهناك معلومات دخلت عندهم من أيام الجاهلية ، ولكن سيدنا عليًّا كرم الله وجهه لم تدخل عليه معلومة من معلومات الجاهلية . كل المعلومات التى عنده نبوية ، فكل هذا التفاعل ينشأ عنه فُتيا ؛ لذلك كان سريعا فى الإفتاء .

على سبيل المثال ، تأتى له امرأة فتقول : يا ابن أبى طالب كيف يعطوننى دينارا من ستمائة ؟ مورثى خَلَّفَ ستمائة دينار فأعطونى دينارا واحدا . فقال لها : لعله مات عن زوجة ، وعن بنتين ، وعن أم ، الزوجة تأخذ الثُمن (خمسة وسبعين دينارا)

والبنتان تأخذان الثلثين (أربعمائة دينار) وللأم السدس وهو مائة دينار ، ولعل له اثنى عشر أخا وأختا واحدة،أشقاء أو لأب،وأنت هذه الأخت وقد بقى من التركة خمسة وعشرون دينارا توزع على الاثنى عشر أخا والأخت ؛ فيكون نصيبك دينارا . كيف عرف ذلك ؟ إنها دقة الحساب عند من تعلم فى بيت النبوة .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد أن الحق قد أنزل عليهم نعاسا ليؤمنهم فلم ينشأ النوم هنا من حركة الاختيار ، ولكن الله أنزله ، ومعنى « أنزله » ؛ أنه بعث رحمة جديدة من السماء لِيُخرج القوم الذين أصابهم الغم على ما فعلوا مما هم فيه . ولذلك قال أبو طلحة : غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد فكان السيف يسقط من أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه .

إذن فهى عملية قسرية . والنعاس حينما ينزل من الحق سبحانه وتعالى يكون عملية إنقاذ من حركة فاتت فرصتها على النفس البشرية فعوضها الله ، ولكن القوم الذين نافقوا ماذا كان حالهم ؟ لاشك أن الذين جاءوا نفاقا لم يصبهم غم على ما حدث . بل بالعكس ، لابد أن يكون قد أصابهم فرح أو اطمئنان على ما حدث ، وهؤلاء لا يكونون أهلا لأن ينزل الله عليهم أمنة النعاس . بل يتركهم الله لذواتهم ؛ لأنهم لم يكونوا فى حصن الله باتباع منهج الإسلام أو بالاخلاص ـ على الأقل ـ لفكرة الإسلام ، هؤلاء يسلمهم الله لذواتهم .

إذن فلن يُنزل عليهم أمنة النعاس . ومادام لن ينزل عليهم أمنة النعاس ، فقد أصبحوا فى قلق ، لماذا ؟ لأن نفوسهم قد أهمتهم . والإنسان حين يؤمن ويتقبل الإسلام من ربه يكون قد باع نفسه لربه ، ومادام قد باع نفسه لربه فالصفقة الإيمانية لابد أن تستمر . وإذا استيقظ المسلم مرة لنفسه نقول له : لقد رجعت فى عقد الصفقة . ومادمت قد رجعت فى عقد الصفقة فالله الذى كان قد اشتراك يتركك لنفسك ، فقوله : « أهمتهم أنفسهم » أى خرجوا عن صفقة الإيمان ؛ لأن الذى يعقد صفقة بالإيمان مع ربه ، هو من قال الله فيه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ

﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ﴾

(سورة التوبة)

ومادام الله قد اشترى من المؤمن نفسه فيجب على المؤمن ألا تهمه نفسه ، فيدخل المعركة بالصفقة الإيمانية ، فإذا أهمته نفسه يبدأ القلق ، والبلبلة ، والاضطراب ، وتوهم الأشياء ، والشيء الواحد يتوهمه على ألف لون . إذن فنفسه تكون غير مطمئنة ، ومادام الإنسان قد شغله هم نفسه حتى لو كان النعاس استجابة لأمر طبيعى من ذات النفس فلا يأتى النعاس أبدا .

ولذلك نجد أن الإمام عليًا - رضوان الله عنه وكرم الله وجهه - حينما سُئل عن أشد جنود الله؟ بسط يديه وقال : أشد جنود الله عشرة : الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، إذن فالحديد أشد من الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ، والسُكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله « الهم » .

فساعة يدخل الهم على النفس البشرية ، هذا أشد جنود الله ؛ لأن الهم يدخل على النفس البشرية بألوان متعددة للخطب الواحد ، فيتصور أموراً معقدة فى أمر واحد ، وواقعة على لون واحد ، ولكن الهم يجول به فى كل لون ؛ فهؤلاء قد أهمتهم أنفسهم ومادموا قد أهمتهم أنفسهم فقد خرجوا عن صفقة الإيمان . ومادموا قد خرجوا عن صفقة الإيمان الذى بوساطته اشترى الله من المؤمنين أنفسهم ، فالله يتخلى عنهم . ومادام الله قد تخلى عنهم فعليهم مواجهة المصير .

إن القلق والاضطراب يستبدان بهم ويصابون بالفزع من كل شيء . لكن حال الصنف الأول والطائفة الأولى يختلف ؛ فالله سبحانه وتعالى يعاملهم معاملة من بقى

فى الصفقة الإيمانية وإن كانت نفوسهم البشرية قد فسرت الأحداث تفسيرا خاطئا ، فظنوا أن المسألة فى المعركة انتهت ، فذهبوا لأخذ الغنيمة ، إن هؤلاء قد احترم الله بقاءهم على الإخلاص للإسلام ، وأدبهم على تفسيرهم للأحداث تفسيرا غير حق ، فأثابهم غما لما خالفوا فيه ، وأنزل عليهم أمنه لإخلاصهم فى قضية الإسلام .

« وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » وإذا سمعت كلمة « طائفة » فاعلم أنها جماعة ، لكن هذه الجماعة لها مواصفات خاصة هى التى تجمعها على فكرة واحدة كأنهم يطوفون حولها ، إنها ليست مطلق جماعة لكنها جماعة تدور حول فكرة واحدة ، ويأتى القول الحكيم هنا ليبين لك ما قالوه فى نفوسهم ، وماداموا قد قالوا فى نفوسهم ، أسمعهم أحد ؟ لا ، ولكن الله أخبر به ، وأخبر بما فى نفوسهم جميعا بقول واحد ، مما يدل على أنهم يطوفون حول فكرة واحدة ، فالنضح الوجدانى يجعلهم يقولون جملة واحدة هى : « هل لنا من الأمر من شىء » وماداموا سيقولون فى نفوسهم فمن الذى سمعهم وهم جماعة ؟ إنه الله - سبحانه - « والله عليم بذات الصدور » .

وأنت إذا قلت « طائفة » تجد أنها فى عرف اللفظ « مفرد » ، وعندما تجمعها تقول : « طوائف » ، لكن هى لفظ مفرد يدل على جمع ، فمرة يلحظ المفرد ، ومرة يلحظ ما يؤديه المفرد من الجمع . وهذه لا يتنبه إليها إلا البليغ ، فيفرق بينها كلفظ مفرد وبين ما تدل عليه كجمع ، ولذلك تجد هذا فى إعجاز القرآن ، فالحق يقول :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

وحينما يقول : « وإن طائفتان من المؤمنين » فهو هنا يأتى بالخبر ، اقتتلتا أو اقتتلوا ؟ إنه سبحانه يقول : « اقتتلوا » ، اللفظة طائفتان لكن الدقة البلاغية لاحظت أن كل طائفة مكونة من جماعة . « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » فماذا

نفعل ؟ « فأصلحوا بينهما » . فمرة رجع للجماعة ومرة رجع للاثنتين ، ففى ساعة الاقتتال لا تقف الطائفة بسيف واحد وتضرب ضربة واحدة ، لا ، ففى ساعة القتال كل فرد من الطائفة له عمل ، إذن فالفردية المكونة للطائفة متعددة .

لكن عندما نُصلح هل نأتى بكل فرد من هذه الطائفة وبكل فرد من الطائفة الأخرى أو نأخذ هذه الطائفة ممثلة فى رؤوسها والطائفة الأخرى ممثلة فى رؤوسها ونعقد الصلح بين الطائفتين ؟ فدقة القرآن تقول : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » وبعد ذلك يعود الحق للتثنية فيقول : « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما » والصُّلح يكون بين جماعة ممثلة فى قيادة وجماعة أخرى ممثلة فى قيادة .

وقوله الحق : « وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ماقتلنا هاهنا » هذا القول يدل على أنها طائفة تدور حول حركة واحدة ، ويدل على أن النفاق نفاق متفق عليه ، وليس كل واحد منهم ينافق فى نفسه ، لا . إنها طائفة المنافقين ، وقد كوّنوا جماعة ، ولهم سياسة مخصوصة ، ولهم كلام مخصوص ولهم وحدة فكر ، ولهم وحدة قول ، تعرفهم من قول الحق : « وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » .

ونعرف أن الحق هو الشيء الثابت ، ومادام ثابتا فهو لا يتغير ، وقضية الحق فيه تكون مطردة ، فالله حق ، خلق السماوات والأرض ، وكل الكون بالحق ، أنزل كتابه بالحق ، كله حق ، فهم يظنون بالله غير الحق مع أنه حق ، ونشأ الكون منه بقانون حق ، واستمرت سنن الله فى الكون بالحق ، وهو دائما ينصر الحق ، وهم يظنون بالله غير الحق ، يقولون : ربنا لم ينصرنا على الرغم من أنه وعدنا بالنصر ، وتناسوا العناصر التى جعلها الله أسبابًا للنصر ، إنها سُنّة الله وسُنّة الله تتحقق ولو على أحبابه ، لقد خالفوا أمر الرسول ، فلابد أن ينهزموا ، فلا مجاملة لأحد ، فالذى يخالف لابد أن يأخذ جزاءه ؛ لأن هذا هو الحق .

كان يجب أن يقولوا إن الحق واضح لدرجة أن أحبابه ومعهم رسوله حينما خالفوا

عن أمر الله الذى قاله الرسول صلى الله عليه وسلم طبق الله عليهم سُنته ، إذن فهى سنة بالحق ، لكنهم ظنوا بالله ظن الجاهلية ، والمقصود به إما ظن أهل الجاهلية ؛ وإمّا أن تكون الجاهلية عَلَمًا على السّفه كله ، وهذا الظن له نضح سلوكى .

« يقولون هل لنا من الأمر من شىء » أى هل انتصرنا أو ظفرنا أو غلبنا أو أخذنا غنائم ؟ أو يكون قولهم : « هل لنا من الأمر من شىء » مقصودا به : أننا خرجنا إلى المعركة بدون رأينا ؛ فقد كان من رأينا ألا نخرج وأن نظل فى المدينة وعندما يدخلونها علينا نحاربهم . « يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله » هم لم يمتلكوا البصيرة الإيمانية ولم يعرفوا لماذا لم ينصرهم الله ، هم فهموا أنهم لم ينتصروا ؛ لكن فى عرف الحق أنه انتصار ؛ لماذا ؟ لأنّ المعركة أثبتت أن المبدأ إن خولف فلا نصر ، إذن فالإسلام قد انتصر ، ولكن الذى انهزم هم المتخاذلون عن منهج الإسلام ، وهذا نصر للإسلام فى ذاته . ولذلك يجب أن نفرق دائما بين المبدأ الإسلامى و المنسوبين للمبدأ .

إياك أن تأخذ الحكم على المبدأ من المنسوبين للمبدأ ، فلا يكون المنسوبون للمبدأ حُجّة على الحكم فى ذاته إلا إذا كانوا ملتزمين به ؛ لأن الله حينما شرع ديناً سمّاه الإسلام ليحكم حركة الحياة فى الناس فهو قد قنّن وحرّم فيه أفعالاً ، ومادام قد قنن وحرم فيه أفعالاً فمعناه أن المؤمنين المسلمين الذين انتسبوا له من الممكن أن يخالفوا بأفعالهم تلك الأحكام ، فعندما يقرر الإسلام جلد أو رجم الزانى والزانية ، وحينما يشرع الإسلام قطع يد السارق أو السارقة ، وحين يشرع الإسلام تلك العقوبات للجرائم ، فمعنى ذلك أنه من الجائز أن تحدث تلك الجرائم ، فإذا ما حدثت فأنت لا تأخذها من واقع مُجْرِم لتحكم به على الإسلام ، لا تقل إن الإسلام أباح السرقة بل قل : سرق مسلم ووضع الإسلام عقوبة صارمة عليه وهى قطع يده .

« يُخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا » وهذه هى الفضيحة لهم ، فماذا كانوا يريدون أن يكون لهم ؟ كانوا يريدون ألا يخرجوا للمعركة فقالوا : لو كان لنا من الأمر شىء واتبعنا منطقنا ، لما جئنا الموقعة هنا وحصل لنا ما حصل ، هذه واحدة ، أو لو كان لنا شىء من الظفر الذى وعد الله به محمداً وأصحابه ما قتلنا ها هنا ، فعلى الرأيين يصح المعنى ، فكأنهم أرادوا أن

يعللوا القتل أو الموت بأسباب ، ومن الذى قال:إن القتل أو الموت يتعلق بأسباب ؟ إن الموت قضية تطرأ لإعدام الحياة ، وهى مجهولة السبب ومجهولة الزمان ومجهولة المكان ومجهولة العمر .

إذن فمادامت المسألة مجهولة فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة ؟ وهل لم تروا إنساناً مات وليس فى موقعة ؟ ألم تروا إنساناً قد قُتل وليس فى موقعة ؟ لو أن القتل لا ينشأ إلا فى مواقع قتال وحرب لكان لكم أن تقولوا هذا ، وإنما القتل والموت قضية عامة لها واقع فى حياتكم . هذا الواقع لم يرتبط بأرض ، ولم يرتبط بزمان ، ولم يرتبط بسن ، ولم يرتبط بسبب ، وإنما الموت يأتى لأنك تموت ، انتهت المسألة .

إذن فهم عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة فهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية . ولذلك يأتى الرد من الحق بأمر واضح للرسول صلى الله عليه وسلم : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » . فكأنك أيها الميت قد تكون أحْرَص على لقاء الموت من حِرْص الموت عليك . بدليل أننا قلنا : إن الإنسان يكون مريضاً ، ويلح على أن تُجرى له عملية جراحية فيعتذر الطبيب قائلا : عندى عدد كبير من الجراحات فانتظر شهراً ، فيأتى له المريض بوساطة لكى يقبل الطبيب إجراء العملية الجراحية ويلح عليه . ويعلى أجر الطبيب وقد يموت المريض . إذن فهو يلح على الموت أو لا ؟ إنه يلح على الموت .

يقول الحق : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » وكلمة « بَرَزَ » تدل على اندفاع حركى ، فمعنى : برزَ من الصّف؟ يعنى أن الصّف له التئام واقعى ، والذى يبرُز إنما يقوم بحركة مخالفة للصف ، هذه حركة .

« قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليُمحّص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » والذى يبرز إلى المضجع هو من يخرج من مكان الاستقرار ، وإلاّ فكيف يكون الابتلاء لمن يقدر الله سبحانه أن يحملوا معركة الإسلام إلى أن تقوم الساعة إذا لم تكن هذه المسائل ؟ لابد أن يكونوا قوماً قد عركتهم التجربة ، مُمحصين بالأحداث حتى لا يكون مأموناً على

حمل السلاح فى الإسلام إلا هؤلاء الصفوة المختارة .

فساعة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج ، وينتهى إلى أن يخرج إلى أُحُد ، نجد جماعة يتخاذلون بوساطة ابن أبى ، هذه أول تصفية ، وبعد ذلك ينقسم الرُّماة ، وهذه تصفية أخرى ، فريق يظل وفريق ينزل للغنائم ، وبعد ذلك يُشَاع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قُتل ، هذه تصفية ثالثة .

« وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » وكلمة « ذات الصُّدور » معناها صاحبة الصدور . وفى الصدر يحرص الإنسان على إخفاء الأمر الذى يحب أن يحتفظ به لنفسه بِحرْص كحرص الصاحب على صاحبه ، كأن الصدر حريص على ألا يسلم ما فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى يفضحهم أمام الناس ، ويفضحهم أمام نفوسهم ؛ فقد يجوز أن يكونوا مغشوشين فى نفوسهم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾

وعندما نقرأ كلمة « اسْتَزلَّهم » نعرف أن (الهمزة والسين والتاء) للطلب ، تطلب ما بعدها ، مثل : استفهم أى طلب الفهم ، استعلم يعنى طلب العلم ، استقوى يعنى طلب القوة ، و« اسْتَزَلّ » يعنى طلب الزّلل ، ومعنى « الزَّلل » هو العثرة والهفوة ، أى أن الإنسان يقع فى الغلط ، إذن فالشيطان طلب أن يزلوا ، « ببعض ما كسبوا » ، كأن الشيطان لا يجترىء على أن يستزل أحداً ممن آمن إلا إذا صادف فيه

تحللاً في ناحية ، لكن الذى ليس عنده تحلل لا يقوى عليه الشيطان ، ساعة يأتى الإنسان ويعطى لنفسه شهوة من الشهوات فالشيطان يرقمه ويضع عليه علامة ويقول : هذا ضعيف ، هذا نقدر أن نستزلّه . لكن الذى يراه لا يطاوع نفسه في شيء من التحلل لا يقترب ناحيته أبداً .

ولذلك فالنفس هى مطية الشيطان إلى الذنوب ، وفى الحديث الشريف : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم »[١] وعندما يرى الشيطان واحدًا تغلبه نفسه في حاجة فالشيطان يقول : هذا فيه أمل ! وهو الذى يجرى منه مجرى الدم كما سبق فى الحديث ، أما الملتزم الذى ساعة تُحدثه نفسه بشيء ويأبى فالشيطان يخاف منه ، إذن فالشيطان لا يستزل إلا الضعيف ، ولذلك فالذى يكون ربه على ذِكْر منه دائماً لا يجترىء عليه الشيطان أبداً .

إن الله ـ سبحانه ـ قد سمى الشيطان « الوسواسَ الخناس » ، إنه يوسوس للناس ، لكنه خنَّاس فإذا ذُكِر اللهُ يخنس ، أى يتأخر ويختفى ولكنّه ينفرد بك حين يراك مُنعزلاً عن ربك ، لكن حين تكون مع ربك فهو لا يقدر عليك بل يتوارى ويمتنع عن الوسوسة إذا استعذت عليه بالله .

إذن فقوله : « إنما استزلهم الشيطان » يعنى طلب منهم أن يزلوا نتيجة لأنه عرف أنهم فعلوا أشياء أَبْدَوْا وأظهروا فيها ضعفهم ، « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » . وكلمة « ببعض ما كسبوا » . . كأن قول الله « ولقد عفا الله عنهم » أنه لم يأخذهم بكل ما كسبوا ؛ لأن ربنا يعفو عن كثير . « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم » .

« عفا الله عنهم » لماذا ؟ عفا عنهم تكريما لمبدأ الإسلام الذى دخلوا فيه بإخلاص ، ولكن نفوسهم ضعُفت فى شيء ، فيُعطيهم عقوبة فى هذه ولكنه يعفو عنهم فهذا هو حق الإسلام ، « إن الله غفور حليم » .

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود عن أنس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾

والضرب فى الأرض هو السعى واستنباط فضل الله فى الأرض وفى سبيله لإعلاء كلمته ، فالذين كفروا يرتبون الموت والقتل والعمليات التى يفارق الإنسان فيها الحياة على ماذا ؟ على أنه ضرب فى الأرض أو خرج ليقاتل فى سبيل الله ، وقالوا : لو لم يخرجوا ما حصل لهم هذا ! سنرد عليهم ، ونقول لهم : كأنكم لم تروا أبداً ميتاً فى فراشه . كأنكم لم تروا مقتولا يسقط عليه جدار ، أو يصول عليه جمل ، أو تصيبه طلقة طائشة ، هل كل من يموت أو يقتل يكون ضارباً فى الأرض لشىء أو خارجا للجهاد فى سبيل الله ؟!

إذن فهذا حُمق فى استقراء الواقع ، وجاء الحق بذلك ليعطينا صورة من حكمهم على الأشياء ، إنه حكم غير مبنى على قواعد استقرائية حقيقية . فإذا عرفنا أنهم كفروا نقول : هذه طبيعتهم ، لأننا نجد أن حكمهم ليس صحيحا فى الأشياء الواضحة ، ومادام حكمهم ليس صحيحاً أو حقيقياً فى الجزئيات التى تحدث ـ فإذا عرفتم أنهم كفروا فهذا كلام منطقى بالنسبة لهم ـ فشأنهم أنهم لا يتثبتون فى أحكامهم فلا عجب ـ إذن ـ أن كانوا كافرين .

« أو كانوا غُزًّى » ، وغُزى : جمع غازٍ ، مثل : صُوّم وقُوّم ؛ يعنى جمع : صائم

وقائم . « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » . إذن فالله سبحانه وتعالى يصور لهم ما يقولونه ليعذبهم به ، كيف ؟ لأنهم عندما يقولون : لو كانوا عندنا لكنا منعناهم أن يخرجوا أو يُقتلوا ، إذن فنحن السبب .

وهكذا نجد أنهم كلما ذكروا قتلاهم أو موتاهم يعرفون أنهم أخطأوا ، وهذه حسرة فى قلوبهم ، ولو أنهم ردوها إلى الحق الأعلى لكان فى ذلك راحة لهم ولما كانوا قد أدخلوا أنفسهم فى متاهة ، ويحدُث منهم هذا حتى نعرف غباءهم أيضاً ؛ فهم أغبياء فى كل حركاتهم وفى استقراء الأحداث الجزئية ، وأغبياء فى استخراج القضية الإيمانية الكلية ، أغبياء فى أنهم حشروا أنفسهم وأدخلوها فى مسألة ليست من شأنهم ، فأراد ربنا سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك حسرة عليهم .

« لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » إن القضية الإيمانية هى « والله يُحيى ويُميت » أى هو الذى يَهَب الحياة وهو الذى يهب الموت ، فلا الضرب فى الأرض ولا الخروج فى سبيل الله هو السبب فى الموت ، ولذلك يقول خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربةٌ سيف أو طعنة رمح ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العَيْر ـ أى حتف أنفه ـ فلا نامت أعين الجبناء .

والشاعر يقول :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مُخْلِدِي ؟

أى يا من تمنعنى أن أحضر الحرب هل تضمن لى الخلود ودوام البقاء إذا أحجمت عن القتال . ويكمل الشاعر قوله :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

ويختم الحق الآية بقوله: « والله بما تعملون بصير » فكأنهم قد بلغوا من الغباء أنهم

لم يستتروا حتى فى المعصية ، ولكنهم جعلوها حركة تُرى ، وهذا القول هنا أقوى من « عليم » ؛ لأن « عليم » تؤدى إلى أن نفهم أنهم يملكون بعضاً من حياء ويسترون الأشياء ، ولكن علم الله هو الذى يفضحهم.لا ، هى صارت حركة واضحة بحيث تُبصَر . فجاء قوله : « والله بما تعملون بصير » . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

والذى يحرص على ألا يخوض المعركة مخافة أن يُقتل ، فما الذى يرجح عنده هذا العمل ؟ إنه يبتغى الخير بالحياة . ومادام يبتغى الخير بالحياة ، إذن فحركته فى الحياة فى وهمه ستأتيه بخير ، فهو يخشى أن يموت ويترك ذلك الخير ، إنه لم يمتلك بصيرة إيمانية ، ونقول له : الخير فى حياتك على قدر حركتك : قوة وعلما وحكمة ، أما تمتعك حين تلتقى بالله شهيداً فعلى قدر ما عند الله من فضل ورحمة وهى عطاءات بلا حدود ، إذن فأنت ضيعت على نفسك الفرق بين قُدرتك وحِكمتك وعِلمك وحَركتك فى الكسب وبين ما يُنسب إلى الله فى كل ذلك ، ولذلك يقول الحق :

« وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّم لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ »

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

ولنا أن نلحظ أن قول الحق فى الآية الأولى جاء بتقديم القتل على الموت قال تعالى : « ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم » وجاء فى هذه الآية بتقديم الموت على القتل قال - جل شأنه - : « ولئن متم أو قتلتم » فقدم القتل على الموت فى الآية الأولى لأنها جاءت فى المقاتلين ، والغالب فى شأنهم أن من يلقى الله منهم ويفضى إلى ربه يكون بسبب القتل أكثر مما يكون بسبب الموت حتف أنفه ، أما هذه الآية فقد جاءت لبيان أن مصير جميع العباد ومرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله - تعالى - وأن أكثرهم تزهق نفسه وتخرج روحه من بدنه بسبب الموت ، فلذا قدم الموت هنا على القتل . إذن فكل كلمة وجملة جاءت مناسبة لموقعها . إنه قول الحكيم الخبير .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾

إن الآية كما نرى تبدأ بكلام إخبارى هو « فبما رحمة من الله لنت لهم » . فكأنه - سبحانه - يريد أن يقول : إن طبيعتك يا محمد طبيعة تتناسب لما يطلب منك فى هذه المسألة ، هم خالفوك وهم لم يستجيبوا لك حينما قلت : إلىَّ عباد الله ، إلىَّ عباد الله إلى رسول الله ، وهذا شيء يُحْفِظ ويُغضِب . ولكنه لا يُحفِظ طبيعتك ولا يُغضب سجيتك لأنك مفطور مع أمتك على الرحمة . فكأنه يريد أن يحنن رسول الله على أمته التى أصابته بالغم ؛ فقال له : إياك أن تجازيها على هذا ؛ لأن طبيعتك أنك رحيم ، وطبيعتك أنك لست فظاً ، طبيعتك أنك لست غليظ القلب ، فلا تخرج عن طبيعتك فى هذه المسألة ، مثلما تأتى لواحد مثلا وتقول له : أنت طبيعة أخلاقك حسنة ، يعنى اجعلها حسنة فى هذه .

« فبما رحمة من الله لنت لهم » أى بأى رحمة أودعت فيك . ساعة تقول : بأى رحمة فأنت تبهم الأمر ، وعندما تُبهم الشيء فكأنه شيء عظيم ؛ لأن الشيء يُبهم إما لأنه صغير جدا ، وإما لأنه كبير جدا ، فالشيء إذا كان كبيرا يكون فوق المستوى الإدراكي ، وإذا كان صغيرا جدا يكون دون مستوى الإدراك . ولذلك فالأشياء الضخمة جدا نرى منها جانبا ولا نرى الجانب الآخر ، والشيء الدقيق جدا لا نراه ، ولذلك يقولون : هذا الشيء نكرة ، وذلك يدل مرة على التعظيم ويدل مرة على التحقير ، ومرة يدل على التكثير ، ومرة يدل على التقليل . فإن نظرت إلى أن الإدراك لا يستوعبه لضخامته إذن فهو كثير ، وإن رأيت أن الإدراك لا يستوعبه لِلُطفه ودِقّته ، وأنه ليس فى متناول البصر يكون قليلا أو دقيقا .

إذن فقول الحق : « فبما رحمة » أصلها هو : برحمة من الله طُبعت عليها لِنْتَ لهم ، و« ما » لماذا جاءت هنا ؟ إنك إما أن تأخذها إبهامية . . يعنى بأى رحمة فوق مستوى الإدراك ، رحمة عظيمة . أو تقول : « فبما رحمة » أى أن « ما » تكون اسماً موصولا . وكأن الحق يقول له : فبالرحمة المُودعة من خالقك فيك والتى تُناسب مُهمتك فى الأمة لِنْتَ لهم ، ومادامت تلك طبيعتك فَلِنْ لهم فى هذا الأمر واعفُ عنهم واستغفر لهم .

وهذه الآية جاءت عقب أحداث حدثت فى أُحُد : الحدث الأول : أنه صلى الله عليه وسلم رأى ألا يخرج إلى قتال قريش خارج المدينة بل يظل فى المدينة ، فأشار عليه المحبون للشهادة والمحبون للقتال والمحبون للتعويض عما فاتهم من شرف القتال فى « بدر » أن يخرج إليهم ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رأيهم ، ولبس لأمته ، فلما أحسوا أنهم أشاروا على رسول الله بما يخالف ما كان قد بدر منه ، تراجعوا وقالوا : يا رسول الله إن رأيت ألا نخرج ، فقال : « ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » فمادام قد استعد للحرب انتهى الأمر ، هذه أول مسألة وهى مسألة المشورة .

وبعد ذلك تخلف ابن أُبيّ بثُلث الجيش وهذه مسألة ثانية ، أما المسألة الثالثة فهى مُخالفة الرُّماة أمرَه صلى الله عليه وسلم وتَرْكهم مواقعهم على الرغم من أنه صلى الله

عليه وسلم قد حذرهم من ذلك وقال لعبدالله بن جبير الذى أمَّره على الرماة : « أنضح عنا الخيل بالنَّبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قِبلك »[1] ، ولكنهم خالفوا عن أمر رسول الله . والمسألة الرابعة هى : فِرارهم حينما قيل : قُتِل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسألة الخامسة : أنه حين كان يدعوهم ؛ فروا لا يلوون على شىء .

كل تلك أحداث كادت تترك فى نفسه صلى الله عليه وسلم آثاراً ، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول : أنا طبعتك على رحمة تتسع لكل هذه الهفوات ، والرحمة منى ، ومادامت الرحمة موهوبة منى فلابد أنى جعلت فيك طاقة تتحمل كل مخالفة من أمتك ومن أتباعك . ولا تظن أنك قد أُرسلت إلى ملائكة ، إنما أُرسلت إلى بشر ، والبشر خطاءون ، البشر من الأغيار ، فلهذا اجعل المسألة درساً ، وأنا فطرتك على الرحمة ، وأنت بذاتك طلبت منى كثيراً من الخير لأمتك ، ومن رحمته أن جبريل نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فنادانى ملك الجبال فسلم علىَّ ثم قال : يا محمد إن الله قد بعثنى إليك وأنا ملك الجبال لتأمرنى بأمرك ، فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا »[3] .

فأنا أطلب منك الرحمة التى أودعتُها فى قلبك فاستعملتها فى كل مجال ، وبهذه الرحمة لنت لهم ، وبهذه الرحمة التفُّوا حولك ، التفوا حولك لأدبك الجم ، ولتواضعك الوافر ، لجمال خلقك ، لبسمتك الحانية ، لنظرتك المواسية ، لتقديرك لظرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أى واحد منهم يده فى يدك لم تسحب يدك أنت حتى يسحبها هو ، خُلُقٌ عالٍ ، كل ذلك أنا أجعله حيثية لتتنازل عن كل تلك الهفوات ولْيَسَعها خُلقك وليسعها حلمك ، لأنك فى دور التربية والتأديب . والتربية والتأديب لا تقتضى أن تغضب لأى بادرة تبدر منهم ، وإلا ما كنت مُربيا ولا مُؤدبا .

---

(١) الدر المنثور للسيوطى حـ٢ صـ٦٨ . (٢) عند عودته من الطائف وقد آذاه أهلها .

(٣) رواه البخارى فى بدء الخلق ، ورواه مسلم فى الجهاد ، و[الأخشبان] جبلان فى مكة ، أبو قبيس والذى يقابله ويسمى قعيقعان أو هو الجبل الأحمر الذى يشرف عليه وسمى الجبلان بالأخشبين لصلابتهما وغلظ حجارتهما .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » لماذا ؟ لأنك تخرجهم عما ألفوا من أمور الجاهلية . والذى يخرج واحدا عما ألف لا يصح أن يجمع عليه إخراجه عما اعتاد بالأسلوب الخشن الفظ ؛ لأنه فى حاجة إلى التودد وإلى الرحمة ، لا تجمع عليه بين أمرين تقبيح فعله ، وإخراجه عما ألف واعتاد ، ولذلك يقولون للذى ينصح إنسانا ، النصح ثقيل ؛ لأن النصح معناه تجريم الفعل فى المنصوح ؛ فعندما تقول لواحد : لا تفعل هذا ، ما معناها ؟ معناها أن هذا الفعل سيىء ، فمادمت تجرّم فعله فلا تجمع عليه أمرين : إنك قبحت فعْله وأخرجته مما ألف ، وبعد ذلك تنصحه بما يكره.لا ، إنه فى حاجة إلى ملاطفة وملاينة لتستل منه الخصال القبيحة ، نحن نستعمل ذلك فى ذوات أنفسنا حين نجد مرضا يحتاج إلى علاج مر ، فنغلف العلاج المر فى غلاف من السكر بحيث يمر من منطقة الذوق بلا ألم أو نغص ، حتى ينزل فى المنطقة التى لا تحس بهذه المرارة ؛ لأن الإحساس كله فى الفم .

فإذا كنتم تفعلون ذلك فى الأمور المادية ، فلابد إذن أن نطبق ذلك أيضا فى الأمور المعنوية ، ولأن النصح ثقيل فلا تجعله جدلا ولا ترسله جبلا ، وخفة البيان تؤدى عنك بدون إثارة أو استثارة ، وبلطف يحمل على التقبل .

بهذا تصل إلى ما تريد ، ومثال ذلك حكاية الملك الذى رأى فى منامه أن أسنانه كلها وقعت ، فجاء للمعبر ليعبر ، فقال له : أهلك جميعا يموتون ، التعبير لم يُسر منه الملك ، فذهب لواحد آخر فقال له : ستكون أطول أهل بيتك عمرا ، إنه التعبير نفسه ، فمادام أطول أهل بيته عمرا ، إذن فسيموتون قبله ، هى هى ، ولذلك قالوا : الحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » إذن فبالرحمة لِنت لهم وبلين القول تبعوك وألفوك وأحبوك . و« الفظُّ » هو : ماء الكرش ، والإبل عندما تجد ماءً فهى تشرب ما يكفيها مدة طويلة ، ثم بعد ذلك عندما لا تجد ماء فهى تجتر من الماء المخزون فى كرشها وتشرب منه ، فى موقعة من المواقع لم يجدوا ماء فذبحوا الإبل وأخذوا الماء من كرشها ، الماء من كرش الإبل يكون غير مستساغ الطعم ، هذا معنى « الفَظّ » ، ونظرا لأن هذا يورث غضاضة فسموا : « خشونة القول » فظاظة ، والغلظ فى القلب هو ما ينشأ عنه الخشونة فى الألفاظ .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . إنها رحمة طُبعت عليها يا رسول الله من الحق الذى أرسلك . وبالرحمة لِنت لهم وظهر أثر ذلك فى إقبالهم عليك وحُبهم لك ؛ لأنك لو كنت على نقيض ذلك لما وجدت أحداً حولك . إذن فالسوابق تثبت أن هذه هى طباعك ، وخلقك ، هو الرحمة واللين .

وبعد ذلك اعفُ عنهم ، وقلنا : إن « العفو » هو : محْو الذنب محوا تامًا وهو يختلف عن كظم الغيظ ؛ لأن كظم الغيظ يعنى أن تكون المسألة موجودة فى نفسك أيضا إلا أنك لا تُعاقب عليها ؛ لأنك كففت جوارحك وصنت لسانك ، أما المسألة فمازالت فى نفسك ، لكن العفو هو أن تمحو المسألة كلها نهائيا ، وتأكيدا لذلك العفو فأنت قد تقول : أنا من ناحيتى عفوت . لا . المسألة لا تتعلق بك وحدك ، لأنك رسول من الله ، أنت وراءك إله يغار عليك ، فلا يكفى أن تعفو عنهم . بل لابد أن تستغفر الله لهم أيضا ، فمن الممكن أن يعفو صاحب الذنب ، ولكن ربى ورب صاحب الذنب لا يعفو ، فيوضح الحق : أنت عفوت فهذا من عندك ؛ لكنه يطلب منك ان تستغفر لأجلهم . كى لا يعذبهم الله عما بدر منهم نحوك .

« فاعفُ عنهم » هذه خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم .. « واستغفر لهم » بسبب ما فعلوه ، وترتب عليه ما ترتب من هزيمتكم فى « أُحُد » ، وشجك وجرحك ، ولا تقل : استشرتهم وطاوعتهم فى المشورة ، وبعد ذلك حدث ما حدث ، فتكره أن تشاورهم ، لا تقفل هذا الباب برغم ما حدث نتيجة تلك المشورة وأنها لم تكن فى صالح المعركة ، فالعبرة فى هذه المشقة هى أن تكون « أُحُد » معركة التأديب ، ومعركة التهذيب ، ومعركة التمحيص ، إذن فلا تُرتِّب عليها أن تكره المشورة ، بل عليك أن تشاورهم دائما ، فمادام العفو قد رضيت به نفسك ، ومادمت تستغفر لهم ربك ، واستغفارك ربك قد تستغفره بعيدا عنهم ، وعندما تشاورهم فى أى أمر من بعد ذلك فكأن المسألة الأولى انتهت ، ومادامت المسألة الأولى قد انتهت ، فقد استأنفنا صفحة جديدة ، وأخذنا الدرس والعظة التى ستنفعنا فى أشياء كثيرة بعد ذلك .

ولذلك تجد بعد هذه المعركة أن الأمور سارت سيرها المنتصر دائما ؛ لأن التجربة

والتعليم والتدريب قد أثر وأثمر ، للدرجة أن سيدنا أبا بكر - رضى الله عنه - عندما جاءت حروب الردة ، ماذا صنع ؟ شاور أصحابه ، فقال له بعضهم : لا تفعل . فهل سمع مشورتهم ؟ لا.لم يسمع مشورتهم ، إنما شاورهم . فلإنفاد المشورة حُكم ، ولرد المشورة حكْم ، المهم أن تحدث المشورة ؛ ونعمل بأفضل الآراء فالمشورة : تلقيح الرأى بآراء متعددة ، ولذلك يقول الشاعر :

شاور سواك إذا نابتك نائبة
يوما وإن كنت من أهل المشورات

لقد اهتدى الشاعر إلى كيفية تقريب المعنى لنا ، فعلى الرغم من أن الإنسان قد يكون من أهل المشورة والناس تأخذ برأيه ، فعليه أن يسأل الناس الرأى والمشورة ، لماذا ؟ هاهوذا الشاعر يكمل النصيحة :

فالعين تنظر منها مادنا ونأى
ولا ترى نفسها إلا بمرآة

إن العين ترى الشيء القريب والشيء البعيد ، لكن هذه العين نفسها تعجز عن رؤية نفسها إلا بمرآة ، وكذلك شأن المسألة الخاصة بغيرك والتى تعرض عليك ، إن عقلك ينظر فيها باستواء ودون انفعال ؛ لأنه لاهوى لك ، والحق هو الذى يجذبك . لكن مسائلك الخاصة قد يدخل فيها هواك ويُحليها لك ويُحسنها .

إذن فالمشورة فى أُحُد كانت نتيجتها كما علمتم ، وكأن الله يقول لرسوله : إياك أن تأخذ من سابقة المشورة أن المشورة لا تنفع ، فتقاطعهم ولا تشاورهم ؛ لأنك لن تظل حيا فيهم ، وسيأتى وقت يحكمهم بشر مثلهم ، ومادام يحكمهم بشر مثلهم فلا تحرمه أن يأخذ آراء غيره ، وعندما يأخذ الآراء وتكون أمامه آراء متعددة فهو يستطيع أن يتوصل إلى الحكم الصحيح بحكم الولاية وبحكم أنه الإمام ، ويستطيع أن يفاضل ويقول : هذه كذا وهذه كذا ، إلا أن يُفوض غيره .

« وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » وقد عزم رسول الله أيضا على

الحرب ولبس لأمته ، أكان يلبس اللأمة ـ وهى عُدة الحرب ـ وبعد ذلك يقولون له : لا تخرج فيدعها ؟ لا ؛ فالمسألة لا تحتمل التردد. « فإذا عزمت فتوكل على الله » وهذه فائدة الإيمان ، وفائدة الإيمان : أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، معادلة جميلة ! الجوارح تقول : نزرع ، نحرث ، نأتى بالبذر الجيد ، نروى ، نضع سمادًا ونفترض أن الصقيع قد يأتى ونخشى على النبات منه فنأتى بقش ونحوه ونُغطيه ، كل هذه عمل الجوارح . وبعد ذلك القلوب تتوكل .

فإياك أن تقول : المحصول آتٍ آتٍ لأننى أحسنت أسبابى ، لا . لأن فوق الأسباب مُسَبِّبها . فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، هذه فائدة الإيمان لأننى مؤمن بإله له طلاقة القدرة ، يخلق بأسباب ويخلق بغير أسباب . الأسباب لك يا بشر ، أما الذى فوق الأسباب فهو لله ، فأنت حين تعمل أخذت بالأسباب ، وحين تتوكل ضمنت المسبب وهو الله ـ سبحانه ـ .

إذن فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل . إياك أن تظن أن التوكل يعنى أن تترك الجوارح بلا عمل ، لا ، فهذا هو التواكل أو الكسل ، إنه التوكل الكاذب ، والدليل على كذب من يقول ذلك أنه يجب أن يتوكل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يتوكل فيه ، ونقول للرجل الذى يدعى أنه يتوكل ولا يعمل : أنت لست متوكلا ، ولو كنت صادقا فى التوكل إياك أن تمد يدك إلى لقمة وتضعها فى فمك . كن متوكلا كما تدعى ، ودع التوكل يضع لك اللقمة فى فمك واترك التوكل ليمضغها لك !

وطبعا لن يفعل ذلك ، ولهذا نقول له أيضا : إن ادعاءك التوكل هو بلادة حس إيمانى وليس توكلا .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » و« عزمت » تقتضى عزيمة ، والتوكل يقتضى إظهار عجز ، فمعنى أنى أتوكل على الله أنى استنفدت أسبابى ، ولذلك أرجع إلى من عنده قدرة وليس عنده عجز ، وهذا هو التوكل المطلق .

وفى حياتنا اليومية نسمع من يقول : أنا وكلت فلانا ، أى أننى لا أقدر على هذا الأمر فوكلت فلانا . ومعنى توكيله لفلان أنه قد أظهر عجزه عن هذا الأمر . ولهذا ذهب إلى غير عاجز . كذلك التوكل الإيمانى ، فالتوكل معناه : تسليمك زمام أمورك إلى الحق ثقة بحسن تدبيره ، ومن تدبيره أن أعطاك الأسباب فلا ترد يد الله الممدودة بالأسباب ثم تقول له اعمل لى يارب ؛ لأننا قلنا فى سورة الفاتحة:إن الإنسان يدعو قائلا :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾

(سورة الفاتحة)

ومعنى « نستعين » أى نطلب منك المعونة التى نتقن بها العمل . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٦٠ ﴾

الحق يقول هنا : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، المؤمنون بمن ؟ بالله . وماداموا مؤمنين به فمن إيمانهم به أنه إله قادر حكيم عالم بالمصلحة ، ولا يوجد أحسن من أنك توكله .

وعندما نقرأ « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فقد نسأل : وما هو المقابل ؟ المقابل هو « وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » . إذن فأنت دخلت بالأسباب التى قالها الحق سبحانه وتعالى مُؤتمرا بأمر القيادة السماوية التى مُثلت فى الرسول المبلغ عن الله ، وقد أخذت عُدتك على قدر استطاعتك ، إياك أن تقارن

عَدَدَك بعدد خصمك أو تقارن عُدتك بعُدة خصمك ؛ فالله لا يكلفك أن تقابل العدد بالعدد ولا العُدة بالعُدة ، وإنما قال : أنت تُعد ما استطعته ، لماذا ؟ لأن الله يريد أن يصحب ركب الإيمان معونة المؤمن به ؛ لأنه لو كانت المسائل قدر بعضها ، لكانت قوة لقوة . لكن الله يريد أن يكون العدد قليلاً وتكون العُدة أقل وأن نعترف ونقول : هذا ما قدرنا عليه يارب . ومادام هو الذى قدرنا عليه ، فتكون هذه هى الأسباب التى مكنتنا منها ، ونثق بأنك يارب ستضع مع العدد القليل مدداً من عندك ، فأنت المعين الأعلى ، فسبحانك القائل :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة محمد)

والحق هنا يقول : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فأنت تضمن نصر الله لك إن كنت قد دخلت على أن تنصره .

كيف نعرف أننا ننصر الله ؟ نعرف ذلك عندما تأتى النتيجة بنصرنا ، لأنه سبحانه لا يعطى قضية فى الكون وبعد ذلك يأتى بالواقع ليكذبها ، وإلا فالمسلمون يكونون قد انخدعوا ـ معاذ الله ـ لأنه لو جاء الدين بقضية ثم يأتى الواقع ليكذبها ، فلابد أن يقولوا : إن الواقع كذب تلك القضية . لكن الحق قال : « إن تنصروا الله ينصركم » ويجىء الواقع مؤكدا لهذه القضية ، عندئذ نحن لا نصدق فى هذه القضية فقط ، بل نصدق كل ما غاب عنا ، فعندما تظهر جزئية ماديَّة واقعة محسوسة لتثبت لى صدق القرآن فى قضية ؛ فأنا لا أكتفى بهذه القضية ، بل أقول : وكل ما لا أعلمه داخل فى إطار هذه القضية .

ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى ترك بعض أسراره فى كونه ، وهذه الأسرار التى تركها فى كونه هى أسرار لا تؤدى ضرورات ؛ إن عرفناها فنحن ننتفع بها قليلا فى الكماليات ، ويترك الحق بعض الأسرار فى الكون إلى العقول لتستنبطها ، فالشىء الذى كان العقل يقف فيه قديما يصبح باكتشاف أسرار الله مقبولا ومعقولا ، كان الشىء الذى وقف فيه العقل سابقا أثبتت الأيام أنه حق ، إذن فما لا يُعرف من الأشياء يُؤخذ بهذه القضية أو بما أُخِذَ من الغير .

يقولون - مثلا - اكتشف الميكروب على يد « باستير » ، لكن ألم يكن الميكروب موجودا قبل « باستير » ؟ كان الميكروب موجودا ، ولم يكن أحد يراه ؛ لأن الشيء إذا دق ولطف لا نقدر أن ندركه ؛ فليس عندنا الآلة التي تدركه ، ولم نكن قد اخترعنا المجهر الذي يكبِّر الأشياء الدقيقة آلاف المرات . وكذلك اخترع الناس التلسكوب ، فبعد أن كان الشيء لا يرى لبعده ، أصبح يرى بوساطة التلسكوب ، وإن كان الشيء ضئيلا جدا ولا نراه . فقد استطعنا أن نراه بوساطة المجهر المسمى « الميكروسكوب » .

و« التلسكوب » يقرب البعيد و« الميكروسكوب » يكبر الصغير فنرى له حركة وحياة ، ونجد له مجالا يسبح فيه ، وهذا جعلني إذا حدثني القرآن أن لله خلقا غاب عن الحس لا يدرك من جن وملائكة ، فلا أكذب ذلك ، لأن هناك أشياء كانت موجودة ولم تدخل تحت حسي ولا إدراكي مع أنها من مادتي ، فإذا كانت الأشياء الأخرى من مادة أخرى مثل الملائكة من نور ، أو الجن من النار ، ويقول لي سبحانه إنهم مخلوقون وموجودون فأنا لا أكذب ما جاء عن الحق ؛ لأن هناك أشياء من جنسي كانت موجودة ولم أستطع أن أراها .

إذن فهذه قربت لي المسألة ، فعندما يقول الحق : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فنحن نعرف أن نصر الله مترتب على أن تدخل المعركة وأنت تريد أن تنصر الله ، وتنصره بماذا ؟ بأنك تحقق كلمته وتجعلها هي العليا ، وليس هذا فقط هو المطلوب ، بل لتجعل - أيضا - كلمة الذين كفروا السفلى .

« وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده » إنه في ظاهر الأمر يكون معنا ، لكننا نشعر أنه تخلى عنا ، لماذا ؟ لأننا نترك بعضا من تعاليم الله ، إذن فهو في المظهر العام معكم كمسلمين ، ومن معيته لكم أن يؤدبكم على المخالفة فيخذلكم عندما تخالفون عن أمره .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » وفي الآية السابقة قال سبحانه : « إن الله يحب المتوكلين » ، والذي لا يتوكل على الله عليه أن يراجع إيمانه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾

ما معنى « يغُل » ؟ أولا : « الغلول » هو الأخذ فى الخفاء . وهو مأخوذ من « أغل الجازر » - أى الجزار - أى عندما يسلخ الجلد يأخذ بعض اللحم مع الجلد ، ثم يطوى الجلد مخفيا ما أخذه من اللحم ، هذا هو الأصل ، وأطلق شرعا على الخيانة فى الغنائم ، ففى هول المعارك قد يجد المقاتل شيئا ثمينا فيأخذ هذا الشىء خفية ، وهذا اسمه « الغلول » ، وأيضا كلمة « الغِل فى الصدور » أى إخفاء الكراهية ، وكل المادة إخفاء .

والحق يقول : « وما كان لنبى أن يَغُل » لماذا ؟ لأن من الجائز أن الرماة - فى غزوة أحد - ساعة رأوا الغنائم أقبلوا عليها ؛ لأن غنائم بدر لم تكن قد قسمت بين كل من اشتركوا فى القتال ، فالذى كان يعثر على غنيمة كان يأخذها ، وكانت بدر أول معركة ، وكان الهدف من ذلك تشجيع المقاتلين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم : قد قال : « من قتل قتيلا فله سلبه » .

وظن المقاتلون فى أحُد أن المسألة ستكون مثل بدر ، وظن البعض أن الرسول لن يعطيهم غنائم ، فيوضح الحق سبحانه وتعالى : بأن هذه مسألة وتلك مسألة أخرى ، فمن يفعل مثل هذا يكون قد غل . وساعة تسمع : « وما كان لنبى أن يَغُل » أى أن من طبعه صلى الله عليه وسلم ومن فطرته وسجيته ألاّ يتأتى ذلك منه أبدا ، لكن من الجائز أن يحدث مثل ذلك من واحد من أمته ، إذن فهناك فرق بين امتناع

المؤمن أن يكون غالاً ، أى يأخذ لنفسه شيئا من الغنيمة ، وامتناع الرسول أن يكون غالاً ، لأن طبعه وسجيّته لا تستقيم مع هذه ، لكن الأمر يختلف مع المقاتلين ؛ فمن الممكن أن يكون أحدهم كذلك ، فسيدنا عمر فى معركة الفرس ، حينما جاء جماعة بتاج كسرى ، والتاج فيه كل النفائس وتلك سمة عظمة الملوك ، فقال الفاروق عمر : إن قوما أدوا إلى أميرهم هذا لأمناء . فقد كان من الممكن أنهم يخفونه .

« وما كان لنبى أن يغُل » وساعة تسمع « وما كان » أى : وما ينبغى ولا يصح أن يكون ذلك الأمر ، وبعد ذلك يأتى بالحكم العام فيمكن أن يحدث غلول من أحد فيقول : « ومن يغلل يأت بما غَل يوم القيامة » فالذى غل فى حاجة وخان فيها يأتى بها يوم القيامة كما صورها الرسول صلى الله عليه وسلم :

« والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حلّه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة ، فلا أعرفن أحدًا منكم لقى الله يحمل بعيرا له رُغاء أو بقرة لها خُوار ، أو شاة تَيعَر ، ثم رفع يديه حتى رُئىَ بياض إبطيه يقول :اللهم قد بلغت »[1] .

إن من يأخذ حراما فى خفية يأتى يوم القيامة وهو يحمل البعير أو البقرة أو الشاة مثلا . وآه لو كان ما أخذه حمارا فله نهيق !!

فإذا كان سيأتى بما غَل يوم القيامة ـ فالذى أخذه سيفضحه ـ ولذلك تسمى « الفاضحة » ، و« الطامة » . إذن فمن الممكن فى الدنيا أن يأخذها خفية ويغُل . لكنه سيأتى فى يوم القيامة وهو يحمل ما أخذه على ظهره ، ثم يقول مناديا رسول الله : يا محمد . . يا محمد ، لأن كل مسلم قد علم واطمأن إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رءوف ورحيم وأنه لن يرضى بهذه الحكاية ، لكن رسول الله أبلغ عن عقاب من يفعل ذلك فى حياته ، وعلى كل المؤمنين به ألا يفكروا فى الغلول وأخذ الغنيمة خفية .

ولماذا تكون الغنيمة فى الحرب شرا ؟ لأن المقاتل يعيش أثناء القتال فى مهمة أن

(١) رواه البخارى ومسلم ، و(رُغاء) بضم الراء صوت البعير ، و(خُوار) بضم الخاء صوت البقرة ، و(تَيْعَر) : تصيح واليُعار : صوت الغنم .

تكون كلمة الله هى العليا فكيف يرضى لنفسه بهذه المهانة وهى إخفاء الغنيمة ؟ إنه يحارب من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا ، ويجب أن يكون فى مستوى ذلك .

وبعد ذلك يأتى الحق بالقضية العامة : « ثم توفى كل نفس ما كسبت » ، وهى تشمل الغلول فى الغنيمة والغلول فى غير الغنيمة ، ولنتصور هذه بالنسبة لكل من يخون أمانة أؤتمن عليها ، وأنه سيأتى يوم القيامة يحمل عمارة - مثلا - لأنه بناها بغير أمانة أو يحمل أطنانا من سمك لأنه سرقها ، أو يحمل أطنانا من الجبن الفاسد التى استوردها . فكل من سرق شيئا سيأتى يوم القيامة وهو يحمله ، وإذا كنا نشهد أن الناس لا تطيق أن تفضح بين الخلق ، والخلق محدودون لأنهم المعاصرون ، فما بالك بالفضيحة التى ستكون لعموم الخلق من أول آدم إلى أن تقوم الساعة . إذن فعلى كل إنسان أن يحرس نفسه لأن المسألة ستنفضح .

« ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » ومادام سبحانه سيوفى كل نفس ما كسبت فكل سيأخذ قدر ما فعل ، فلا ظلم ، فلو ترك الأمر بلا حساب لكان هذا هو الظلم وحاشا لله أن يظلم أحدا .
وبعد تلك التهيئة والإيضاح يقول سبحانه :

﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى حين يطرح بعض القضايا طرح الاستفهام ، فهو يطرحها لا ليعلم هو فهو عالم ، ولكن ليستنطق السامع ، ونطق السامع حجة فوق خبر المخبر ، فلو قال : إن الذى يتبع رضوان الله لا يساوى من ذهب إلى سخط الله لكان ذلك إخبارا منه وهو صادق فيما يقول ، لكنه سبحانه يريد أن يستنطق عباده بالقضية ، « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء » ، « باء » أى : رجع « بسخط من الله » .

لاشك أن كل من يسمع عن الفارق بين اتباع الرضوان ، أو الرجوع بالسخط يقول : إن اتباع الرضوان يرفع درجة الإنسان ، والذى يبوء بالسخط يهبط إلى درك الخسران ، فالقضية قالها السامع . . فكأن الحق يستنطقنا بالقضية لتكون حجة علينا ، والذى يتبع رضوان الله بالطاعة ، أيساويه من يرجع إلى سخط الله بالمعصية ؟!

أفمن يتبع رضوان الله فلا يغُل فى الغنيمة ولا يختان فى الأمانة كمن غل فى الغنيمة وخان فى الأمانة ؟

أفمن اتبع رضوان الله بأن استمع لأوامر الله حين استنفره لجهاد العدو ، كمن لم يذهب لنداء الله ليكون فى جند الله مقاتلا لعدو الله ، لا ؛ فالذى لا يستجيب لنداء الله هو من يبوء بسخط الله .

و« السخط » هو : إظهار التقبيح ، لكن إظهار التقبيح قد لا يؤثر فى أناس غليظى الإحساس ، لا تنفع فيهم اللعنة أو الشتائم ؛ لذلك جاء سبحانه بالحكم : « ومأواه جهنم وبئس المصير » و« مأواه » أى المكان الذى يأوى ويرجع إليه هو جهنم وبئس المصير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

« هم درجات » أى ينزلون فى الآخرة منازل على قدر أعمالهم ، فكما ترى الدرجات موصلة إلى المراقى العالية كذلك فى الآخرة كل إنسان محاسب بعمله ، ويأخذ عليه درجة ، ولنا أن نلحظ أن الحق يستخدم كلمة « درجات » بالنسبة للجنة ؛ لأن فيها منازل ورتبا ، أما فيما يتعلق بالنار ، فيأتى لفظ « دركات » ،

فالدركة تنزل ، والدرجة ترفع .

« هم درجات عند الله » فالله هو العادل الذى ينظر لخلقه جميعا على أنهم خلقه ، فلا يعادى أحدا ، إنه يحكم القضية فى هذه المسألة سواء أكانت لهم أم كانت عليهم ، وبعد ذلك يردفها ـ سبحانه بقوله : « والله بصير بما يعملون » ليطمئن هؤلاء على أن الله بصير بما يعملون فلن يضيع عنده عمل حسن ، ولن تهدر عنده سيئة بدرت منهم . « والله بصير بما يعملون » . ونحن نسمع كلمة « يعمل » وكلمة « يفعل » وكلمة « يقول » ، والعمل أهم الأحداث ، لأن العمل هو تعلق الجارحة بما نيطت به ، فالقلب جارحة عملها النية ، واللسان جارحة عملها القول ، والأذن جارحة وعملها الاستماع ، والعين جارحة وعملها أن تنظر . إذن فكل جارحة من الجوارح لها حدث تُنشئه لتؤدى مهمتها فى الكائن الإنسانى ، إذن فكل أداءِ مُهِمَّة من جارحة يقال له : « عمل » .

لكن « الفعل » هو تعلق كل جارحة غير اللسان بالحدث ، أما تعلق اللسان فيكون قولا ومقابله فعل ، إذن ففيه قول وفيه فعل وكلاهما « عمل » إذن فالعمل يشمل ويضم القول والفعل معا ؛ لأن العمل هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها ، لكن الفعل هو : شغل جارحة غير اللسان بالعمل المطلوب منها ، وشغل اللسان بمهمته يسمى : قولا ولا يسمى فعلاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان يتكلم كثيرا ، لكن أن يحمل نفسه على أن يعمل ما يتكلمه فهذه عملية أخرى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول مقابله الفعل ، والكل عمل « والله بصير بما يعملون » قولا أو فعلاً وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾

والذى يمن على الآخر هو الذى يعطيه عطية يحتاج إليها هذا الآخذ ، فكأن الحق يقول : وهل أنا فى حاجة إلى إيمانكم ؟ فى حاجة إلى إسلامكم ؟ أصفة من صفاتى معطلة حتى تأتوا أنتم لتكملوها لى ؟ لا ، إذن فحين أبعث لكم رسولا رحيما بكم ، فالمنة تكون لى وحدى .

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » .

أكان يبعثه مَلَكا ؟ لا . بل بعثه من البشرية ؛ كى تكون الأسوة فيه معقولة . فعندما يقول لكل مسلم افعل مثلى ، فالمسلم عليه أن يطبق ما يأمره به الرسول ، لكن لو كان مَلَكا أكانت تنفع فيه الأسوة ؟ لا ، فقد يقول لك : افعل مثلى ، فتقول له : لا أقدر لأنك مَلَك ، ومن يدعى الألوهية لرسول ، فهو ينفى عنه الأسوة ؛ لأنه عندما يقول : كن مثلى ، يمكنك أن تقول : وهل نقدر ؟ أنت طبيعتك مختلفة ، فهل نصل لذلك ؟! لا نقدر ، ولذلك فالذين يقولون بألوهية رسول ، إنما يفقدون الأسوة فيه ، والمفهوم فى الرسول أن يكون أسوة سلوكية ، وأن يكون مبلغا عن الله منهجه ، وأن يعلن بشريته ويقول : أنا بشر وأستطيع أن أمثل وأطبق المنهج . إذن فهو أسوة سلوكية تطبيقية .

والرسول مبعوث للكل ، فلماذا كانت المنة على من آمن فقط !؟ لأنه هو الذى انتفع بهذه الحكاية ، لكنَّ الباقين أهدروا حقهم فى الأسوة ولذلك تكون المنة على من آمن .

« لقد من الله على المؤمنين » وما هى المنة ؟ المن : الأصل فيه أنه القطع ، لكن حين نسمعها نجدها تستعمل فى أشياء متقابلة ، فمثلا : المن هو العطاء بلا مقابل ، والمن هو : تكدير النعمة بالتحدث بها ، مثل قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالمن الذى نحن بصدده هو العطاء بلا مقابل ، ولكن المن قد استعمل فى تكدير النعمة بكثرة الكلام فيها ، فقد يقول الإنسان لمن يمن عليه : لا أريد النعمة التى تتكلم عنها دائما ، إذن فالمن استعمل فى النعمة وفى تكدير النعمة ، تقول: مَنَّ على فلان إذ أنقذنى من ضيق كنت فيه ، ويقال : فلان ليس فيه مُنة ، أى ليس فيه قوة ، وكلها تدور فى معنى القطع ، فإذا استعمل فى النعمة والعطاء نقول : نعم فيها قطع ؛ لأن النعمة جاءت لتقطع الحاجة ، ففيه حاجة ثم جاء عطاء ، والعطاء قطع الحاجة . فاستعملت فى معناها .

فإذا جاءت نعمة بعد حاجة والحاجة انقطعت بالنعمة فلا بد أن تأتى بفعل بعدها وهو أن تشكر من أنعم عليك ، وخصوصا أنه الله ، فالمن يقطع الشكر لأنك إن مننت بالنعمة وأظهرت تفضلك بها على من أسديتها إليه فقد تسببتَ فى أن الآخذ لا يشكرك بل إنه يتضايق من نعمتك وقد يردها عليك . فإذن : هنا قطع للشكر ، فإن قطعت حاجة محتاج فهذا يسمى « نعمة » وإن فخرت بنعمتك عليه حتى كدرتها فقد قطعت ومنعت شكره لك ،وهذا يسمى « منًّا » أى أذى لأنه يؤذى مشاعر وإحساس الآخذ . وإن قطعت مطلقا اختصت باسم « المِنّة » ، يقولون : فلان لا مُنة فيه أى لا قوة عنده تقطع فى الأمور ، وهنا يقول : « لقد من الله على المؤمنين » و« مَنَّ » هنا بمعنى أعطى نعمة ، والنعمة فى الدنيا تعطيك على قدر دنياك ، و« منة » الله برسوله صلى الله عليه وسلم تعطينى عطاء على قدر الدنيا وعلى امتداد الآخرة ، فتكون هذه منة كبيرة .

« لقد من الله على المؤمنين إذ » ، و« إذ » يعنى ساعة أى حين بعث فيهم رسولا

منهم فقد عمل فيهم منة وقدم لهم ومنحهم جميلا كبيرا وأنعم عليهم نعمة ، « إذ بعث فيهم رسولا » . فإذا كان مطلق بعث رسول كى يهدى الناس إلى منهج الله يكون نعمة فماذا إذا كان الرسول من أنفسهم ؟ إن هذه تكون نعمة أخرى لأنه مادام من أنفسهم ومن رهطهم ومن جماعتهم ، هو معروف نسبًا وحسبًا ومعروف أمانة ، فلا يخون ، ومعروف صِدْقًا فلا يكذب ، كل هذه « مِنة » ولم يتعب أحدًا فى أن يبحث وراءه : أكذب قبل ذلك حتى نعتبر ذلك كذبا ؟. أخان قبل ذلك حتى نعتبر ذلك خيانة ؟ لا ، هل هو من الناس المدَّعين الذين يريدون أن يقيموا ضوضاء من حولهم ؟ لا . بل هو فى الحسب والنسب معروف ، جده عبدالمطلب سيد البطحاء ولا يوجد واحد من أهله تافها .

وعرف الجميع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمانة منذ صغره ، إذن فالمقدمات تجعل الناس لا تجهد نفسها فى أن تتحرى عنه أصادق هو أم غير صادق ؟ إذن فهو مِنّة ، ولذلك حينما بعث الله سيد الخلق إلى الخلق ؛ كان هناك أناس بمجرد أن قال لهم : إنى رسول الله ، آمنوا به ، لم يقدم معجزة ولم يقولوا له : ماذا ستقول أو ماذا تعمل ؟ بل بمجرد أن قال : إنه رسول الله صدقوه ، فعلى أى حيثية استندوا فى التصديق ؟ لقد استندوا على الماضى .

لقبتمـوه أمـين القـوم فى صغـر
وما الأمـين عـلى قـول بمُـتهـم

ها هو ذا سيدنا أبو بكر رضى الله عنه يقول : إن كان قد قال فقد صدق ـ إذن فالمقدمات التى يعرفونها عنه كانت هى الحجة فى تصديق الرسول ، وخديجة ـ رضى الله عنها ـ عندما آمنت به ، أقال لها المعجزات والقرآن ؟ لا . بل بمجرد أن قال لها : أنا رسول الله . قالت له : صدقت فلابد أن تكون رسولا ، هو نفسه كان يتشكك وهى مؤمنة به ، هو نفسه يتساءل : لعل ذلك يكون كذا ، وذهبت به خديجة ـ رضى الله عنها ـ إلى ورقة بن نوفل لتطمئنه على الرغم من أنها كانت قد توصلت إلى الحكم فى القضية التى سألت عنها ورقة بن نوفل وأوضحت لرسول الله أنّ ما تقوله لا يمكن أن يوقعك فى بلية أو خزى أو ذِلّة ؛ لأن صفاتك جاءت كمقدمات لهذه النتيجة ، وهى أنك رسول كريم « إنك لتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب

الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً »[1] ، إنسان بهذه الصفات لا يمكن أن يأتيه شيطان ، وتعال نذهب معا لأهل الكتاب الذين لهم علم بهذه المسألة . كأنها آمنت برسالة رسول الله قبل أن يقول لها ورقة بن نوفل شيئاً .

إذن فقوله : « من أنفسهم » أى معروف لهم ، فلم يأت لهم بواحد سقط عليهم من السماء ، وقال : هذا رسول ، لا . إنه رسول « من أنفسهم » ، وهذه أول مِنّة ، « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » ، هذا إذا أخذت المحيط القريب أنه من الرهط ومن القبيلة ومعروف لهم ، « من أنفسهم » أو من جنس ونوع العرب ، وهذه أيضاً مِنّة ، فساعة أن يتكلم سيفهمونه ولا يحتاجون إلى وساطة أو ترجمة ، والرسول عندما يأتى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، يريد أناساً تفهم عنه ، فأوضح لهم : لم أكلفكم لتقولوا ماذا يريد ، لا ، هو من أنفسكم ، وهو إنسان له مواصفاتكم ، ولكنهم لفرط عنادهم لم يؤمنوا مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إنهم يستكثرون كيف يبعث الله بشراً ويجعله رسولاً ، وهذا غباء فى الاعتراض ، ويأتى الرد الجميل من الله :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أنتم من البشر ، فلا بد أن نأتيكم برسول من جنسكم ، حتى إذا قال لكم : افعلوا كذا تقولون : نعم ؟ لأنه بشر ويعمل ونحن بشر نستطيع أن نعمل مثله . . لكنه لو كان مَلَكاً لقال الواحد منكم : وهل أنا أقدر أن أكون كالمَلَك ؟ إذن فلا تنفع

---

(١) رواه البخارى .

هذه الحكاية ، وهكذا منّ الله على المؤمنين.إذ بعث فيهم رسولا . « من أنفسهم » ، إن أخذتها على أساس أنها قبيلة محدودة ومعروفة فهى منّة ، وإن أخذتها على أنه من جنس عربى فيكون اللسان واحداً فهى مِنّة ، وإن أخذتها من الجنس العام وهو الإنسان فهى مِنّة أيضاً .

وهل اعتبار معنى واحد من المعانى ينقض المعانى الأخرى أو تأتى كلها فى سلك واحد ؟ إنها معانٍ تأتى كلها فى سلك واحد ؛ لأن المتكلم هو الله ، ومادام المتكلم هو الله فيكون عطاء اللفظ أكثر من عطاء ألفاظ الخلق ، « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفُسِهم » ، وهناك قراءة - وإن كانت قراءة شاذة - تقول : « من أنفَسِهم » (بفتح الفاء) أى من أشرفهم لأنه من بنى هاشم وهم أفضل قريش ، وقريش أفضل العرب .

وماذا يعمل الرسول ؟ يُفهم من قوله : « رسولا » أنه لا يأتى بشىء من عنده ، بل هو - مع هذه المنزلة الحسنة بخُلُقه الجميل وماضيه الناصع - هو مع هذا رسول وليس له فى الأمر شىء ، إذن فمرسله خير منه ، فلا تنتبه إلى هذا الرجل العظيم فحسب بل يجب عليك أن تسأل : من أين جاء ؟ لابد أن تلتفت إلى أن الذى بعثه أعظم منه .

« رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته » ، وكلمة « يتلو » يعنى يقرأ لأن الكلمة تتلو الكلمة ، فالذى يقرأ أى ينطق كلمة بعد كلمة ، كلمة تالية بعد أخرى « يتلو عليهم آياته » وكلمة « الآيات » - كما نعرف - تستعمل للأمور العجيبة ؛ اللافتة للنظر ، تقول مثلا : فلان آية فى الحسن . أى حُسْنه لافت للنظر ، وتقول : فلان آية فى الذكاء ، صحيح أن هناك أذكياء كثيرين ، لكنه آية فى الذكاء . . أى أن هذا الإنسان أمره عجيب فى الذكاء ، إذن فكلمة « آية » معناها : الأمر العجيب ، وهو الذى يقف الإنسان عنده وقفة طويلة ليتأمل فى عجائبه .

والآيات نوعان : ايات منظورة فى الكون مثل قول الحق :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

﴿ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وكل ظواهر الكون تعتبر أشياء عجيبة . والنوع الثانى : هو آيات القرآن مثل قوله الحق :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فالآيات هى الأمور العجيبة وهى قسمان : منظور ومقروء ، المنظور : كل الكون ، والمقروء : هو القرآن ، فالقرآن يفسر آيات الكون ، وآيات الكون تفسر آيات القرآن ، والرسول جاء يتلو آيات القرآن ، وكانت عجيبة عليهم ، لكن الآيات الأخرى التى فى الكون يشاهدونها ويرونها ، لقد جاء الرسول بآيات مقروءة ليلفت الناس إلى الآيات المنظورة ، وبتلك الآيات المنظورة يكون العجب من دقة خلق الكون ؛ فينتهى الإنسان إلى الإيمان بمن خلق هذا الكون .

إن الحق يقول عن الرسول : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم » والمسألة ليست أنه يتلو الآيات ليعجبوا منها فحسب ، لا . فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كل سامع للقرآن إلى من خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة . ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون ، إذن فالرسول ينقل المؤمنين إلى المنهج الذى يُزكى الإنسان ، وأنت إذا سمعت كلمة « يُزكيهم » فأنت تعرف أنها من الزكاة . والزكاة أول معانيها : التطهير ؛ والتنقية ؛ والنماء . والآيات التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاءت لتزكيهم .

وهذا التطهير لمصلحة المُطَهِّر او المُطَهَّر ، إنه لمصلحة المُطَهَّر . التنقية والنماء لمصلحتكم أنتم وهذا لا يشكك فى التكليف ؛ لأن التكليف لم يأت للمُكلِّف ، إنما جاء للمُكلَّف ، وأضرب هذا المثل - ولله المثل الاعلى - فالرجل يكون ميسور الحال وعنده مال وعنده عقارات وأطيان ، وبعد ذلك يحب لأولاده أن ينجحوا فى المدارس

فيشجعهم قائلا لكل منهم : إن نجحت فسأفعل لك كذا . هو لا يريد منهم شيئا لنفسه ، فعنده النعمة الكافية ، هو يريد ـ فقط ـ مصلحتهم هم .

إذن فالمكلف لن ينتفع بتكليفنا أبدا ، فالتنقية لصالحنا والتطهير لصالحنا والنَّماء لصالحنا ـ والتزكية هى : تطهير وتنقية ونماء ـ ولننظر إلى الحالة التى كانت الجاهلية عليها ، هل كانت طاهرة ؟ هل كانت نقية ؟ هل كانت نامية ؟ لم يكن بها وصف من تلك الأوصاف ، لأنها جاهلية ، فكلهم محكومون بالهوى والجبروت والسلطان والقهر ، ونعرف أن أول ما يهتم به الإنسان هو أن يستبقى حياته وبعد ذلك يستبقى نوعه ، وبعد ذلك يستديم ما حوله ، والتزكية شملت كل أمر من هذه الأمور ، تزكية فى الإنسان نفسه ، فى ذاته ، بدلا من أن يكذب لسانه طهره عن الكذب ، بدل أن تمتد عينه إلى محارم غيره طهر عينه من النظر للمحرمات ، وبدلا من أن تمتد يده خفية وتسرق فهو لا يفعل ذلك .

والسرقة ـ كما نعلم حتى عند من يسرق ـ نقيصة ، بدليل أن اللص يتوارى ويحاول أن يسترها وألا يراه أحد ، لأنها رذيلة ونقيصة . ويأتى المنهج فيقول له : لا تسرق ، ويطهر المنهج حركة جوارح الإنسان فى الأرض ، ويطهر قلبه من الحقد كى يعيش مرتاحا ، وتبقى قوته مصونة للعمل الجاد المثمر ، فلِمَ يبدد قوته ، ولِمَ يبدد نظراته ، ولِمَ يبدد علاقاته بالناس ؟

إذن فالمنهج ينمى الإنسان ، إنه تطهير وتنقية ونماء له ، وبعد ذلك عندما يصاب الإنسان بالعجز وعدم القدرة ، فلن يستذله الغير لكى يعطيه لقمة . لقد زكاه المنهج من هذه ونقاه من الذلة وجعل له فى مال القادر حقا ، والقادر هو الذى يبحث عن الضعيف ليعطيه حقه ؛ لأن العاجز عندما يرى كل المؤمنين حوله قادرين يبحثون عنه ليعطوه حقه وليس مجرد صدقة يتصدقون بها عليه حينئذ يقول : أنا لست وحدى فى الكون . أنا فى الكون بفلان وبفلان ، فتكون تنمية له ، مادام الكل يعطيه .

أما عن بقاء النوع فماذا يعنى ؟ إن الحق يريد طهارة الإنسان والذرّية التى تأتى وأن يجعل لها وعاءً شريفا عفيفا ، وإطارا لا تشوبه شائبة فجاء المنهج ليزكيكم فى كل

شيء ، يزكى حركات جوارحكم فلا تتجه الحركة إلا لتحقق المطلوب منها عند من خلقها ، فالخالق قد أوضح : ياعين حدودك كذا ، يا لسان حدودك كذا ، يا يد حدودك كذا ، يا رِجْل حدودك كذا ، يا قلب حدودك كذا ، فالذى خلق كل جارحة هو الذى أعطى لكل منها حدودها فلا تجاوز ولا تهاون ولا إفراط ولا تفريط ، فإن خرجت عن غير ما وضع لها فى منهج الله فقد خالفت . وهكذا نرى أن المنهج قد جاء يزكيكم أى يطهركم وينقيكم وينميكم فى كل مجال من مجالات الحياة .

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » وساعة يقول الحق : « الكتاب » فهو يقصد الكتاب المنزل إنه القرآن ، والحكمة هى السنة . والحق يقول :

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وآيات الله معروفة وهى آيات القرآن ، والحكمة هى سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب » ، إذن فالكتاب هو القرآن ، سيتلو عليهم آيات القرآن وبعد ذلك يعلمهم ما جاء فى هذا الكتاب . بعض المفسرين قال : لابد أن نحمل « الكتاب » هنا على معنى آخر غير القرآن ، فقالوا : الكتاب يعنى الكتابة ، وأول عمل زاولوه فى الكتابة كتابة المصحف . إذن فالتقى المعنيان ، ولذلك فى غزوة « بدر » كان يتم فداء الأسرى إما بالمال وإما أن كل أسير يجيد القراءة والكتابة إذا أراد أن يفدى نفسه فعليه أن يقوم بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فقد كانت الأمة أمية . يقول سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

لذلك نجد أن تفسير الكتاب بالكتابة هو المناسب للأمية ، أو خذ هذه اللقطة على أساس أن هناك فرقا بين التلاوة والتعليم ، التلاوة : يتلو عليهم ، أى أن الرسول هو الذى يتلو ، والتعليم يكون بأن يتلوا هم القرآن . « ويعلمهم الكتاب والحكمة » و« علَّمَ » أى نقل العلم من مُعَلِمٍ إلى مُعلَّم .

ويختتم الحق هذه الآية بالقول الكريم : « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » وهناك أساليب تأتى فى القرآن فيها « إن » وتجد كل « إن » فى موضع لها معنى يختلف عن الآخر ، فمثلا تأتى « إن » شرطية ، يعنى يأتى بعدها فعل شرط وجواب شرط مثل قوله الحق :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾

(من الآية ١٤٠ سورة آل عمران)

أى إن يمسسكم قرح فلا تيأسوا ولا تبتئسوا . فقد مس القوم قرح مثله ، وقوله الحق :

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾

(من الآية ٢٧١ سورة البقرة)

إننا هنا نجد أنَّ « إن » شرطية ، ففيه شرط وجواب شرط . ومرة تأتى « إن » وبعدها « إلا » :

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

وهو سبحانه يتكلم هنا عن الذين يظاهرون من نسائهم ، أى يقول الرجل لامرأته : أنت علىَّ كظهر أمى ، إن أمك هى التى ولدتك وامرأتك لم تلدك ، فلو كانت أمك لكانت محرمة عليك ، « إن أمهاتهم إلا اللائى » ، فعندى هنا « إن » وبعدها « إلا » ومادام جاءت « إلا » فالذى بعدها يكون مثبتا ، والذى قبلها يكون منفيا ، مثل قولنا : « ما قام القوم إلا زيدًا » إن زيدا تختلف عنهم . « إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم » أى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، إذن فـ « إن » هنا ليست

شرطية لكنها هنا «إن» النافية وتعرفها بوجود «إلا».

ومرة ثالثة تأتى «إن» لا هى شرطية، ولا هى نافية مثل آيتنا هنا «وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين». ونقول: هذه «إنْ» التى هى تخفيف «إنّ» أى «إنّ» هنا مخففة من الثقيلة ويكون المعنى وإنّ الحال والشأن والقصة والواقع أنهم كانوا فى ضلال مبين. ويقول النحاة: اسمها ضمير الشأن - أى الحال والقصة - وهو محذوف.

وما هو الضلال؟ يقولون: ضل فلان الطريق أى مشى فى مكان لا يوصله للغاية، أو يوصل إلى ضد الغاية؛ لأن الضلال فى الدنيا والأمور المادية قد لا يوصلنى لغايتى المرجوة، وقد لا يوصلنى لشر منها أو لمقابلها، لكن فى الأمر القيمى ماذا يفعل؟ إنه لا يوصلك إلى الغاية المرجوة وهى الجنة فحسب ولكنه يوصل للمقابل وهو النار، هذا هو الضلال المبين، إنه ضلال واضح؛ بدليل أن النقائص التى جاء الإسلام ليطهر الإنسان منها، يحب مرتكبها ألا تُعلم عنه وسط الناس، فالسارق يسرق لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه لص، والكاذب يكذب لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه كذاب، بدليل أنك عندما تقول له: يا كذاب تكون له صاعقة. إذن فالنقيصة تُفعل وصاحبها لا يريد أن يراها أحد أو يُعرف بها.

«وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» أى ضلال ظاهر وهو ضلال يعرفه صاحبه بدليل أننا قلنا فى قصة سيدنا يوسف؛ حيث نجد فى القصة اثنين من الفتيان قد دخلا السجن، وماذا حدث لهما:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد رأوا فى يوسف عليه السلام كأن عنده ميزان الإحسان فهو يعرف الحسن والقبيح ، ولأنهما يعرفان ميزان الإحسان فلا بد أن تكون المسائل بالنسبة لهما واضحة . ولماذا لم يقلها واحد منهما من قبل ؟

لقد شهدا هذه الشهادة لسيدنا يوسف لأنهما يطلبان الآن مشورته فى تأويل الرؤى . كان يوسف عليه السلام مسجونا ، ولم ينظر إليه أحد إلا كمسجون . ومن سلوكه معهما فى السجن عرفا أنه طيب ومحسن . ولذلك التفتا إليه ورأيا فيه أنه قادر على تأويل رؤيا كل منهما . مثلما قلنا : إن المنحرف نفسه يعرف قيمة الفضيلة ، وهكذا نجد أن الفضيلة مسألة ذاتية وليست نسبية ، أى أنه حتى المنحرف عن الفضيلة يرى الفضيلة فضيلة .

وبعد ذلك يعود الحق إلى قضية عجيبة ، فإذا كان الله سبحانه قد من على المؤمنين بالرسول ، ومن أنفسهم ، وجاء يتلو عليهم آيات الله ، وجاء يزكيهم طهارة ونقاء ونماء ، وجاء ليعلمهم الكتاب والحكمة وهى وضع الشىء فى موضعه ، أو البحث عن أسرار الأشياء كان يجب عليكم ـ إذن ـ أنه إذا قال قولة لا تخالفوا عنها أبدا ، وعندما يجرى على يديه أمر فهو لا يحتاج إلى مناقشة ، إذن فما حكايتكم ؟

يقول الحق :

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ ١٦٥

لماذا تقولون : كيف يهزمنا الكفار ؟ لقد حدث لكم ذلك لأنكم خالفتم الرسول الذى مَنّ ربكم به عليكم ، وآتاكم ، وزكاكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، كان

مقتضى ذلك أن كل ما يقوله الرسول الذى هو بهذه المواصفات أن تطيعوه ، ولا يقولن أحدكم : لماذا تحدث هذه الهزيمة ؟ ولا يقولن أحد لماذا حكاية أُحُد وكيف يهزمنا الكفار ؟ إنّ هذا لا ينسجم مع ما قيل من أن الله مَن عليكم وبعث فيكم رسولا ، ثم إن أحُدًا ليست مصيبة بادئة ، بل مصيبة جاءت بعدما أصبتم من أعدائكم مصيبة ،ونلتم منهم ضعف ما نالوا منكم .

فأنتم بدأتم ببدر وأعطاكم الله الخير . أنتم قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ، وهم قتلوا سبعين ولم يأسروا أحدًا فى « أُحُد » ، أنتم أخذتم غنائم فى بدر ، وهم لم يأخذوا أى غنيمة فى أُحُد ، ما العجيبة فى هذه !! كان يجب أن تبحثوا فى ذواتكم وفى نفوسكم ، هل كنتم منطقيين مع إيمانكم ومع قيادة الرسول لكم !؟ أيكون منكم ذلك السؤال وهو « أنى هذا » ، لأن « أنى » معناها استنكار أنّ هَذا يحدث أى من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ونحن نقاتل فى سبيل الله وفينا النبى والوحى وهم مشركون ونقول لكم : وهل كنتم على مستوى الإيمان المطلوب ؟ إن مستوى الإيمان المطلوب يقتضى منكم أن تنفذوا ما قاله الرسول ، وأنتم لم تكونوا على هذا المستوى ، الذى كنتم عليه فى بدر .

وساعة تسمع « أو لما » فهناك همزة الاستفهام ثم « واو عطف » ، « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا » ، و« لما » هنا هى الحينية ، فماذا يكون المعنى ، لقد آمنتم بالله إلها وآمنتم بالرسول مبلغا ، أحين تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثليها تقولون أنى هذا ؟

كان المنطق ألا تسألوا هذا السؤال أبدا لأنكم آمنتم بإله عادل له سنن لا تتبدل ولا تتحول . أكان يترك السنن من أجلكم !؟

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وفى موقع آخر من القرآن يقول سبحانه :

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

فلو أنكم استحضرتم الإيمان بالإله الذى أطلق السنن فى الكون ليسوس به أمر ملكه بما يحقق أمر المصلحة لما قلتم هذا ومادمتم قد آمنتم بأن الإله هو الذى صنع تلك السنن فكان الواجب عليكم أن تعلموا أن الإله لن يجاملكم بإبطال سننه من أجل أنكم نُسبتم إليه أولا بأنكم مسلمون ، فإنكم إن خالفتم فسنن الله واقعة ، وكان يجب أن تفهموا هذا الأمر ، وكان يجب ألا تسألوا هذا السؤال ، وقد آمنتم بالله إلها له سنن ، وآمنتم بالرسول المبلغ عن الله . أحين تصيبكم مصيبة مع هذا الإيمان قد أصبتم مثليها ، تقولون : أنى هذا ؟ أنتم حدث منكم أنكم أصبتم خصومكم ، ويا ليتكم أصبتموهم بمثل ما أصابوكم به بل أنتم أصبتم مثليها ، كان يجب أن تقارنوا : لماذا أُصِبْتُم مثليها من قبل ، ولماذا أُصِبْتُم الآن ؟ كان يجب أن تعرضوا عملكم على الموازين الإيمانية ؛ فإن عرضتموه على الموازين الإيمانية لما سألتم هذا السؤال : « أنى هذا » . .

وساعة تسمع « أنى هذا » فلها معنيان : إما أنها تأتى بمعنى (كيف يحدث هذا) ؟ وإما بمعنى (من أين يحدث هذا) ؟ فإن كانت لأعيان وتحب أن تعرف ، مثلما أحب سيدنا زكريا أن يعرف : من أين يأتى الرزق لسيدتنا مريم وهى فى المحراب :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

أى من أين ؟ وتأتى مرة أخرى بمعنى « كيف » :

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

أى كيف يحيى ؟ إذن فمرة تكون بمعنى « من أين » ، ومرة تكون بمعنى « كيف » ، والذين دخلوا معركة أُحُد كانوا ينكرون ويستعجبون لعدم انتصارهم . . فأوضح لهم الحق : لو كنتم مستحضرين قضية الإيمان بإله عادل وضع فى كونه سننا وهو لن يغير سننه ولن يحولها من أجلكم أنتم ، إن عليكم أن تعرفوا أن الله لا يتغير من أجل أحد ، ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله .

« أوَ لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها » : و« لما » يعنى : حين ، واسمها : « لما الحينية » و« لما » تكون أيضا من أدوات وعوامل الجزم مثل : لَمْ و« لم » تنفى ، و« لمَّا » أيضا تنفى مثل قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

أى أن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد . إنما من الجائز أنه قد يدخل بعد ذلك ، هذه اسمها « لمّا » الجازمة . وهناك « لما » الشرطية مثل قولنا : لما يقوم زيد يحدث كذا ، وهذه فيها شرط ، وفيها الزمن. أى حين يقوم يحدث كذا ، مثل قوله الحق :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾

(سورة الصافات)

أى حين أسلم وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا أى ناديناه ، والواو هنا مقحمة مثلها فى قوله تعالى : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها » أى قال لهم. ومعنى مقحمة، جىء بها للتوكيد والتقوية. أو جاءت الواو هنا لتفيد أن نداء الله لسيدنا إبراهيم جاء مصاحبا لإلقاء ابنه إسماعيل على وجهه ليذبحه .

فـ « لمّا » هذه وفي الآية التي نحن بصددها هي « لما الحينية » ، أحين تصيبكم أي : أوقت تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثليها « قلتم أنى هذا » كان يجب أن تقارنوا لماذا أصَبْتُم في بدر مِنْ عدوكم ضعف ما أصاب منكم ، ولماذا أصاب عدوكم منكم يوم أُحُدٍ هذا ؟ كان يجب أن تسألوا أنفسكم هذا السؤال ؛ لأن الميزان منصوب وموضوع ، ومادمتم تغافلتم عن هذا فسيأتي لكم الرد . . قل يا محمد لهم رداً على هذا : « هو من عند أنفسكم » . لقد خالفتم عن أمر الرسول ، ومادمتم خالفتم عن أمر الرسول فلا بد أن يحدث هذا بمقتضى إيمانكم بإله له سنن لا تتحول ولا تتبدل . « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » .

وبعد ذلك تذيل الآية بقوله سبحانه : « إن الله على كل شيء قدير » . فما موضعها هنا ؟ موضعها أنه مادامت لله سنن ، وسنن الله لا تتبدل ، والله موصوف بالقدرة الفريدة له فلن يأتي إله آخر ويقول : نبطل هذه السنن . ومادام لا يوجد إله آخر يقول ذلك فهو سبحانه قدير على كل شيء ، وهو قدير على أن تظل سننه دائمة ، ولا توجد قوة تزحزح هذه القضية ؛ لأن السنن وضعها الله . فمن الذي يغيرها ؟ إنها لن تتغير إلا بقوة أعلى ومعاذ الله أن تكون هناك قوة أعلى من قوة الله ؛ لذلك يوضح سبحانه : أنا قدير على كل شيء وقدير على أن أصون سنني في الكون ، فلا تتخلف ولا توجد قوة أخرى تحَوِّل هذه السنن أو تبدلها .

ولا تظنوا أن ما أصابكم جاء فقط لأن السنن لا تتغير ، لا ، فهذا قد حدث بإذن من الله ، فالله أوضح للكون : من يخالف أمري أفعل فيه كذا . إذن فالكون لم يحدث فيه شيء دون علم الله وإذنه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

أى أنه سبحانه قد جمع المؤمنين وجمع الكافرين فى أُحُد بإذن منه وبعلمه والنتيجة معروفة عنده ، وأنه سيحدث منكم كذا وكذا ، إذن فهذا أمرٌ معلوم ، أو « بإذن الله » أى فى السنن التى لا تتخلف ، فالمسألة لم تأت بغير علم الله ، لا . لقد جاءت بإذن الله ولا تتخلف ـ تطبيقا ـ عن أحدٍ من خلقه أبداً مهما كانت منزلته .

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين » ساعة ترى أمراً أجراه الله ليعلم الذين نافقوا ، وليعلم المؤمنين،نعرف أن الله عالم بهم قبل أن تقع الأحداث ، ولكن علمه لا يكون حجة على الغير إلا إن حدث منه بالفعل ؛ لجواز أن يقول : يارب أنت حاسبتنى بعلمك أن هذه سيحدث ، لكن ما كنت لأفعله . فيوضح الحق : لا . أنت قد علمته لأنك فعلته وصار واقعاً منك وتقوم به الحجة عليك .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت كمعلم تقول لواحد من الطلبة: أنت راسب، فيقول لك : لا ، لابد أن تمتحننى . تقول له : أنا أعرف أنك راسب . فيقول لك : أنا لا آخذ بعلمك بل لابد أن تمتحننى . تقول له : تعال أمتحنك . وتعطيه بعض الأسئلة فيرسب . وهنا يصير علمه برسوبه أمراً واقعاً ، وهو كان يعلمه بسبق علم ، لكنه الآن لا يقدر أن يجادل لأنه صار واقعا محسوساً .

ويقول الحق : « وليعلم المؤمنين » ومنهم الثابت الإيمان الذى لا يتزعزع ويعلم أنه إذا أصابته مصيبة بما قدم لنفسه ، هذه المصيبة تزيده إيماناً بالله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ

﴿بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

وقوله: « وليعلم الذين نافقوا » أى يجعلهم يظهرون وينكشفون أمام الناس، وإلا لو لم تحدث هذه الأحداث فكيف كنت تعرف المنافق ؟ سيستر نفسه . لابد إذن أن تأتى أحداث لتظهره وتفضحه ، فالمنافق يراوغ ؛ لذلك يأتيه الحق بأحداث ليظهر على حقيقته ، وقد كان .

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » . . وكانت المدينة مهاجمة ، وإذا انتصر الكفار فسيدخلون ويسْبون ويأخذون المسلمين أسرى ويفعلون كل منكر !! فقال عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصارى للمنافقين : اخرجوا وقاتلوا معنا ، وإن لم تخرجوا لتقاتلوا معنا . . اخرجوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن أموالكم وعن نسائكم ؛ لأنهم إذا انتصروا على المسلمين فسيدخلون ويفعلون كذا وكذا ، إنه دعاهم إلى القتال على طريق إثارة الحمية والأنفة فيهم وذلك بعد أن يئس من أنهم لم يقاتلوا فى سبيل الله ، ولما رأى اصرارهم على عدم الخروج قال لهم عبدالله : اذهبوا أعداء الله فسيغنى الله رسوله عنكم .

إذن ففيه فرق بين القتال فى سبيل الله وبين الدفاع عن النفس فقال : « قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » . . أو ادفعوا عنا ولو بتكثير سوادنا وإظهار كثرتنا حتى يظن المشركون أن معنا أناسا كثيرين . « قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » . . وعندما نتابع هذا المنطق فى القصة فى ذاتها نجد أن « ابن أُبَىّ » كان من رأيه أن يظل رسول الله فى المدينة لماذا ؟ لأنه قد ثبت بالتجربة أنه إذا جاء قوم ليغيروا على المدينة ودخلوها فأهل المدينة ينتصرون عليهم ، وإذا خرج لهم أهل المدينة فهم ينهزمون .

إذن فالقضية واضحة فى ذهن ابن أُبَىّ ، فهو لم يرض أن يخرج لأن التجارب أثبتت له أنهم إذا خرجوا عن المدينة ليحاربوا العدو فعدوهم ينتصر عليهم ، وإذا ظلوا انتصروا ، إذن فهو واثق من نتيجة الخروج ، ولكن مادامت المسألة قد صدرت من رأس النفاق عبدالله بن أبىّ فأنت لا تستطيع أن تحكم أين الحق ، فمن الجائز أن آثار

يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة هذه الآثار كانت باقية فى نفس « ابن أبيّ » ففى ذلك اليوم الذى جاء فيه الرسول إلى المدينة كان هو اليوم الذى كان سيتوج فيه المنافق « ابن أبيّ » ليكون ملكاً على المدينة ، فلما جاء الرسول بهذا الحدث الكبير تغير الوضع وصار التاج من غير رأس تلبسه ، فهذه قد حملها فى نفسه .

« قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » لقد ادّعى ابن أبيّ أن الخروج من المدينة هو كإلقائه إلى التهلكة وليس قتالاً ؛ لأن القتال تدخله وعندك مظنة أن تنتصر ، إنما هذا إلقاء إلى تهلكة وليس قتالاً ، لكن أقال : « لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » وهو صادق ؟

إن الحق يفضحهم : « هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان » ، فقبل ذلك كانوا فى نفاق مستور ، ومادام النفاق مستوراً فاللسان يقول والقلب ينكر ويجحد ، فهم مذبذبون بين ذلك ؛ لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، هذه المسألة جعلته قريبا من الكفر الظاهر .

« يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » . . إذن فالقلب عمله النية الإيمانية ، واللسان قد يقول ولا يفعل ما يقول ، ولذلك قلنا : إن المنافق موزع النفس ، موزع الملكات ، يقول بلسانه كلاما وقلبه فيه إنكار ، ولذلك سيكونون فى الدرك الأسفل من النار ؛ لأنهم غشاشون ، ونفوسهم موزعة .

« يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » والقول ضرورى بالفم ؛ لأن القول يُطلق ويراد به البيان عما فى النفس ، فتوضيح الإنسان لما فى نفسه كتابة ، يعتبر قولاً ـ لغة ـ ولذلك فالذى يستحى من واحد أن يقول له كلاما فهو يكتبه له فى ورقة ، فساعة يكتب يكون قد قال ، وهؤلاء المنافقون يقولون كلماتهم لا بوساطة كتاب بل بوساطة أفواههم، وهذا تبجح فى النفاق ، فلو كانوا يستحون لهمسوا به : « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » إذن فاللسان لم يتفق مع القلب . فالقلب منعقد ومصر على الكفر ـ والعياذ بالله ـ واللسان يتبجح ويعلن الإيمان .

ونعرف أن « الصدق » هو أن يوافق القول الواقع ، والواقع فى القضية الإيمانية نية فى القلب وحركة تُثبت الإيمان ، أما المنافقون فلسانهم لا يوافق قلبهم ، فلما كان ما فى القلب مستورا ثم ظهر إلى الجوارح انكشفوا . وهذا هو السبب فى أنهم كانوا أقرب إلى الكفر ، « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » وهذا لون من نقص التصور الإيمانى فى القلب ، كأنهم يعاملون الله كما يعاملون البشر مثلهم .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

فعندما أراد ابن أُبَىّ أن يخذّل الجيش ، وافقه بعض المنافقين ولم يوافقه البعض . هؤلاء الذين خرجوا للقتال والجهاد ولم يوافقوهم ثم قتلوا فرحوا فيهم ، وقالوا : لو كانوا أطاعونا ومكثوا فى المدينة ولم يخرجوا لما انهزموا ولما قتلوا ، وكأن الحق يوضح لنا أسلوبهم ؛ لذلك سنأخذهم من منطقهم . . هم قعدوا وقالوا عن إخوانهم الذين قُتلوا فى المعركة والذين هم من جماعتهم : « لو أطاعونا » كأن قولا صدر منهم: « أن اقعدوا » ولكن القوم الآخرين الذين هم أقل نفاقا . لم يطاوعوهم وخرجوا ، فحدث لهم ما حدث .

فكيف يرد الله على هذه؟ انظروا إلى الرد الجميل : أنتم تقولون : « لو أطاعونا » ، فكأن طاعتكم كانت وسيلة لسلامتهم من القتل . إذن فأنتم تعرفون طريق السلامة من القتل . والذى يعرف طريق السلامة من القتل هل يعرف طريق السلامة من الموت ؟ ولذلك يقول الحق سخرية بهم : « فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » وفى ذلك رد عليهم من كلامهم « لو أطاعونا ما قتلوا »

ومادمتم تعرفون وسيلة للسلامة من القتل فاستعملوا هذه الوسيلة فى أن تدفعوا عن أنفسكم الموت . وأنتم مع المتقدمين منكم والحاضرين تموتون ولا تستطيعون رد الموت عنكم ، إذن فأنتم لا تعرفون طريق السلامة من الموت ؛ فكم من مُحارب عاد من الحرب سليما ، وكم من هَارب من القتال قد مات وانتهى ، وَهَبْ أن بعضا من المؤمنين المقاتلين قد قُتل، إن الذى قُتل فى المعركة ليس أهون على الله ممن سلم من المعركة، هؤلاء أحب إلى الله وقد عجل الله لقاءهم وأنزلهم المنزل المقرب عنده .

ونعرف أن الحدث إنما يُحمد ويُذم بالنسبة للغاية منه ، فكل حدث يُقربك من الغاية يكون محموداً ، وكل حدث يُبعدك عن الغاية يكون غير محمود ، فإذا كانت الغاية أن تذهب إلى الاسكندرية مثلا ؛ فقد تذهب إليها ماشيا فتحتاج إلى عدة أيام ، وقد تذهب إليها راكبا دَابة فتحتاج إلى زمن أقل ، أو تذهب إليها راكبا عربة فيقل الزمن لساعات ، أو تذهب إليها راكبا طائرة فتصلها فى نصف الساعة ، فكلما كانت الوسيلة قوية كان الزمن قليلا ؛ لأننا نعلم أن القوة الفاعلة فى النقلة تتناسب مع الزمن تناسبا عكسيا . وكلما زادت القوة قل الزمن ، ومادامت غايتى أن أذهب إلى الاسكندرية . فالذى يُعجل لى الزمن ويقلله لأذهب إليها أفضل أم لا ؟ إنها الوسيلة الأفضل .

فمادامت الغاية أن تذهب إلى لقاء الله وأن تعيش فى جواره ومعيته ، فحين يُعجل الله ببعضنا فيأخذهم من أقصر طريق فهذا أفضل بالنسبة لهم أم لا ؟ هذا أفضل ، وهكذا نرى أن الناس تنظر للموت نظرة حمقاء ، إن موت المؤمن الحق الصادق الإيمان إنما يقربه إلى الغاية ، فما الذى يُحزننى !

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

أنتم تخافون الموت ، ولكن هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله ليسوا بميتين ، لأن حياتهم حياة موصولة ؛

إن هناك فارقا كبيرا بين الموت والشهادة ، فالذى يقتل شهيدا تكون حياته موصولة ، ولن يمر بفترة موتنا نحن ، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم ، أى بقانونه سبحانه ، فلا تُحكّم قانونك أنت ، فأنت ـ كما قلت ـ لو فتحت القبر ستجد هؤلاء القتلى مجرد أشلاء . هم عندك أشلاء وأموات فى قانونك أنت . لكنهم أحياء عند ربهم يُرزقون .

فالحياة تختلف عن الموت فى ماذا ؟ إن الإنسان إذا زهقت روحه وفارقت جسده انقطعت حياته ، فى ظاهر الأمر انتهى ولم يعد ينتفع برزق ولا بأكل ؛ لأن الرزق جُعِلَ لاستبقاء الحياة ، ومادام الرزق قد صُنِعَ لاستبقاء الحياة وليس فيه حياة إذن فلا رزق ، لكن الله سبحانه يريد أن يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حي . ومن ضروريات الحياة أنه يُرزَق أى ينتفع باستبقاء الحياة ، وعلينا أن نفهم أن العندية عندك غير العندية عند الله . فالشهيد حى عند ربه ويُرزق عند ربه رزقا يناسب الحياة التى أرادها له ربه . ونعلم أن الرزق هو الخاصية التى توجد للأحياء . وعندما نقرأ قول الله : « أحياء عند ربهم يرزقون » قد يقول قائل : من الجائز أنك تأخذ إنسانا وتُبقيه حيا وتعطيه طعاما وشرابا لكن أهو فرح بموقعه ؟ لا . لذلك يجب أن ندرك ونعرف أن حياة الشهيد ليست فى قبره ولكنها عند ربه وهو فَرِح بموقعه لذلك يقول الحق :

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

والعدل يتحقق بين البشر بأن كلا منهم يموت . ولكن الفضل أن يعجل الله انقضاء الحياة فى الدنيا لمن يحبهم بالاستشهاد وينقلهم إلى رضوانه ونعيمه « فرحين بما آتاهم الله من

فضله ، وليس هذا فقط ، بل إننا نجد الأخوة الإيمانية قد بقيت فيهم وليست كخاصية الأحياء بل أنقى وأبقى من خاصية الأحياء ، فالخاصية الإيمانية تقتضى أن يُحب المؤمن لأخيه ما يُحب لنفسه ، والشهداء فى حياتهم عند ربهم كذلك ، مما يدل على أن الحياة التى يحياها الشهداء هى حياة نامية فيها رزق ومواجيد وفرح ، وكل شهيد يعتبر أن هذا فضل من الله قد فضله به . ولذلك فالشهيد يستبشر بالذى لم يأت من بعده من إخوانه المؤمنين ويقول : يا ليتهم يأتون ليروا ما نراه .

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » : « ويستبشرون » من البُشرى ، والبُشرى هى الخبر السّار « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » ويلحقوا أى يأتوا بعدهم ، فالشهداء يقولون: إنهم سيأتون لنا وماداموا سيأتون لنا فنحن نُحب أن يكونوا معنا فى النعيم والخير الذى نحيا فيه . وكل منهم يشعر بالمحبة لأخيه ، لأنه يعلم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحبه لنفسه » . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن فضلهم قالوا : ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا من الحرب. فقال الله ـ عز وجل ـ: أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هذه الآيات : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » وما بعدها[1] .

ونعرف أن « البِشْرَ » عادة هو الفرحة ، وهى تبدو عَلَى بشَرة الإنسان ، فساعة يكون الإنسان فرحا ، فالفرحة تظهر وتُشرق فى وجهه ولذلك نُسميها « البشارة » ، لأنها تصنع فى وجه المُبشَر شيئا من الفرح مما يعطيه بريقا ولمعانا وجاذبية .

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى أن الذين خلفوا عن الشهادة لا خوف عليهم ، فهؤلاء الذين لم يستشهدوا بعد قد يخوضون معركة ما ، فيقول الحق على لسان الشهداء لكل منهم : لا تخف لأنك ستذهب لخير فى الحياة « ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

إن الحق سبحانه لا يضيع أجر هؤلاء الذين قاتلوا فى سبيل الله ، وها هو ذا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾

انظر إلى المنزلة العالية كى تعلم أن الهزة التى حدثت فى أُحُد أعادت ترتيب الذرات الإيمانية فى نفوس المؤمنين . ولذلك أراد الله ألا يطول أمد الغم على مَن ندموا بسبب ما وقع منهم ، وألا يطول أمد الكفار الذين فرحوا بما أَلْحق بالمؤمنين من الضرر فى المعركة الأخيرة ، هؤلاء المشركون فرحون ، وهؤلاء المسلمون فى حزن ؛ لأننا قلنا : ماداموا مسلمين ومؤمنين فلهم حق ، وإن قصَّروا فعليهم عقوبة ، وسبحانه قد أنزل بهم العقوبة لكن بقى لإسلامهم حق على الله ؛ لأنه أجرى تلك الأقدار ليُهذب ويمحص ويُربى ، فلا يطيل أمد الغم على المؤمنين ولا يمد الفرحة للكافرين ، فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم والحالة كما تعلمون هكذا ، ويؤذن مؤذنه صلى الله عليه وسلم فى الناس بطلب قريش قائلا : « لا يخرجن معنا إلا من حضر معنا القتال » .

ويخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم بعدد لا يزيد على عدد المقاتلين الذين كانوا يواجهونهم حتى لا يقال إنهم جاءوا بمددٍ إضافى ، بل بالعكس ، فالذين خرجوا لمطاردة الكفار هم الذين بقوا مع الرسول فى أُحُد ، ونقص منهم من قُتل ونقص منهم أيضا كل من أثقلته جراحه . لقد كانوا أقل ممن كانوا فى المعركة ، وكأن الله يريد أن يبين لنا أن التمحيص قد أدى مطلوبه .

هم فى هذه الحالة استجابوا للرسول ، كأن المسألة جاءت رد اعتبار لمن شهدوا المعركة ؛ حتى لا يضعفوا أمام نفوسهم ؛ وحتى لا يجعلوها زلة تطاردهم وتلاحقهم فى تاريخهم الطويل ، بل يعلمون أن معركة أُحُد قد انتهت وعرفوا آثارها .

وبمجرد أن أذن مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بالنداء السابق استجابوا جميعا ، ولم يُسمح إلا لجابر بن عبدالله أن يكون إضافة لهم ؛ لأنه أبدى العذر فى أنه لم يكن مع القوم ؛ لأن له أخوات سبعًا من البنات وأمره أبوه أن يمكث مع أخواته لرعايتهن ، فسمح له رسول الله .

ـ وكما قلنا ـ فإن الله أراد بكل أحداث أُحُدٍ أن يُعيد ترتيب الذرات الإيمانية ، ومادامت الذرات الإيمانية قد انتظمت فقد تم إصلاح جهاز الاستقبال عن الله ، وفى لحظة واحدة يستجيبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنهم يلاحقون الكفار ، وذهبوا إلى حمراء الأسد وكان ما كان . وبعد ذلك أرسل الله لهم من جنوده من يُخَذِّل هؤلاء القوم الكافرين ، ويقول لهم : إن محمدا قد خرج إليكم بجيش كبير .

ونلحظ أن الحق سبحانه يجىء هنا بقوله : « الذين استجابوا » وهى تقابل « من خالفوا » أمر رسول الله وهم الرماة ، « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح » .

لقد استجابوا وهم مُرهقون ومُتألمون ومثخنون بالجراح ؛ فكل واحد منهم قد ناله

نصيب من إرهاق القتال ، ومع ذلك استجابوا لله وللرسول ، وكل منهم أصابه القَرح أو القُرح . يعنى الألم أو الجرح ، « من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » وهم قد أحسنوا فى الاستجابة ؛ لذلك فلهم الأجر العظيم ، « أجر عظيم » لأن ما حدث منهم من أمر المخالفة قد أخذوا عليه العُقوبة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾

المسألة ليست ذلك فقط ، المسألة أن المنافقين راحوا يُروجون إشاعات كاذبة بأن المشركين قد استَدْعوا عددا جديدا من كفار مكة وذلك ليخيفوا المؤمنين ، فلم يخف مؤمن واحد « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » وساعة ترى كلمة « الناس » فاعرف أن الإيمان بعيد عنها ، وماداموا « اناسا » فهم يقابلون أناسا آخرين ، ومن يغلب فهو يغلب بجهده وشطارته وحسن تصرفه ، لكن المؤمن يقابل الكافر ، والمؤمن يتلقى المدد من ربه .

قيل : إن الشيطان قد يتمثل على هيئة حشد من الناس ليُرهب المؤمنين ، والشيطان من عالم الجن ، وعالم الجن يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، وقد أعطاه الله القدرة على أن يتشكل بما يحب . فله أن يتشكل فى إنسان ، فى حيوان ، أو كما يريد ، ولكن إذا تشكل فالصورة تحكمه لأنه ارتضى أن يخرج عن واقعه ليتشكل بهيئة أخرى ، فإذا ما تشكل على هيئة إنسان ، فقانون الإنسان يسرى عليه ، بحيث

إن كان معك مسدس أو سيف أو خنجر وتمكنت منه وطعنته يموت . وهذا هو ما رحمنا من تخويفهم لنا .

ولذلك تجد أن الشيطان يظهر لمحة خاطفة ثم يختفى ، لأنه يخاف أن يكون الإنسان الذى أمامه واعيا بأن الصورة تحكمه ، فعندما يتمثل لك بأى شكل تخنقه فيُخنق ، لذلك يخاف من الإنسان ، فلا يظهر إلا فى لمحات خاطفة .

ويمكن أن نفهم أيضا قول الحق : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » أن هناك بعضا من الكفار أشاعوا أن أبا سفيان وصحبه قد حشدوا حشودهم ، فكلمة « جمعوا » تعطى إيحاء بأنهم جاءوا بمقاتلين آخرين ، أو أن فلولهم قد تجمعت ، وسواء هذا أو ذاك فهم عندما فروا فروا فلولا ، لأن القوم المنهزمين لا يسيرون سيرا منتظما بجمعهم ، بل يسير كل واحد منهم حسب سرعته ، ويصح أن يتجمعوا ثانية ، أو جاءوا بناس آخرين ، ولنا أن نلحظ أن الأسلوب يحتمل كل ذلك .

« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » ومثل هذا القول قد يفت فى عضد المؤمنين ، لكن التمحيص الإيمانى قد صقل معسكر الإيمان فلم يهتموا بهذا الكلام ، وهكذا أثمر الدرس الأول ، لقد تعلموا أن المخالفة عن أمر الله الممثل فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجرد المخالفة تجعل الضعف يسرى فى النفس ، لكن التثبت والتمسك بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعزز الإحساس بالقوة ، لذلك لم يأبهوا لهذا التهديد بل قالوا : إن العدد هذا ليس فى بالنا ، لأننا نعتمد على الله وحُسن الإيمان ، إنهم قالوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » فلم يهتموا بالعدد وفهموا أن الإيمان يقتضى أن يقاتلوا الكافرين حتى يُعذبهم الله بأيديهم ، وفى هذا درس لكل مُحارب ، فعندما تحارب ، فأنت إما أن تكون منصورا بإيمانك بالله وإما أن تكون على عكس ذلك :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

لقد فطنوا إلى أنفسهم ، وتغير الترتيب الإيمانى فى أعماقهم ، ونلمس ذلك فى أن بعضا من الناس جاءوا يصدونهم ويخذلونهم ، فلم يستطيعوا بل زادهم هذا القول إيمانا « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ، لقد فطنوا إلى أن قوة الله هى التى تنصرهم والله حسبهم وكافيهم عن أي عدد من الأعداد وهو نعم الوكيل ، ومعنى « الوكيل » أننى عندما أعجز عن أمر أُوكِّلُ أحدا فهو وكيل عنى ، وعندما نوكل الله فيما عجزنا عنه فهو نعم الوكيل ، لماذا ؟ وتأتينا الإجابة : « فانقلبوا بنعمة من الله » ، ولقد نصروا بالرعب الذى أنزله الله فى قلوب أعدائهم ولم يشتبكوا مع الكفار ، فصدق قول الله :

﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

ويأتى الحق من بعد ذلك بما يصدق القضية :

﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

وهذه القضية يجب أن يستشعرها كل مؤمن يتعرض لتمحيص الحق له ، وعلى كل مسلم أن يتذكر تلك تجربة ، تجربة أُحُد ، فليلة واحدة كانت هى الفارق بين يوم معركة أُحُد ويوم الخروج لملاحقة الكفار فى حمراء الأسد ، ليلة واحدة كانت فى حضانة الله وفى ذكر لتجربة التمحيص التى مر بها المؤمنون إنها قد فعلت العجب ؛ لأنهم حينما طاردوا الكفار ، لم يأبهوا لمحاولات الحرب النفسية التى شنها عليهم الأعداء ، بل زادهم ذلك إيمانا وقالوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

إذن فقد تجردوا من نفوسهم ومن حولهم ومن قوتهم ومن عددهم ومن أى شىء إلا أن يقولوا : الله كافينا وهو نعم الوكيل لمن عجز عن إدراك بغيته . لقد عرفوا الأمر المهم ، وهو أن يكون كل منهم دائما فى حضانة ربه ، وقد أخذ صحابة رسول الله وآل بيت رسول الله هذه الجرعة الإيمانية واستنبطوا منها الكثير فى حل قضاياهم .

وقول الله سبحانه : « حسبنا الله ونعم الوكيل » يُذكرنا بالإمام جعفر الصادق ابن سيدى محمد الباقر بن سيدى على زين العابدين وكان من أفقه الناس بالقرآن ، وكان من أعلمهم فى استنباط أسرار الله فى القرآن ، إنّه كان يجد فى قول الحق : « حسبنا الله ونعم الوكيل » استنباطا رائعا ، فهو يتعجب لأى إنسان أدركه الخوف من أى شىء يخيف ، والإنسان لا يخاف إلا أمرا يَنْقُضُ عليه رَتابَة راحته ، ويقلقه ويهدده فى سلامه وأمنه واطمئنانه ، ويكون لهذا الخوف مصدر معلوم ، فإذا ما تعرض المؤمن لمثل هذا الخوف فعليه أن يتذكر قول الحق : « حسبنا الله ونعم الوكيل » لأنها قضية نفعت الجيش كله فى معركته مع الكفار ، فحين يأخذ الفرد هذه الجرعة فهو يستعيد رباطة الجأش . واشتداد القلب فلا يفر عند الفزع .

وينبهنا سيدنا جعفر الصادق إلى هذه القضية لنفزع إليها عند كل ما يُخيفنا فيقول : عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله : « حسبنا الله ونعم الوكيل » إنه بنظرته الإيمانية يتعجب لإنسان أدركه الخوف ثم لا يفزع إلى هذا القول الكريم « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ثم يستنبط بإشراقاته سر هذا فيقول : لأنى سمعت الله بعقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » وانظروا إلى قول سيدنا جعفر الصادق:« فإنى سمعت الله بعقبها » هو قرأ بنفسية المؤمن الصادق ، فالمؤمن حين يقرأ كلام الله إنما يستحضر أنه يسمع الله يتكلم إنه يقول : فإنى سمعت الله بعقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فأنت حين تستمع إلى القرآن فالله هو الذى يتكلم ، ومن العيب أن يتكلم ربك

فى أذنك ثم تشغل عنه وهو ربك ، إذن فعلاج الخوف هو أن تقول من قلبك: « حسبنا الله ونعم الوكيل » وأن تقولها بحقّها ، فإن قلتها بحقها كفاك الله شرّ ذلك الخوف ، لأن الله يقول بعد « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » انظر إلى النعمة والفضل ، إنهما من الله، وقد تصيبك النعمة والفضل ولكن تقدر ذلك فى أخريات الأمور ، فأوضح الله أن النعمة زادت فى أنها غنيمة باردة ، ولم يحدث فيها أن مسّنا سوء ، إن ذلك هو قمة العطاء ورأسه وسنامه ، فإذا قدرته فى أخريات الأمور فقدْ أخطأت التقدير « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ونتيجة لتلك التجربة النافعة هى أن « اتبعوا رضوان الله » ، وقد نجحت التجربة مع المؤمنين .

ويقول الإمام جعفر الصادق ليكمل العلاج لجوانب النفس البشرية، ويصف الدواء . فالنفس البشرية يفزعها ويقلقها ويجعلها مضطربة أن تخاف شرّاً يقع عليها ، وعلاج هذا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ويضيف : وعجبت لمن اغتمّ ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه :

﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الأنبياء)

و« الغمّ » قلق فى النفس ، ولكنك لا تدرك أسبابه ، فأسبابه مُعقّدة ، صدر يضيق ، ولذلك تقول : أنا صدرى ضيق ، أنا متعب ولا أدرى لماذا ؟ أى لم يمرّ بك الآن أشياء تستوجب هذا ، إنما قد تكون حصيلة تفاعلات لأحداث وأمور أنت لا تتذكرها الآن ، هذا اسمه « غمّ » ، فإذا ما فزع العبد إلى قول الحق سبحانه : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » فالعبد يقرّ بذنبه ويقول : هذا الغمّ لم يأتنى إلا لأنى خرجت عن المنهج ، ويذكرنا سيدنا جعفر الصادق بأنه سمع بعدها قول الله :

﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

والذى قال ذلك هو سيدنا يونس « فاستجبنا له ونجيناه من الغمّ » .

وهذه الاستجابة من الله ليست خاصّية كانت ليونس عليه السلام ، لأنه سبحانه قال : « وكذلك ننجي المؤمنين » أى أنه باب واسع أدخل الله فيه كل المؤمنين ، ويضيف سيدنا جعفر الصادق : وعجبت لمن مُكر به ولم يفزع إلى قول الله :

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة غافر)

فإنى سمعت الله بعقبها يقول : « فوقاه الله سيئات ما مكروا » .

ومُكر به معناها بيّت له الشر بحيث يخفى ، لأن المكر هو : تبييت من خصمك لشرّ يُصيبك ، بينما أنت تقف بجانب الحق ، فيكون هذا المكر شراً يُبيِّت لخير وحق ، وهذا هو المكر السّيء ، ويُقابله مكر حَسن ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إذن فهناك مكرٌ ليس بسيّء ، كأن يُبيّت صاحب الحق لصاحب الشرّ ، تبييتاً يخفى عليه ، هذا اسمه مكر خير ؛ لأنه محاربة لشرٍّ ؛ ولذلك يوضح لنا الله هذا الأمر : افطنوا إلى هذه ، فإن كانوا يمكرون ويُبيّتون ، فهم إن بيّتوا على الخلق جميعاً لا يُبيّتون على الله لأنه سبحانه العليم ، الخالق ، المربّى ، وإن يُبيّت الله لهم فلن يستطيعوا كشف هذا التبييت ، إذن فالله خير الماكرين ؛ لأن تبييتهم مكشوف أمام الخالق ، لذلك فهو مكر ضعيف ، أما المكر الحقيقى فهو الذى لا توجد وسيلة تعرفه بها .

ونواصل مع سيدنا جعفر الصادق قوله فى علاج النفس البشرية فيقول : وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قول الله :

﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الكهف)

فإنى سمعت الله يعقبها بقوله :

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ وجزء من الآية ٤٠ سورة الكهف)

واستنبط سيدنا جعفر الصادق ذلك من حكاية صاحب الجنة :

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

(سورة الكهف)

إنك حين تقول: « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » فإن الدنيا تأتيك مهرولة ، لأنك جرّدت نفسك من حولك ، ومن قوة حيلتك وأسبابك ، وتركت الأمر لله سبحانه وتعالى القادر على كل عطاء .

إذن فالجوانب البشرية فى النفس : هى خوف له علاج وَوَصْفَة ، وهمٌّ له علاج ووصفة ، ومكر بك له علاج ووصفة ، وطلب دنيا وسعادة لها علاج وَوَصْفَة ، والوصْفَة التى نحن بصددها هنا : « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » .

والنعمة أن يعطيك الله على قدر عملك ، والفضل من الله هو أن يزيدك عطاء ، ولم يمسس السوء أحداً من المؤمنين الذين طاردوا المقاتلين من قريش ، وكان من نتيجة ذلك أنهم جمعوا بين كل ما وهبه الله لهم ؛ من نعمة وفضل مع اتباعهم رضوان الله ؛ فقد صارت المسألة بالنسبة لهم تجربة مُحسّة ومُجرّبة « واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

لقد حاول المنافقون أن يثبطوا المؤمنين عن لقاء كفّار قريش ، فيريد الحق أن يكشفهم ، ويظهر الدافع إلى مثل ذلك الموقف من المنافقين ، لذلك قالوا للمؤمنين : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم »

ويظهر الله للمؤمنين حقيقة موقف المنافقين :

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

إنها صرخة الشيطان الذى يخوّف أولياءه ، ويَصحُ أن يصرخ الشيطان صرخته وهو يتمثل فى صورة بشر ، ويصح أن ينزغ الشيطان بصرخته لواحد من البشر فيصرخُ هذا الإنسان بنزغ الشيطان له « إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه » .

وعندما نقرأ القرآن بدقة صفائية إيمانية فلابد أن نفهم عن القرآن بعمق ، فمن هم أولياء الشيطان ؟ أولياء الشيطان فى هذا الموقف ، إما كفّار قريش ، وإما المنافقون أو هما معا . و« أولياؤه » هم أحبابه الذين ينصرون فكرته .

كأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يُبلّغنا : إنما ذلكم الشيطان الذى قال:إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، هذا الشيطان إنما يخوف أولياءه .

وللوهلة الأولى نجد أن الشيطان مُفترض فيه أن يخوّف أعداءه . ونحن هنا أمام شيطان ينزغ بعبارة التخويف ، فمن الذى يخاف وممن يخاف ؟

المفروض أن يُخيف الشيطانُ أعداءه ، هذا هو المنطق .

فنحن فى حياتنا العادية نقول : خوّفت فلاناً من فلان ، أو خوفت فلاناً فلاناً . إذن فالشيطان يحاول هنا أن يتسلط على المؤمنين ويخوفهم من أوليائه الكفار والمنافقين ، ونعرف فى اللغة أن هناك فى بعض المواقف يمكننا أن نحذف حرف الجر ونصل الجملة ، ونسمّيه « مفعولاً منه » . مثال ذلك قول الحق :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

فموسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً .

وعلى ذلك نقرأ قول الحق : « إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه » ونفهم منها ؛ أن ذلكم الشيطان يخوِّفكم أنتم من أوليائه ، لأن حرف الجر فى الآية الكريمة محذوف ، ويعاضد هذا ويقويه قراءة ابن عباس وابن مسعود : يخوفكم أولياءه ، وينبه الحق المؤمنين ألاّ يخافوا من أولياء الشيطان فيقول : « فلا تخافوهم » .

وهذا يوضح لنا أن الشيطان إنما أراد أن يُخوّف المؤمنين من أوليائه وهم المنافقون والكافرون . وبعض المفَسرين قال : « يخوّف أولياءه » المقصود بهم أن الشيطان يخوّف أولياءه حتى يجبنوا من القتال ، فنزغ فيهم أنهم إن خرجوا للقتال فقد يموتون . ولكن إن جاز ذلك القول على المنافقين الذين لم يخرجوا مع الرسول لملاقاة المشركين فكيف يجوز ذلك على الصنف الثانى من أوليائه وهم الكفار ؟ إن الكفار قد خرجوا فعلا لقتال المؤمنين . ونفهم من قول الحق : « فلا تخافوهم وخافون » أن أولياء الشيطان ليسوا هم الخائفين ولكنهم هم المخوِّفون : « إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » .

فالحق سبحانه يطلب من المؤمنين أن يصنعوا معادلة ومقارنة ، أيخافون أولياء الشيطان ، أم يخافون الله ؟ ولابد أن يصلوا إلى الخوف من الله القادر على دحر أولياء الشيطان .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾

لقد كان المنافقون فى أول المعركة مُختفين ومستورين ، ثم ظهرت منهم بادرة الانخذال فى أُحُد فكانوا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ، ولكنهم من بعد ذلك سارعوا إلى الكفر ، كأن هناك من يلاحقهم بسوط ليتسابقوا إلى الكفر .

وها هو ذا الحق سبحانه قد حدّد عناصر المعركة ، أو قوى المعركة ، أو ميدان المعركة أو جنود المعركة ، فينبه رسوله : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » ولم يقل : لن يضروكم شيئا ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته المؤمنين ليسوا طرفاً فى المسألة ، فعداء الذين يسارعون فى الكفر هو عداء لله ؛ لذلك يقول الحق : « إنهم لن يضروا الله شيئا » . كأن المعركة ليست مع المؤمنين . ولكنها معركة الكافرين مع الله ، ومادامت المعركة مع الله فالمؤمنون جند الله ؛ وهم الصورة التى أرادها الله لهزيمة الكافرين :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فلو كانت معركة الكفر مع المؤمنين بالله فقط لقال الله : ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروكم شيئا ، لكن المسألة ليست هكذا ، لقد أراد معسكر الكفر والنفاق أن يدخل معركة مع الله ، ولا توجد قوة قادرة على ذلك ، ولهذا يطمئن الله المؤمنين أكثر ، ليزدادوا ثباتاً على الإيمان ؛ لأن الكل من البشر مؤمنين وكفارًا أغيار ، وقد يتحول بعض من البشر المؤمنين الأغيار عن المنهج قليلاً ، فعندما تكون المعركة بين بشر وبشر فقد يغلب أحد الطرفين بقوته .

ومن أجل المزيد من الاطمئنان الكامل نقل الله المعركة مع الكفر إلى مسألة أخرى ، إنه بجلاله وكماله وجبروته هو الذى يقف ضد معسكر الكفار . والمهم فقط أن يظل المؤمنون فى حضانة الله . والرسول كان يحزنه أن يُسارع البعض إلى الكفر . فهل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم أنه إنما جاء مُبلغاً فقط ؟ . إنه يعلم ولكنه كان يحرص ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن يؤمن الناس جميعاً ليذوقوا حلاوة ما جاء به ، هذا الحرص هو الذى يدفع الحُزن إلى قلب الرسول ، وعندما يرى

واحداً لا يتذوق حلاوة المنهج ، فالرسول يأمل أن يذوق الناس كلهم حلاوة الإيمان ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم رءوف رحيم بالمؤمنين ، بل وبالناس جميعا « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ودليل ذلك أن جاءه التخيير .

فقد نادى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال : فناداني ملك الجبال وسلم عليّ ثم قال : يا محمد ، إن الله قد بعثني إليك وأنا ملك الجبال لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا »[1]

فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يبقى على هؤلاء فقط ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة . وقد كان . وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كما أخبر الله فى آيات القرآن ـ يحزن عندما لا يذوق أحد حلاوة الإيمان ، يقول الحق :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾

(سورة الكهف)

وفى موقع آخر يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ ﴾

(سورة الشعراء)

والحق سبحانه وتعالى لا يريد أعناقاً ، لكنه يريد قلوباً تأتى له بعامل الاختيار والمحبة ، فباستطاعته وهو الخالق الأكرم أن يخلق البشر على هيئة غير قابلة للمعصية ، كما خلق الملائكة ، إن كل الأجناس تُسبّح بحمده ، إذن فالقرآن يُبيّن حِرصَه صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن الناس جميعاً وأن يذوقوا حلاوة اللقاء بربهم ،

(١) رواه البخارى ومسلم .

واتّباع منهج الله ، وحلاوة التشريع الذى يُسعدهم ويُسعد كل ملكاتهم . فإذا ما جاءت المسائل على غير ما يُحبّ رسول الله . فها هو ذا قول الله سبحانه : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » .

وهذا دليل على أن الله يريد أن يُبلّغ البشر : أيها الناس إن من فَرْط حُبّ الرسول لكم أنه يَحزن من أجل عِصيانكم وأنا الذى أقول له: لا تحزن . والرسول صلى الله عليه وسلم رحيم بالأمة كلها ، كما يقول القرآن :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

ويكفيه موقفه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، حين تذهب كل أمة إلى رسولها ليردّها ، فتأتى الأمم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فُيكرمه الله بقبول شفاعته حتى يُعجّل الله بالفصل والحساب ، وهذه رحمة للعالمين ؛ لأنهم من هول الموقف يتمنّون الانصراف ولو إلى النار .

ونحن قلنا سابقا : إن الحق سبحانه وتعالى علم انشغال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمته وبرحمته بهم ، فقال له الله ـ ليريح عواطفه ومواجيده ـ ما ورد هنا فى الحديث الشريف :

فعن عبدالله ابن عمر بن العاص رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم : « رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى » .

وقول عيسى ـ عليه السلام ـ « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

فرفع يديه وقال : اللهم أمتى أمتى وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يُبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريل ،

اذهب إلى محمد فقل : (إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك)[1]

ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ له موقف آخر يدل على كمال رحمته بأمته ، فقد أنزل الله فيما أنزل من القرآن الكريم ـ بعد فترة الوحى ـ قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) .

انظروا إلى ما ورد عن سيدنا على فى هذه الآية،فقد روِىَ أنه ـ رضى الله عنه ـ قال لأهل العراق : إنكم تقولون : إن أرجى آية فى كتاب الله تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) . قالوا : إنا نقول ذلك.قال : ولكنّا ـ أهل البيت ـ نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) . وفى الحديث لما نزلت هذه الآية قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إذا لا أرضى وواحد من أمتى فى النار)[2] .

كما روى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (لكل نبىّ دعوة مستجابه فتعجل كل نبىّ دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعتى لأمتى يوم القيامة)[3] .

وهكذا نرى شغل رسول الله بأمته كأمر واضح موجود فى بؤرة شعوره .

إذن فقول الله : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » هو توضيح من الله لرسوله بأنهم لم يسارعوا فى الكفر تقصيراً منك ، فأنت قد أديت واجبك ، ويضيف سبحانه : « إنهم لن يضرّوا الله شيئا » ولم يقل سبحانه: إنهم لن يضروك،أولن يضروا المؤمنين ، لا بل لقد جعل سبحانه وتعالى المعركة معه وهو القوى ذو الجبروت إنّه هنا يطمئن المؤمنين .

ويريد الله ألا يجعل للذين يسارعون إلى الكفر حظاً فى الآخرة فيقول : « يريد الله

(١) رواه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الايمان .

(٢) من تفسير الإمام القرطبى .

(٣) أخرجه البخارى .

ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ولهم عذاب عظيم » ومادامت هذه إرادات الله فى ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ، أيكون لهم عمل يصادم مرادات ربهم ؟ لا .

إنه سبحانه يريد بما شرّع من منهج أن تأتيهم سُنّته ، والله يعذّب من يخالف سُنّته التى شرعها . لأنه جلت قدرته يطلب من المكلفين أن يطبقوا سنته التى شرعها لهم .

وفرق بين وجود « لام العاقبة » التى تأتى حين يكون فى مُراد العبد شىء ، ولكن القُدرة الأعلى تريد شيئاً آخر ، وهى تختلف عن « لام الإرادة » والتعليل فـ « لام الإرادة والتعليل » تتضح فى قولنا : ذاكر التلميذ لينجح ، لأن علّة المذاكرة هى الرغبة فى النجاح ، أما « لام العاقبة » ، فتتضح عندما يقول الأب لابنه : أنا دللتك لترسب آخر العام .

أدلّ الأب ابنه حتى يرسب ؟ لا ، ولكن الأب يأتى هنا بـ « لام العاقبة » أى كان للأب مراد ، ولكن قدرة أعلى جاءت على خلاف المراد .

ونوضح المسألة أكثر ، فالحق يقول فى قصة سيدنا موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

ونحن لابد أن نتنبه إلى قول الحق : « فألقيه فى اليم » والإنسان العادى لو قال لامرأة تحمل رضيعها : إن خفت على ابنك فألقيه فى البحر . هذه المرأة لن تُصدّق هذا القائل ، لكن أم موسى تلقت هذا الوحى من الله ، والتلقّى من الله لا يُصادمه فكر شيطان ولا فكر بشر ، فالإلهام من الله يتجلّ فى قوله : « وأوحينا إلى أم موسى » .

ومادام الله هو الذى ألهمها ، فإن خاطر الشيطان لا يجىء . ولذلك قامت أم موسى بتنفيذ أمر الله . ويطمئنها الله فقال لها : « ولا تخافى ولا تحزنى إنّا رادوه إليك

وجاعلوه من المرسلين » .

ويُنبّه سُبحانه أم موسى أنه لن يردّه إليها لمجرد أنه قُرة عين ، ولكن لأن لموسى أيضاً مُهمّة مع الله . وفي لقطة أخرى يقول الحق عن مسألة الوحي لأم موسى :

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩﴾

(سورة طه)

والحق هنا في هذه اللقطة يصف وقت تنفيذ العملية التي أوحى بها ، ففيه فرق بين التمهيد للعملية قبل أن تقع كما حدث في اللقطة السابقة حيث قال لها الحق : « فإذا خفت عليه فألقيه في اليم » . كان ذلك هو الإعداد ، ثم جاء وقت التنفيذ ، فقال الحق لموسى : « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى » . إنها سلسلة من الأوامر المتلاحقة التي تدل على أن هذه العملية كانت في وقت أخذ جنود فرعون لأطفال بني إسرائيل ليقتلوهم ، إنه سبحانه يبين لنا أن جنود الله من الجمادات التي لا تعي تلقت الأمر الإلهي بأن تصون موسى ، فكلمة « اقذفيه » تدل على السرعة ، وتلقّى « اليم » الأمر من الله بأن موسى عندما يُلقى في البحر ، فلابد أن يلقيه إلى الساحل . « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل » إنها أوامر للمُسخر من المخلوقات التي لا تعصى .

لكن كيف تكون أوامر الحق لعدو لله ؟ إن الله يدخلها كخاطر مُلحّ في رأس فرعون ليُنفّذ مُراد الله . إن امرأة فرعون تقول له ما جاء في قوله تعالى :

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

(سورة القصص)

لقد دخل أمر الله كخاطر ، والتقطه آل فرعون لا ليكون قرة عين لامرأة فرعون ، ولكن لأمر مختلف أراده الله . فهل ساعة الالتقاط كان في بالهم أن يكون موسى عدواً

أو قرة عين ؟ إنها « لام العاقبة » التى تتضح فى قوله : « ليكون لهم عدوًا وَحَزَنا » . فالإنسان يكون فى مُراده شىء ، ولكن القدرة الأعلى من الإنسان ـ وهو الله ـ تريد شيئاً آخر .

الإنسان فى تخطيطه أن يقوم بالعملية لكذا ، ولكن القوة الأعلى من الإنسان تريد العملية لهدفٍ آخر ، وهى التى أوحت للإنسان أن يقوم بهذه العملية . ويتجلّى ذلك بوضوح فى العلة لالتقاط آل فرعون لموسى . كان فرعون يريده قُرّة عين له ، ولكن الله أراده أن يكون عدوّاً لفرعون . وفى هذا المثال توضيح شامل للفرق بين « لام العاقبة » و « لام الإرادة والتعليل » وعندما نرى أحداثاً مثل هذه الأحداث فلا نقول : « هذا مراد الله » ولكن فلنقل : (العاقبة فيما فعلوا وأحدثوا خلاف ما خططوا) .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾

إنهم لن يضروا الرسول وصحابته لأنهم فى معيّة الله ، وهم لن يضرّوا الله ، وفى ذلك طمأنة للمُؤمنين ، كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أيها المؤمنون بى المصدّقون بمحمدٍ إن المعركة مع الكفر ليست معركة المؤمنين مع الكافرين ، ولكنها معركة ربكم مع هؤلاء الكافرين . وفى هذا اطمئنان كبير .

« إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان » ، و« الاشتراء » صفقة ، والصفقة تقتضى « ثمناً » و« مُثمناً » . و« الثمن » هنا هو الإيمان ، لأن الباء تدخل على المتروك ، و« المُثمَن » هو الكفر لأنه هو المأخوذ . فهل أخذوا الكفر ودفعوا الإيمان ثمناً له ؟

وهل معنى ذلك أن الإيمان كان موجوداً لديهم ؟

نعم كان عندهم الإيمان ؛ لأن الإيمان القديم هو إيمان الفطرة وإيمان العهد القديم الذي أخذه الله على الذّر قبل أن توجد فى الذّر الأغيار والأهواء :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أو على الأقل كان الإيمان والكفر فى متناولهم ؛ بانضباط قانون الاختيار فى النفس البشرية ، لكنهم أخذوا الكفر بدل الإيمان . والبدلية واضحة ، فقد استبدلوا الكفر بالإيمان ، فالباء - كما قلت - دخلت على المتروك . لقد تركوا الإيمان القديم وهو إيمان الذّر ، أو تركوا إيمان الفطرة فالحديث الشريف يقول :

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه »[1] .

لقد انسلوا من الإيمان ، ودفعوه ثمنا للكفر ، فعندما يأخذ واحد الكفر ، فهو قد أخذ الكفر بدلاً من الإيمان وهم « لن يضرّوا الله شيئا ولهم عذاب أليم » لماذا ؟ لأننا إن افترضنا أن الدنيا كلها قد آمنت فهذا لن يُفيد الله فى شىء . والحديث القدسى يقول :

قال الله تعالى : (يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسُكم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرّى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على

(١) : رواه البخارى .

أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخْيَطُ إذا أُدْخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه »[1] .

إذن ، فلا الإيمان من البشر يزيد الله شيئاً ، ولا الكفر ينقص من الله شيئاً ؛ لأن الإنسان قد طرأ على ملك الله . ولم يأت الإنسان فى ملك الله بشىء زائد ، فالإنسان صنعه الله وخلقه من عناصر ملكه ـ جلت قدرته ـ ويستمر الحديث فى توضيح أنّ الحق سبحانه لا يعالج شيئاً بيديه فيأخذ منه زمناً . لا ، إنه سبحانه جلّت مشيئته يقول للشىء : كُن ، فيكون .

وكلمة « كُن » نفسها هى أقصر أمر . إنّ أمره ألطف وأدق من أن يدركه على حقيقته مخلوق . لكن الحق يأتى لنا بالصورة الخفيفة التى تجعل بشريتنا تفهم الأمر . فالذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرّو الله شيئاً ولهم عذاب أليم . فهم لن يعيشوا بِنَجْوَةٍ وبُعد عن العذاب ، بل سيكون لهم العذاب الأليم .

ونحن نجد أن الحق يقول مرة فى وصف مثوى الكافرين إنه عذاب أليم ، ومرة أخرى لهم عذاب عظيم ومرة عذاب مهين ، لماذا ؟

لأن العذاب له جهات متعددة ، فقد يُوجد عذابٌ مؤلم ، ولكن المُعَذب يتجلد أمام من يُعذبّه ويُظهر أنه مازال يملك بقيّة من جَلَد ، إنه يتألم لكنه يستكبر على الألم ، ولَذلك قال الشاعر :

وَتجـلّدى لـلشـامـتـين أُريـهـمـو
أنى لِرَيْب الـدهـر لا أتـضـعـضـعُ

---

(١) رواه مسلم بسنده عن أبى ذر .

فالتجلد هو نوع من الكبرياء على الواقع . ولذلك يأتي من بعد ذلك قوله الحق إن لأمثال هؤلاء عذاباً مهيناً ، أى إنهم سيذوقون الذّل والألم ، ولا أحد فيهم يستطيع التجلد . وهذا النوع من العذاب لا يقف فقط عند حدود الألم العادى ، ولكنه عذاب عظيم فى كمّيته وقدره ، وأليم فى وقعه . ومهين فى إذلال ودكّ النفس البشرية وغرورها ؛ لذلك فعندما نجد أن العذاب الذى أعده الله للكافرين موصوف بأنه « عذاب أليم » ومرة « عذاب عظيم » ومرة « عذاب مهين » فلنعرف أن لكل واحدة معنى ، فليست المسألة عبارات تقال هكذا بدون معنى مقصود .

وأريد أن أقف هنا فى هذا الحديث عند « لام العاقبة » لأن البعض يحاول أن يخلق منها إشكالات إنّ هؤلاء المتربصين لكلام الله يحاولون النيل منه ، وهم لا يبحثون إلا فيما يتوهمون ـ جهلاً ـ أنه نقاط ضعف ، وهو سبحانه وتعالى يقول عن الكفار والعياذ بالله وهم فى النار :

﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾
إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ
﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

لقد انشغل الكفار بالسّخرية من أهل الإيمان بإشارات أو لمز وغمز أو اتهام بالرجعية أو الدروشة أو مثل ذلك من ألوان السّخرية ، لدرجة أنهم نسوا مسألة الإيمان ، فما الذى أنساهم ذكر الله ؟ لقد أنساهم ذكر الله انشغالهم بالسّخرية من أهل الإيمان .

لقد قضى الكفار وقتهم كله للسّخرية من أهل الإيمان حتى نسوا ولم يتذكروا أن هناك خالقا للكون . وهذا ما يسمى « غاية العاقبة » وليست غاية وعلة للإرادة ، لأنهم لم يريدوا نسيان ذكر الله ولكن أمرهم انتهى إلى ذلك .

وسيُعذّب الله الكافرين عذاباً أليماً وعظيماً ومُهيناً . ولكل وصف مراده فى النص

حتى يستوعب كل حالات الإهانة من إيلام ، فالذى لا يألم بشىء صغير ولا يتحمل الألم القوى سيجد الألم الكبير ، وكذلك الذى يتجلد على الألم العظيم ، سيجد الألم المهين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾

وعندما نسمع قول الله : « ولا يحسبن » فهو نهى ، وقد نهى الله الكافرين عن ماذا ؟ إن الكافر عندما يجد نفسه قد أفلت فى المعركة من سيف المؤمنين وأن عمره قد طال فى الكفر ، فهو يظن أن الحق سبحانه وتعالى تركه لخير له ؛ لأنه يفهم أن عمره هو أثمن شىء عنده ، فمادام قد حوفظ له على عمره فهو الخير . نقول لمثل هذا الكافر : إن العمر زمن ، والزمن وعاء الأحداث ، إذن فالزمن لذاته لا يُمجد إلا بالحدث الذى يقع فيه ، فإن كان الحدث الذى يقع فى الزمن خيراً ؛ فالزمن خير . وإن كان الحدث الذى يقع فى الزمن شراً ؛ فالزمن شر ، ومادام هؤلاء كافرين ، فلابد أن كل حركاتهم فى الوجود والأحداث التى يقومون بها هى من جنس الشر لا من جنس الخير ، لأنهم يسيرون على غير منهج الله . وربما كانوا على منهج المضادة والمضارة لمنهج الله .

وذلك هو الشر . إذن فالله لا يملى لهم بقصد الخير ، إنما يملى الله لهم لأنهم ماداموا على الكفر فهم يشغلون أوقات أعمارهم بأحداث شرّية تخالف منهج الله . وكل حدث شرّى له عذابه وجزاؤه . إذن ، فإطالة العمر لهم شر .

والحق سبحانه يقول : « ولا يحسبَنّ الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم » و« يحسبَنّ » هى فعل مضارع ، والماضى بالنسبة له هو « حسِب » ـ بكسر السين ـ ولذلك قال الحق سبحانه فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ ﴾

(سورة العنكبوت)

إن الماضى هو « حَسِبَ » ـ بكسر السين ـ والمضارع « يحسَب » ـ بفتح السين ـ . أما حَسَبَ « يحسِب » ـ بكسر السين ـ فى المضارع وفتحها فى الماضى فهى من الحساب والعدد ، وهو عدد رقمى مضبوط .

أمر « حسِب » و« يحسَب » فتأتى بمعنى الظن ، والظن كما نعرف أمر وهمى ، والحق سبحانه يذكرهم أن ظنونهم بأن بقاء حياتهم هو خير لهم ليست حقاً . بل هى حدس وتخمين لا يرقى إلى اليقين .

صحيح أن العمر محسوب بالسنوات ؛ لأن العمر ظرف للأحداث ، والعمر بذاته ـ مجرداً عن الأحداث ـ لا يقال إن إطالته خير أو شر ، وإنما يقال : إن العمر خير أو شر بالأحداث التى وقعت فيه ، والأحداث التى تقع من الكافر تقع على غير منهج إيمانى فلا بد أن تكون شراً ، حتى ولو فعل ما ظاهره أنه خير فإنه يفعله مضارة لمنهج الله . فلو كانت المسألة بالعملية الرقمية ؛ لقلنا: « حسَب » و« يحسِب » ـ بفتح السين فى الماضى وكسر السين فى المضارع ـ لكن هى مسألة وهمية ظنية ؛ لذلك نقول: « يحسَب » ـ بفتح السين فى المضارع ـ أى يظن . وهو سبحانه يقول : « إنما نملى لهم » . ما الإملاء ؟ الإملاء هو تمديد الوقت وإطالته . ولذلك نجد فى القرآن :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝٤٦ ﴾

(سورة مريم)

إنه يأمر سيدنا إبراهيم أن يهجره مدة طويلة . هذا هو معنى « واهجرنى مليا » .

والمقصود هنا أن إطالة أعمارهم بعد أن أفلتوا من سيوف المؤمنين . ليست خيراً لهم ولا يصح أن يظنوا أنها خير لهم ، لأن الله إنما يملى لهم ؛ « ليزدادو إثماً ولهم

عذاب مهين » وهنا نجد « لام العاقبة » .

وإياك أن تقول أيها المؤمن : إن الله قد فعل ذلك ليعاقبهم . لا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد وضع سننه فى الكون ويطبقها على من يخرج على منهجه،فمن يصنع إثماً يعاقبه الله عليه « إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً » فكل ظرف من الزمن يمر عليهم يصنعون فيه أعمالاً آثمة على غير المنهج .

« ولهم عذاب مهين » وتأتى كلمة « مهين » وصفاً للعذاب مناسبة تماماً ؛ لأن الكافر قد يخرج من المعركة وقد تملكه الزهو والعجب بأن أحداً لم يستطع أن يقطع رقبته بالسيف ، ويتيه بالعزة الآثمة ، لذلك فالإيلام هنا لا يكفى ،لأنه قد يكتم الألم ويتجلد عليه ، ولكن العذاب عندما يكون مهيناً فهو العقاب المناسب لمثل هذا الموقف . والمتكلم هنا هو الله ، وسبحانه العليم بالمناسب لكل حال .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

وساعة نسمع « ما كان » فلنعرف أن هنا « جحوداً » أى أن هناك من يجحد القضية . ويسمونها « لام الجحود » . فقبل حادثة أُحُد ، كان المنافقون متداخلين مع

المؤمنين . أكان الله يترك الأمر مختلطاً هكذا ، ولا يُظهر المنافقين بأحداث تبين مواقعهم الحقة من الإيمان ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى لا يقبل ذلك ؛ حتى لا يظل المنافقون دسيسة في صفوف المؤمنين . وكان لابد أن تأتي الأحداث لتكشفهم . وجاءت أحداث أُحُد لتهيج الصف المنسوب إلى الإيمان ، وتفرزه ليتميز الخبيث من الطيب ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

إذن كانت أحداث أُحُد ضرورية .

وقوله الحق : « ما كان الله ليذر المؤمنين » مقصود بها أن الله لم يكن ليدع المؤمنين ويتركهم عرضة لاختلاط المنافقين بهم بدون أن يتميز المنافقون بشيء من الأشياء ، حتى لا تظل المسألة مقصورة على ما يُعلمه الله لرسوله من أمر المنافقين . فلو أعلم الله رسوله فقط بأمر المنافقين ، ولو أعلن الرسول ذلك للمؤمنين دون اختبار واقعي للمنافقين لكان ذلك مجرد تشخيص نظري للنفاق يأتي من جهة واحدة ، وأراد الله أن تأتي حادثة واضحة وتجربة معملية واقعية تبين وتظهر الواقع ، حتى ينكشف المنافقون ، وحتى لا يعترض أحد منهم عندما يوصف بأنه منافق ، وحتى لا يكون هذا الوصف مجرد كلام من الخصم ، بل بفعل ارتكبوه هم عملياً ، وبذلك تكون الحجة قوية للغاية .

لقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى في الصلاة ؛ لأن كل منافق منهم أراد أن يحبك مسألة نفاقه ، ويُواريه ، فيحرص على ما يندفع المؤمنون إليه ، والمنافق كان يعرف أن المؤمنين يتسابقون إلى الصلاة ، فهو يسارع ليكون في الصف الأول من الصلاة . ويخبر الله سبحانه وتعالى رسوله :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٠ ﴾

(سورة محمد)

أى لو لاحظت كلامهم لعرفتهم ، مثلهم مثل كل المنافقين فى الدنيا ، تلاحظ فى كلامهم لفظة من نفاق ؛ فالمؤمن حين يجلس مع جماعة من المنافقين ويأتى وقت صلاة الظهر ويدعو الأذان إلى الصلاة ، تجد المؤمن يقول : فلنقم إلى الصلاة ، وهنا يسخر المنافق ويقول للمؤمن : لتأخذنى على جناحك للجنة يوم القيامة . ومثل هذه الكلمة يكون « لحن القول » . أو عندما يدخل مؤمن على جماعة من الناس فيهم منافق ، فيستقبل المنافق المؤمن بلهجة من السخرية فى التحية ، « كيف حالك أيها الشيخ (فلان) » ؟ ومعنى ذلك أنه غير مستريح لوجود المؤمن فيسخر منه .

وذلك من « لحن القول » الذى يظهر به المنافق .

ومثل هذه العمليات عندما يواجهها المؤمن الواعى المستنير الذى يتجلّى الله عليه بالإشراقات النورانية ، مثل هذه العمليات تكون وقوداً للمؤمن وتزيد من إيمانه ؛ لأن المؤمن على منهج الحق ، وقادر على نفسه ، هذا ما يغيظ المنافق كثيراً ؛ فالمنافق يتساءل بينه وبين نفسه : لماذا يقدر المؤمن على نفسه ؟ والمنافق لا يقدر على نفسه ؛ لذلك يريد أن يسحب المؤمن من عقيدته ليكون معه على النفاق والعياذ بالله . وعلى المؤمن أن يوطن نفسه على أنه سيواجه منافقين يريدون أن يردوه عن الإيمان ، وسيجد أناساً يسخرون منه ويتغامزون عليه ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

والمنافق أو الكافر قد يقول لأهله : لقد رأيت اليوم شيخاً أو رجل دين أومتدينا فسخرت منه وأهنته ويتندر المنافق بمثل هذا القول فى بيته الفاسدة ، ويكشفها الحق لنا بقوله الكريم . ليطمئن المؤمنين ، ويعوض كل مؤمن عما يصيبه من أهل النفاق والفساد :

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۝٣٥
هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٣٦ ﴾

(سورة المطففين)

فالحق سبحانه يسأل المؤمنين يوم القيامة : هل قدرنا أن نجازى الكفار والمنافقين الذين سخروا منكم ؟ فيقولون : نعم يارب العالمين قد جوزوا وأثيبوا على فعلهم أوفى الجزاء وأتمه وأكمله .

إن سخرية المنافقين والكافرين من المؤمنين لها أمد دنيوى ينقضى ، ولكن السخرية فى الآخرة لا تنقضى أبداً . وعندما نقيسها نحن المؤمنين ، نجد أننا الفائزون الرابحون إن شاء الله . فلو ترك أى منافق ليتداخل فى أحضان المؤمنين ، ولا يظهر ذلك للمؤمنين لكانت المسألة صعبة العلاج ، ولهذا يقول الحق للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٠ ﴾

(سورة محمد)

والحق لا يكتفى بذلك ، لكنه يكشف لنا واقع المنافقين بتجارب معملية حتى لا يقول واحد منهم : لست منافقاً . وعندما يظهر الله المنافق ويكشفه بحادثة مدوية فعلية ، ومخجلة تبين أنه منافق ، فيكون قد وُصم بالنفاق ، لأن كثيراً من الناس الذين يظلون طوال عمرهم ينافقون اعتماداً على أنهم مسلمون فى الظاهر لا يتركهم الله ، بل لابد أن يأتى الله لهم بخاطر من الخواطر ويقعوا فى فخ اكتشاف المؤمنين لهم حتى يعرفهم المؤمنون ويقيّموهم على حقيقتهم ، فسبحانه وتعالى القائل :

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » .

وكلمة « يذر » تعنى « يترك » أو « يدع » . والدارسون للنحو يعرفون أن هناك فعلين هما « يذر » و« يدع » ، أهملت العرب الفعل الماضى لهما ، فهذان الفعلان

ليس لها فعل ماضٍ . ونستخدمها فى صيغة المضارع .

والحق سبحانه لم يكن ليدع المؤمنين على ما هم عليه من الاختلاط واندساس المنافقين بينهم وعدم معرفة المؤمنين للمنافقين ؛ لذلك يميز ويظهر الخبيث من الطيب . فلا يكتفى بإخبار النبى بأمر الخبثاء فقط ، ولكنه يكشف الخبثاء بفعل واقعى . فيقول : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » ؛ لأن الله لو أطلعكم على الغيب لتعرفوا المنافقين لأنكروا أنفسهم منكم وستروها عنكم ، ولذلك يجرى سبحانه الوقائع لتكشف الخبيث من الطيب ، وبعد ذلك يوصم المنافق بالنفاق بإقرار نفسه وإقرار فعله .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء » . إنه جل وعلا يختار من رسله من يشاء ليطلعهم على بعض الغيب حتى يزدادوا ثقة فى أن الله لا يتخلّى عنهم ، أى يعطى للرسول دلالات على المنافقين ، حتى يزداد الرسول ثقة فى أن الله لا يتخلّى عنه .

والله برحمته لا يكشف الغيب لكل المؤمنين ، فلو اطلع المؤمن على الغيب لفسدت أمور كثيرة فى الكون . وَهَبْ أن الله أطلع الإنسان على غيب حياته ، فعرف الإنسان ألف حادثة سارة ثم حادثة واحدة مكدرة ؛ فإن كدر الإنسان بالحادثة الواحدة المكدرة التى تقع بعد عشرين عاماً يفسد على الإنسان تنعمه بالأحداث السارة .

وإن كان الإنسان يريد أن يطلع على غيب الناس فهل يقبل أن يطلع على غيبه أحد ؟ فلماذا تريد أيها الإنسان أن تعرف غيب غيرك ؟ أيرضى أى واحد منا أن يعرف الناس غيبه ؟ لا . إذن فستر المعلومات عن الناس وجعلها غيباً هى نعمة كبرى .

ومع ذلك فالناس تُلح أن تعرف الغيب . ونرى من يجرى على الدجالين والعرافين ومن يدعون كذباً أنهم أولياء لله ، وكل ذلك من أجل أن يعرف الواحد بعضاً من الغيب . وهنا نقول : ليست مهارة العارف فى أن يقول لك ماذا سيحدث لك فى المستقبل ، لكنها فى أن يقول واحد من هؤلاء المدّعين لمعرفة الغيب : إن حادثاً مكروهاً سيقع لك ، وسأمنعه أو أدفعه بعيداً عنك . لا أحد يستطيع دفع قدر الله ،

ولذلك فلنترك المستقبل إلى أن يقع . لماذا ؟ . حتى لا يحيا الواحد منا في الهم والحزن قبل أن يقع . إذن فقول الحق : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » هو سنة من الله لأن نظام الملك ينتظم بها ويحتاج إليها .

فكل إنسان له هزات مع نفسه ، وقد تأتي له فترة يضعف فيها في شيء من الأشياء ، فإذا ما عرف الغير منطقة الضعف في إنسان ما ، وعرف هذا الإنسان منطقة الضعف في أخيه ، فلسوف يبدو كل الناس في نظر بعضهم بعضا ضعافاً . ومن فضل الله أن أخفى غيب الناس عن الناس . وجعل الله إنساناً ما قوياً فيما لا نعلم ، وذلك قويًا فيما لا نعلم ، وبذلك تسير حركة الحياة بانتظامها الذي أراده الله .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء » والحق يجتبي من الرسل ، أي بعضاً من الرسل - لا كل الرسل - ليطلعهم على الغيب حتى يعطي لهم الأمان بأنهم موصولون بمن أرسلهم ، فهو سبحانه لم يرسلهم ليتخلّى عنهم ، لا ، إنهم موصولون به؛لذلك يطلعهم على الغيب ، وقلنا : إن الغيب أنواع : فمطلق الغيب : هو ما غاب عنك وعن غيرك . ولكنْ هناك غيباً غائباً عنك وهو معلوم لغيرك ، وهذا ليس غيباً .

مثال ذلك إن ضاعت من أحدكم حافظة نقوده ، وسارقها غيب ، ومكانها غيب عن صاحبها ، لكن الذي سرقها عارف بمكانها ، إذن فهذا غيب على المسروق ، ولكنه ليس غيباً على السارق . إنه ليس غيباً مطلقاً ، وهذا ما يضحك به الدجالون على السذج من الناس ، فبعض من الدجالين والمشعوذين قد يتصلون بالشيطان أو الجن ؛ ويقول للمسروق حكاية ما عن الشيء الذي سُرق منه وهؤلاء المشعوذون لا يعرفون الغيب ؛ لأن الغيب المطلق هو الذي لا يعلمه أحد ، فقد استأثر به الله لنفسه .

ومثال آخر : الأشياء الابتكارية التي يكتشفها البشر في الكون ، وكانت سراً ولكن الله كشف لهم تلك الأشياء ، وقد يتم اكتشافها على يد كفار أيضاً . فهل قال

أحدٌ:إنهم عرفوا غيباً ؟ لا ؛ لأن لمثل هذا الغيب مقدمات ، وهم بحثوا فى أسرار الله ، ووفقهم سبحانه أن يأخذوا بأسبابه ما داموا قد بذلوا جهداً ، والله يعطى الناس ـ مؤمنهم وكافرهم ـ أسبابه . وماداموا يأخذون بها فهو يعطيهم المكافأة على ذلك . ولله المثل الأعلى ، وسبحانه منزه عن كل تشبيه ، أقول لكم هذا المثل للتقريب :

المدرس الذى يعطى تمرين هندسة للتلميذ ليقوم بحله ، فهل مجىء الحل غيب ؟ لا ؛ لأن التلميذ يعرف كيف يحل التمرين الهندسى ؛ لأن فيه المعطيات التى يتدبر فيها بأسلوب معين فتعطى النتيجة . ومادام التلميذ يخرج بنتيجة لتمرين ما بعد معطيات أخذها ، فذلك ليس غيباً .

ولذلك فعلينا أن نفطن إلى أن الغيب هو ما غاب عن الكل ، وهذا ما استأثر الله بعلمه وهو الغيب المطلق ، وهو سبحانه وتعالى يطلع عليه بعضاً من خلقه من الرسل ، وهو سبحانه القائل :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾

(سورة الجن)

وأما الأمر المخفى فى الكون ، وكان غيباً على بعض من الخلق ثم يصبح مشهداً لخلق آخرين فلا يقال إنه غيب ، وعرفنا ذلك أثناء تناولنا بالخواطر لآية الكرسى :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق سبحانه قد نسب هنا الإحاطة للبشر ، ولكن بإذن منه ، فهو يأذن للسر أن يولد ، تماماً كما يوجد للإنسان سلالات ولها أوقات معلومة لميلادها ، كذلك أسرار الكون لها ميلاد . وكل سر فى الكون له ميلاد ، هذا الميلاد ساعة يأتى ميعاده فإنه يظهر ، ويحيط به البشر . فإن كان العباد قد بحثوا عن السر وهم فى طريق المقدمات ليصلوا إليه ووافق وصولهم ميعاد ميلاده ؛ يكونوا هم المتكشفين له . وإن لم يحن ميعاد ميلاد هذا السر فلن يتم اكتشافه . وإذا حان ميلاد السر ولم يوجد عالم معملى يأخذ بالأسباب والمقدمات فالله يخرج هذا السر كمصادفة لواحد من البشر . وحينئذ يقال :إن هذا السر قد ولد مصادفة من غير موعد ولا توقع .

وأسرار الله التى جاءت على أساسها الاكتشافات المعاصرة ، كثير منها جاء مصادفة . فالعلماء يكونون بصدد شىء ، ويعطيهم الله ميلاد سر آخر . إذن فليس كل اكتشاف ابناً لبحث العلماء فى مقدمات ما ، ولكن العلماء يشتغلون من أجل هدف ما ، فيعطيهم الله اكتشاف أسرار أخرى ؛ لأن ميلاد تلك الأسرار قد جاء والناس لم يشتغلوا بها . ويتكرم الله على خلقه ويعطيهم هذه الأسرار من غير توقع ولا مقدمات .

ويستمر سياق الآية « فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » وهو سبحانه يخاطب المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى إذا خاطب قوماً بوصف ، ثم طلب منهم هذا الوصف فما معناه ؟ . ومثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

إنهم مؤمنون ، والحق قد ناداهم بهذا الوصف . معنى ذلك أنه يطلب منهم الالتزام بمواصفات الإيمان على مر الأزمان ، لأن الإيمان هو يقين بموضوعات الإيمان فى ظرف زمنى ، والأزمان متعاقبة لأن الزمن ظرف غير قارٍ . و« غير قارٍ » تعنى أن الحاضر يصير ماضياً ، والحاضر كان مستقبلاً من قبل . فالماضى كان فى البداية مستقبلاً ، ثم صار حاضراً ، ثم صار ماضياً . والزمن « ظرف » ، ولكنه ظرف غير قار . . أى غير ثابت . لكن المكان ظرف ثابت قار . فكأن الله يخاطبك : إن الزمن الذى مر قبل أن أخاطبك شُغل بإيمانك ، والزمن الذى يجىء أيضاً اشغله بالإيمان .

إذن معنى ذلك : يا أيها الذين آمنوا داوموا على إيمانكم . « وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » ولنا أن نتصور عظمة عطاء الحق ، فالمنهج الإيماني يعود خيره على من يؤديه ، ومع ذلك فالله يعطى أجراً لمن اتبع المنهج . إذن فعندما يضع الحق سبحانه وتعالى منهجاً فإنه قد فعله لصالح البشر وأيضاً يثيبهم عليه ، وهو يقول :

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

إن المتَّبع للمنهج يأخذ نفعه ساعة تأدية هذا المنهج . ويزيد الله فوق ذلك أنه سبحانه يعطى المتبع للمنهج أجراً ، وهذا محض الفضل ، وقلنا من قبل : إن العمر الذى يمده الله للكافرين والمنافقين ليس خيراً . إذن فعلى الناس أن يأخذوا المسائل والأزمنة بتبعات وآثار ونتائج ما يحدث فيها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾

لقد ظن بعض من المنافقين والكفار أن طول العمر ميزة لهم ، وها نحن أولاء بصدد قوم آخرين ظنوا أن المال الذى يجمعونه هو الخير فكلما زاد فرحوا . فيقول الحق : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » . فالمال قد جاءهم من

فضل الله ، ذلك بأنهم دخلوا الدنيا بغير جيوب . ولا أحد فينا قد رأى كفناً له جيوب . ولا أحد فينا قد رأى قماط طفل وليد له جيوب . فالإنسان يدخل الدنيا بلا جيب ، ويخرج بلا جيب . وكل ما يأتى للإنسان هو من فضل الله ، فلا أحد قد ابتكر الاشياء التى يأتى منها الرزق . ويمكن أن تبتكر من رزق موجود . فتطور فى الوسائل والأسباب وللإنسان جزء من الحركة التى وهبها الله له ليضرب فى الأرض ، ولكن لا أحد يأتى بأرض من عنده ليزرع فيها ، ولا أحد يأتى ببذور من عنده لم تكن موجودة من قبل ويزرعها ، ولا أحد يأتى بماء لم يوجد من قبل ليروى به ، فالأرض من الله ، والبذور عطاء من الله ، والماء من رزق الله ، وحتى الحركة التى يتحرك بها الإنسان هى من فضل الله .

فبالله لو أراد إنسان أن يحمل الفأس ليضرب فى الأرض ضربة ، فهل يعرف الإنسان كم عضلة من العضلات تتحرك ليرفع الفأس ؟ وكم عضلة تتحرك حين ينزل الفأس ؟!!

وعندما يضرب الإنسان الفأس . فهو يضربها فى أرض الله . والذى أراد لنفسه فأساً فإنه يذهب إلى الحداد ليصنعها له ، لكن هل سأل الإنسان نفسه من أين أتى الحديد ؟ وفى هذه قال الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إذن فماذا تُوجد أنت أيها الإنسان ؟

أنت تأخذ المواد الخام الأولية من عند الله ، وتبذل فيها الحركة الممنوحة لك من الله ، وأنت لا توجد شيئاً من معدوم ؛ بل إنك توجد من موجود ، فكل شىء من فضل الله . وأنت أيها الإنسان مضارب فى كون الله . فعقلك الذى يفكر ، من الذى خلقه ؟ إنه الله . وجوارحك التى تنفعل للعقل من الذى خلقها ؟ إنه الله .

وجوارحك تنفعل فى منفعل هو الأرض ، بآلة هى الفأس ، ثم ترويها بماء هو

نازل من السماء . فما الذى هو لك أيها الإنسان ؟ إن عليك أن تعرف أنه ليس لك شيء فى كل ذلك ، إنما أنت مضارب لله . فلتعطه حق المضاربة .

والحق سبحانه لا يطلب إلا قدراً بسيطاً من نتاج وثمرة الأرض . . إن كانت تروى بماء السماء فعليك عشر نتاجها . وإن كانت الأرض تروى بآلة الطنبور أو الساقية فعليك نصف العشر .

والذى يزرع أرضا فإنه يحرثها فى يوم ، ويرويها كل أسبوعين .

أما الذى يتاجر فى صفقات تجارية فهى تحتاج إلى عمل فى كل لحظة ، ولذلك فإن الحق قدّر الزكاة عليه بمقدار اثنين ونصف بالمائة . إذن فكلما زادت حركة الإنسان قلل الله قدر الزكاة . وهذه العملية على عكس البشر . فكلما زادت حركته . فإنهم يأخذون منه أكثر !!

والله سبحانه يريد أن توجد الحركة فى الكون ؛ لأنه إن وجدت الحركة فى الكون انتفع الناس وإن لم يقصد التحرك . وبعد ذلك فأين يذهب الذى يأخذه الله منك ؟ . إنه يعطيه لأخ لك ولغيره . فمادام سبحانه يعطى أخاً لك وزميلاً لك من ثمرة ونتيجة حركتك ، ففى هذا اطمئنان وأمان لك ، لأن الغير سيعطيك لو صرت عاجزاً غير قادر على الكسب . وفى هذا طمأنينة لأغيار الله فيك . فإن جاءت لك الأغيار فستجد أناساً يساعدونك ، وبذلك يتكاتف المجتمع ، وهذا هو التأمين الاجتماعى فى أرقى معانيه . أليس التأمين أن تعطى وأنت واجد وأن تأخذ وأنت فاقد ؟. إذن فهذا كله من فضل الله .

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم » إن الذين يبخلون بفضل الله يظنون أن البخل خير لمجرد أنه يكدس عندهم الأموال ، وليس ذلك صحيحاً ؛ لأن الحق يقول : « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » أى أن ما بخلوا به يصنعه الله طوقاً فى رقبة البخيل ، وساعة يرى الناس الطوق فى رقبة البخيل يقولون : هذا منع حق الله فى ماله .

والرسول صلى الله عليه وسلم يصور هذه المسألة تصويراً دقيقاً حين يبين لنا أن من يُطلب منه حق الله ولم يؤده ، يأتى المال الذى منعه وضن وبخل به يتمثل لصاحبه يوم القيامة « شجاعاً أقرع » وهو ثعبان ضخم ، ويطوق رقبته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه - يعنى شدقيه-يقول : « أنا مالُك أنا كنزك » ثم تلا قوله تعالى:« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » إلى آخر الآية[1] .

إذن فالذى يدخر بخلاً على الله فهو يزيد من الطوق الذى يلتف حول رقبته يوم القيامة .

« ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير » نعم فلله ميراث السماوات والأرض ، ثم يضعها فيمن يشاء ، فكل ما فى الكون نسبته إلى الله ، ويوزعه الله كيفما شاء . إن الإيمان يدعونا ألاّ ننتظر بالصدقة إلى حالة بلوغ الروح الحلقوم ، فقد روى عن أبى هريرة أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : « أن تصدّق وأنت صَحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت:لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان »[2] لأنه عند وصول الروح إلى الحلقوم لا يكون له مال .

قول الحق : « والله بما تعملون خبير » قضية تجعل القلب يرتجف خوفاً ورعباً ، فقد يدلس الإنسان على البشر ، فتجد من يتهرب من الضرائب ويصنع تزويراً دفترين للضرائب ، واحداً للكسب الصحيح وآخر للخسارة الخاطئة ويكون هذا المتهرب من الضرائب يملك المال ثم ينكر ذلك ، هذا الإنسان عليه أن يعرف أن الله خبير بكل ما يعمل . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ

---

(١) تفرد به البخارى دون مسلم من هذا الوجه . وقد رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة - باب أى الصدقة أفضل .

وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

روى ـ فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : قال سعيد بن جُبير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ لما نزل قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » قالت اليهود : يا محمد افتقر ربك ، فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء »[1] .

والذين عايشوا الإسلام فى المدينة كانوا من اليهود . واليهود كما نعرف كانوا يَدِلون ويفخرون على العالم بأنهم أهل كتاب وعلم ومعرفة ، ويدلون على البيئة التى عاشوا فيها أنهم ملوك الاقتصاد كما يقولون الآن عن أنفسهم . كل من يريد شيئاً يأخذه من اليهود . وكانوا يبنون الحصون ويأتون بالأسلحة لتدل على القوة . وجاء الإسلام وأخذ منهم هذه السيادات كلها ، ثم تمتعوا بمزايا الإسلام من محافظة على أموالهم وأمنهم وحياتهم .

أكان الإسلام يتركهم هكذا يتمتعون بما يتمتع به المسلمون أمناً واطمئناناً ، وسلامة أبدان وسلامة أموال ثم لا يأخذ منهم شيئاً ؟ لقد أخذ منهم الإسلام الجزية . فلم يكن من المقبول أن يدفع المسلم الزكاة ويجلس اليهود فى المجتمع الإيمانى دون أن يدفعوا تكلفة حمايتهم . ولذلك أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا بكر إلى اليهود فى المكان الذى يتدارسون فيه . فعن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال : أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله من عند الله قد جاء بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، إنه

(١) رواه ابن مردويه وابن أبى حاتم .

إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنّا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا . فغضب أبو بكر - رضى الله عنه - فضرب وجه فنحاص ضربا شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدوّ الله فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين[١] .

فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : يا محمد أبصر ما صنع بى صاحبك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر » ؟ فقال يا رسول الله : إن عدوّ الله قال قولا عظيما ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه ، فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء »[٢]

هؤلاء لم يفطنوا إلى سر التعبير الجميل فى قوله سبحانه :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ١١ سورة الحديد)

فإن هذا القول هو احترام من الحق - سبحانه - لحركة الإنسان فى التملك . لماذا احترم الله حق الإنسان فى التملك ؟ هو سبحانه يريد أن يغرى المتحرك بزيادة الحركة ، ويحمل غير المتحرك على أن يتحرك . فإن طلب سبحانه شيئاً من هذا المال فهو لا يقول للإنسان : أعطنى ما أعطيت لك . بل كأنه سبحانه يقول : إننى سأحترم عرقك ، وسأحترم حركتك ، وسأحترم فكرك ، وسأحترم جوارحك وطاقاتك وكل ما فيك ، فإن أخذتُ منك شيئاً فلن أقول لك أعطنى ما أعطيت لك ، لكن أقول لك : أقرضها لى ؛ وإن أقرضتها فسوف تقرضها لا لأنتفع بها ، ولكنها لأخيك . وقد اقترض من القادر فيها بعد وذلك لك أنت إذا أصابتك الحاجة . لماذا ؟ لأننى أنا الله الذى استدعيت خلقى إلى الوجود . ومادمت أنا الله الذى استدعيت الخلق إلى

---

(١) أكذبونا : بيّنوا وأظهروا كذبنا .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

الوجود فأرزاقهم مطلوبة منى .

إن الواحد من البشر عندما يدعو اثنين من أصدقائه فهو يصنع طعاماً يكفى خمسة أو عشرة أشخاص . ومادام الله هو الذى استدعى الخلق إلى الوجود فهو الذى يكفل لهم الرزق . وعندما يكفل لهم الرزق فلا بد أن يتحركوا . وعندما يتحركون فهو سبحانه يضمن آثار الحركة ، وذلك حتى ينال كلّ ما يرضيه ، أو على الأقل ما يكفيه من الضروريات .

ولذلك عندما جاءت آثار الحركة من المال وتدخل البشر فيها تأميماً وغير ذلك من الإجراءات قلّت الحركة . لكن الله سبحانه وتعالى يعلم حرص الإنسان على منفعة نفسه فيغريه بذلك حتى يتحرك وسينتفع المجتمع بحركته ، سواء قصد الإنسان أو لم يقصد . إذن فحين يقترض الحق سبحانه وتعالى من بعض خلقه لبعض خلقه ، فهو سبحانه لا يتراجع فيما وهب . بل يقول جل وعلا :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحديد)

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن البشر قد نضطر إلى هذا الموقف ؛ فالواحد منا عندما يعطى أبناءه مصروف اليد ، فكل ابن يدخر ما يبقى منه ، وبعد ذلك يأتى ظرف لبعض الأبناء يتطلب مالاً ليس فى مُكْنة الوالد ساعة يأتى الحدث . فيقول الوالد لأبنائه : أقرضونى ما فى « حصّالاتكم » ، وسأردها لكم مضاعفة ، هو أخذها لأخيهم ، لكن لأنه الذى وهب أولاً فلم يرجع فى الهبة ، لكنه طلبها قرضاً . وعندما يأتى أول الشهر فهو يرد القرض مضاعفاً ، فإن كان ذلك ما يحدث فى مجال البشر فما بالنا بما يحدث من الخالق الوهاب لعباده ؟ . هو سبحانه يقول : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً » .

لكن اليهودى لم يأخذ المسألة بهذا الفهم ، لكنه أخذها بغباء المادة فقال : إن الله فقير ونحن أغنياء . لذلك قال الحق سبحانه : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا » .

ولماذا يكتب الله ذلك وهو العالم بكل شيء ؟ . جاء هذا القول ليدل على التوثيق أيضاً ، فعندما يأتى هذا الرجل ليقرأ كتابه يوم القيامة يجدها مكتوبة ؛ فالكتابة لتوثيق ما يمكن أن يُنكر ـ بالبناء للمجهول ـ فإذا كان العلم من الله فقط فالعبد قد يقول :

ـ إنك يارب الذى تعاقب . فلك أن تقول ما تقول . فإذا ما كان مكتوباً عليهم ليقرأوه . فهذا توثيق لا يمكن إنكاره .

ولم يفهم ذلك اليهودى أن القرض لله هو تلطف من الحق سبحانه وتعالى واستدرار لحنان الإنسان على الإنسان . فقد شاء الحق أن يحترم أثر مجهودك وعرقك أيها الإنسان ، فإن وصلت إلى شيء من المال فهو مالك . ولم يقل الله لك : أعط أخاك ، فسبحانه وتعالى تلطفا مع خلقه يقول : أقرضنى ؛ ليضمن الإنسان أن ما أعطاه إنما هو عند ملىء . لكن أدب بنى إسرائيل مع الله مفقود ، فقد قالوا من قبل :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

وسبب ذلك أنه أصابتهم سنة وجدب . وذلك بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : « إن الله وسع على اليهود فى الدنيا حتى كانوا أكثر الناس مالا ، فلما عصوا الله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وكذبوه ضيّق الله عليهم فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، فقال فنحاص بن عازوراء ومن معه من يهود : يد الله مغلولة فأنزل الله هذه الآية . إنهم قالوا : السماء بخلت علينا ويد الله مغلولة ، فلم تعطنا رزقاً . هكذا كان اجتراؤهم فى الحديث عن الله « يد الله مغلولة » ونعرف أن « الغل » هو ربط اليدين بسلسلة .

وهاهم أولاء يجترئون مرة أخرى فيقولون : « إن الله فقير » . ويورد الحق سبحانه كل ذلك تسلية لسيدنا محمد حتى إذا ما اجترأوا عليه بكلمة أو على أصحابه باستهزاء ، فسبحانه يوضح لرسوله : أنهم لم يصنعوا ذلك معك ولا مع أتباعك ،

إن هذا هو موقفهم منى أنا . فإذا كان موقفهم وسوء أدبهم وصل بهم إلى أن يجترئوا على الذات المقدسة العليّة ، ويقولون : « إنّ الله فقير ونحن أغنياء » ويقولون : « يد الله مغلولة » . أفتحزن وتأسى على أن يقولوا لك أو لأتباعك أى شىء يسىء إليكم ؟

إنها نعمت المواساة من الله لرسوله ونعمت التسلية . ويضيف الحق : « سنكتب ما قالوا » . لماذا يكتب الله ما قالوا مع أن علمه أزلى لا يُنسى ؟

﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾

(من الآية ٥٢ سورة طه)

لقد جاءت كلمة « سنكتب » حتى لا يؤاخذهم سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقول هو إنهم فعلوه ، ولكن بما كتب عليهم وليقرأوه بأنفسهم ، وليكون حجة عليهم ، كأن الكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت وللأنفاس ، ويأتى يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب فى الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم أتستبعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لا يستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها ؟ « سنكتب ما قالوا » وهم قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » وهذا معصية فى القمة ، وتبجح على الذات العلية ، ولم يكتفوا بذلك بل قتلوا الأنبياء الذين أرسلهم الله لهدايتهم ؛ لذلك يقول الحق : « سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق » .

وعندما يأتى هذا النبأ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو تسلية له من الحق سبحانه . لقد قالوا فى ربك يا محمد ما قالوا ، وقتلوا الأنبياء إخوانك ، فإذا صنعوا معك ما صنعوا فلا تحزن فسوف يُجازَوْن على ما كتبناه عليهم بشهادة أنفسهم ، ونقول : ذوقوا عذاب الحريق . والحريق يصنع إيلاماً إحساسياً فى النفس .

والإحساس يختلف من حاسة إلى أخرى ، فمرة يكون الإحساس بالبصر ، ومرة بالأذن ، ومرة بالشم أو باللمس أو بالذوق .

والذوق هو سيد الأحاسيس ، فهو لا يضيع من أحد أبداً ، فقد نجد إنساناً أعمى ، وآخر أصم ، أو شخصاً ثالثاً أصيب بالشلل فلا تستطيع يده أن تلمس ، وقد يصاب واحد بزكام مستمر فلا يصبح قادراً على الشم ، أما الذوق فهو حاسة لا تختفى من أى إنسان ، ذلك أن الذوق أمر من داخل الذات ؛ لذلك فهو أبلغ فى الإيلام . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

انظر إلى التعبير القرآنى « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . جاء التعبير بالإذاقة ، وجاء بشىء لا يذاق وهو اللباس . وهل اللباس يذاق ؟ لا ، لكنه سبحانه يريد أن ينبه الإنسان إلى أن كل الحواس التى فيه تحس ، حتى تلك الحاسة المختفية داخل النفس ، إنَّ ذلك يَشمل كل جزء فى الإنسان .

فالإذاقة تحيط بالإنسان فى هذا التصوير البيانى القرآنى الكريم : « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . إذن فهى شدة وقع الإيلام ؛ واستيعاب العذاب المؤلم لكل أجزاء الجسم حتى صار الذوق فى كل مكان . « ذوقوا عذاب الحريق » ، والحريق هو النار القوية التى تحرق ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى عذاب الحريق . والحق سبحانه لم يظلمهم ، لكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم . « بما قدمت أيديكم » . فهل معنى ذلك أن كل المعاصى من تقديم اليد ؟ إن هناك معصية للعين ، ومعصية للسان ، ومعصية للرجل ، ومعصية للقلب ، ولا حصر للمعاصى . فلماذا إذن قال الحق : « بما قدمت أيديكم » ؟

قال الحق ذلك لأن الأعمال الظاهرة تُمارس عادة باليد ؛ فاليد هى الجارحة التى نفعل بها أكثر أمورنا ، وعلى ذلك يكون قول الحق : « بما قدمت أيديكم » مقصود به : بما قدمتم بأى جارحة من الجوارح .

وبعد ذلك يخبرنا سبحانه : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » لقد أذاقهم عذاب الحريق نتيجة ما كتبه عليهم ؛ من قول وفعل . والقول هو الافتراء باللسان حين قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » . والفعل هو قتلهم الأنبياء . فهم يستحقون ذلك العذاب .

والقضية العامة فى الإله وعدالة الإله أنه ليس بظلام للعبيد .

وهنا وقفة لخصوم الإسلام من المستشرقين ، هم يقولون : الله يقول فى قرآنهم « وأنَّ الله ليس بظلام للعبيد » ، وكلمة « ظلام » هى مبالغة فى كلمة « ظالم » ، ففيه « ظالم » وفيه « ظلّام » ، و« الظَّلّام » هو الذى يظلم ظلماً قوياً ومتكرراً ؛ فـ« ظلّام » هى صيغة مبالغة فى « ظالم » .

وحتى نرد عليهم لا بد لنا أن نعرف أن صيغ المبالغة كثيرة ، فاللغويون يعرفون أنها : فعّال ، فعيل ، مفعال ، فعول ، فَعِل ، فظلّام مثلها مثل قولنا:« أكّال » ، ومثل قولنا:« قتّال » بدلاً من أن نقول : « قاتل » فالقاتل يكون قد ارتكب جريمة القتل مرة واحدة ، لكن الـ « قتّال » هو من فعل الجريمة مرات كثيرة وصار القتل حرفته . ومثل ذلك « ناهب » ، ويقال لمن صار النهب حرفته:« نهّاب » أى أنه إن نهب ينهب كثيراً ، ويعدد النهب فى الناس .

وهذه تسمى صيغة المبالغة . وصيغة المبالغة إن وردت فى الإثبات أى فى الأمر

الموجب فهى تثبت الأقل ، فعندما يقال : « فلان ظلّام » فالثابت أنه ظالم أيضاً ، لأننا ما دمنا قد أثبتنا المبالغة فإننا نثبت الأقل . ومثل ذلك نقول : « فلان علاّم » أو « فلان علاّمة » فمعنى ذلك أن فلاناً هذا عالم . ولكن إذا قلنا : « فلان عالم » فلا يثبت ذلك أنه « علاّمة » . فصيغة المبالغة ليس معناها « اسم فاعل » فحسب ، إنها أيضاً اسم فاعل مبالغ فيه ، لأن الحدث يأتى منه قوياً ، أو لأن الحدث متكرر منه ومتعدد . فإذا ما أثبتنا صفة المبالغة فمن باب أولى تثبت صفة غير المبالغة . فإذا ما قال واحد : « فلان أكّال » فإنه يثبت لنا أنه آكل ، هذا فى الإثبات .

والأمر يختلف فى النفى . إننا إذا نفينا صفة المبالغة ، فلا يستلزم نفى الصفة الأصلية ، فإن قلت : « فلان ليس علاّمة » فقد يكون عالماً . وهكذا نفهم لأن الإثبات يختلف عن النفى . فإذا أثبتَّ صفة المبالغة تثبت الصفة التى ليس فيها مبالغة من باب أولى . أما إذا نفيت صفة المبالغة فلا يستلزم ذلك نفى الصفة الأقل .

والتذييل للآية التى نحن بصددها الآن هو « وأنَّ الله ليس بظلّام للعبيد » .

يفهم المستشرقون من هذا القول أنه مجرد نفى للمبالغة فى الظلم ، لكنها لم تنف عنه أنه ظالم ولم يفهم المستشرقون لماذا تكون المبالغة هنا : إن الحق قد قال : إنه ليس بظلاّم للعبيد ، ولم يقل إنه ليس بظلام للعبد . ومعنى ذلك أنه ليس بظلام للعبيد من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، فلو ظلم كل هؤلاء - والعياذ بالله - لقال إنه ظلام ، حتى ولو ظلم كل واحد أيسر ظلم . لأن الظلم تكرر وذلك بتكرر من ظُلِم وهم العبيد،فإن أريد تكثير الحديث فليفطن الغبى منهم إلى أن الله قال : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ولم يقل إنه ليس بظلام للعبد .

وإذا كان الظالم لا بد أن يكون أقوى من المظلوم ، إذن فكل ظلم يتم تكييفه بقوة الظالم . فلو كان الله قد أباح لنفسه أن يظلم فلن يكون ظالماً ؛ لأن عظم قوته لن يجعله ظالماً بل ظلاّما .

فإن أردنا الحدث فيكون ظلاماً ، وإن أردنا تكراراً للحدث فيكون ظلاماً . وحين

يحاول بعض المستشرقين أن يستدركوا على قول الحق : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » فهذا الاستدراك يدل على عجز فى فهم مرامى الألفاظ فى اللغة أو أنّ هؤلاء يعلمون مرامى الألفاظ ويحاولون غش الناس الذين لا يملكون رصيداً لغوياً يفهمون به مرامى الألفاظ . ولكن الله سبحانه وتعالى يُسخر لكتابه من ينبه إلى إظهار إعجازه فى آياته .

وبعد أن انتهى الحق من غزوة أُحُد ، فهو سبحانه يريد أن يقرر مبادىء يبين فيها معسكرات العداء للإسلام : معسكر أهل الكتاب ، ومعسكر مشركى قريش فى مكة ، ومعسكر المشركين الذين حول المدينة وكانوا يغيرون على المدينة .

فبعد غزوة أُحُد التى صفّت ، وربّت ، وامتحنت وابتلت ، وعرّفت الناس قضايا الدين ، أراد الحق بعدها أن يضع المبادىء .

فأوضح القرآن : ان هؤلاء أعداؤكم ؛ تذكروهم جيداً ، قالوا فى ربكم كذا ، ويقولون فى رسولكم كذا ، وقتلوا أنبياءكم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣ ﴾

هم يدّعون ذلك ويقولون : ربنا قال لنا هذا فى التوراة ؛ إياكم أن تؤمنوا برسول

يأتيكم ، حتى يأتيكم بمعجزة محسة ، هذه المعجزة الـمُحسّة هى أن يقدم الرسول قرباناً فتنزل نار من السماء تأكله .

هذا كان صحيحاً ، وكلنا نسمع قصة قابيل وهابيل :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ
مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ
يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ونريد أن نقبل على القرآن ونتدبر : لماذا جاء هذا اللفظ : « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الأخر » ؟ إن القبول من الله ، وهو مسألة سرية عنده ، فكيف نعرف نحن أن الله تقبل أو لم يتقبل ؟ لا بد أنه الله قد جعل للقبول علامة حسية . ونحن نعرف أن الإنسان قد يعمل عملاً فيقبله الله ، ونجد إنساناً آخر قد يعمل عملاً ولا يقبله الله والعياذ بالله ، فمن الذى أعلمنا أن الله قد قبل عمل إنسان وقربانه ، ولم يقبل عمل الأخر وقربانه ؟ .

وبما أن القبول سر من أسرار الله إذن فلن نعرف علامة القبول إلا إذا كانت شيئاً محساً ، بدليل قوله : « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الأخر » . وقال الذى لم يتقبل الله قربانه : « لأقتلنك » كأن الذى قبل الله قربانه قد عرف ، والذى لم يتقبل الله قربانه قد عرف أيضاً ، إذن فلا بد أن هناك أمراً حسياً قد حدث .

وقلنا : إن الله كان يخاطب خلقه على قدر رشد عقولهم حساً ومعنى ؛ ولذلك كانت معجزاته سبحانه وتعالى للأنبياء السابقين لرسول الله هى من الأمور الـمُحسة . فالمعجزة التى آتاها الله لإبراهيم كانت نارا لا تحرق ، وعصا سيدنا موسى تنقلب حية ، وسيدنا عيسى عليه السلام يبرىء الأكمه والأبرص ويُحيى الموتى بإذن الله . والمعجزة الحسية لها ميزة أنها تقنع الحواس ، ولكنها تنتهى بعد أن تقع لمرة واحدة . لكن المعجزة العقلية التى تناسب رشد الإنسانية ، هى المعجزة الباقية ،

وحتى تظل معجزة باقية فلا يمكن أن تكون حسية .

إذن، فعندما تأتى معجزة خالدة لرسول هو خاتم الرسل ، والذى سوف تقوم القيامة على المنهج الذى جاء به ، هذه المعجزة لا بد أن تكون ذات أمد ممتدّ ، والامتداد يناقض الحسّية ؛ لأن الحسّية تظل محصورة فيمن رآها ، والذى لم يرها لا يقولها ولا يؤمن بها إلا إذا كان على ثقة عظيمة بمن أخبره بها . وابنا آدم ، قابيل وهابيل قرّب كل منهما قربانا .

و« قُربان » مثلها فى اللغة مثل « غفران » و« عُدوان » والقُربان هو شىء أو عمل يتقرب به العبد من الله . وقبول هذا العمل من البر هو سرّ من أسرار الله . فما الذى أدرى هؤلاء أن قربان هابيل قد تقبّله الله ولم يتقبّل الله قربان قابيل ؟ لا بد أن تكون المسألة حسّية . ولا بد أن قابيل وهابيل قد اختلفا ، ولكن القرآن لم يقل لنا على ماذا اختلفا ، إنها دعوى أن واحداً منهما مُقرّب إلى الله أكثر ، ولكن بأى شكل ؟ لم يظهر القرآن لنا ذلك ، ولو كانت المسألة مهمة لأظهرها الله لنا فى القرآن الكريم ، فلا تقل كان الخلاف على زواج أو غير ذلك . فالذى ظهر لنا من القرآن أن خلافاً قد وقع بينهما أو أنهما قد حكّما السماء . ومبدأ تحكيم السماء لا يستطيع أحد أن ينقضه . وكان لكل واحد منهم شُبهة . وعندما قامت الشبهة التى لقابيل ضد الشبهة التى لهابيل ، فلا إقناع من صاحب شبهة لصاحب شبهة ، ولذلك ذهبا إلى التحكيم .

ونحن فى عصرنا الحديث عندما نختلف على شىء فإننا نقول : نجرى قرعة . وذلك حتى لا يرضخ إنسان لهوى إنسان آخر ، بل يرضخ الاثنان للقدر ، فيكتب كل منهما ورقة ثم يتركان ثالثا يجذب إحدى الورقتين . أما هابيل وقابيل فيذكر القرآن الكريم : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » .

إذن فكل واحد منهما كانت له شبهة ، ولا أحد منهما بقادر على إقناع الثانى ؛ لذلك قال قابيل بعد أن قبل الله قربان هابيل : « لأقتلنك » فماذا قال هابيل ؟. قال : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

إذن فالذى يتقبل الله منه القربان هو الذى سيُقتل . والذى يملأه الغيظ هو من لم يتقبل الله قربانه ، وهو الذى سوف يَقْتل . فماذا قال صاحب القربان المقبول :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن فهذا أهل لأن يتقبّل الله قربانه ، لأنه متيقظ الضمير بمنهج السماء ، وهذه حيثية لتقبل القربان .

وحتى لا نظن أن الآخر « قابيل » كله شر لمجرد أن الشهوة سيطرت عليه ، لكن الحق يظهر لنا أن فيه بعض الخير ، ودليل ذلك قول الحق :

﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهذا القول يدل على أنه تردد ، فلا يقال : « طوّعت الماء » ، ولكن يقال « طوّعت الحديد » ، فكأن الإيمان كان يعارض النفس ، إلا أن النفس قد غلبت وطوّعت له قتل أخيه . وعندما قتل قابيل أخاه وهدأت شرّة الغضب وسُعار الانتقام ، رأى أخاه مُلقى فى العراء :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وعلى هذا النسق قال اليهود : إن الله أوصانا ألا نؤمن برسول إلا بعد أن يأتى بمعجزة من الـمُحسّات . لماذا قالوا ذلك ؟ . قالوا ذلك لأن معجزة رسول الله الكبرى وهى القرآن الكريم لم تكن من ناحية المحسّات وانتهى عهد الإعجاز بالمحسّات فقط ، فرسولنا له معجزات حسية كثيرة ، ونظرا لأن هذه ينتهى إعجازها بانقضائها فكان القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة وهو الذى يناسب الرسالة

الخاتمة ، فهم طلبوا أن تكون المعجزة بالمحسّات حتى يصنعوا لأنفسهم شبه عذر فى أنهم لم يؤمنوا ، فقالوا ما أورده القرآن :

« الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا » . . إلخ .

وعلمنا الحق فى هذه الآية أن القربان تأكله النار ، ومن هذا نستنبط كيف تقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل ، لكى نفهم أن القرآن لا يوجد به أمر مكرر . والحق سبحانه يرينا ردوده الإلهية المقنعة الممتعة :

« قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم . . » إلخ الآية .

لقد جاءكم رسل قبل رسول الله بالقربان وأكلته النار ومع ذلك كفرتم . فلو كان كلامكم أيها اليهود صحيحاً ، لكنتم آمنتم بالرسل الذين جاءوكم بالقربان الذى أكلته النار . وهكذا يكشف لنا الحق أنهم يكذبون على أنفسهم ويكذبون على رسول الله ، وأنها مجرد « مماحكات » ولجاج وتمادٍ فى المنازعة والخصومة .

والحق سبحانه يأمر رسوله أن يسأل : « فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين » ؟

هو سبحانه يريد أن يضع لنا قضية توضح أن عهد المعجزات الحسّية وحدها قد انتهى ، ورُشد الإنسانية وبلوغ العقل مرتبة الكمال قد بدأ ؛ لذلك أتى سبحانه بآية عقلية لتظلّ مع المنهج إلى أن تقوم الساعة . ولو كانت الآية حسّية لاقتصرت على المعاصر الذى شهدها وتركت من يأتى بعده بغير معجزة ولا برهان . أما مجىء المعجزة عقلية فيستطيع أى واحد مؤمن فى عصرنا أن يقول : سيدنا محمد رسول الله وتلك معجزته . ولكن لو كانت المعجزة حسّية وكانت قرباناً تأكله النار ، فما الذى يصير إليه المؤمن ويستند إليه من بعد ذلك العصر ؟

إن الحق يريد أن يعلمنا أن الذى يأتى بالآيات هو سبحانه ، وسبحانه لا يأتى بالآيات على وفق أمزجة البشر ، ولكنه يأتى بالآيات التى تثبت الدليل ؛ لذلك فليس للبشر أن يقترحوا الآية . هو سبحانه الذى يأتى بالآية ، وفيها الدليل . لماذا ؟

لأن البعض قد قال للرسول :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن
نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ
عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ
أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ
سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لقد كانت كل هذه آيات حسّية طلبوها ، والله سبحانه وتعالى يرد على ذلك حين قال لرسوله : إن الذى منعه من إرسال مثل هذه الآيات هو تكذيب الأولين بها :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فحتى هؤلاء الذين قالوا : لن نؤمن حتى تأتى بقربان تأكله النار قد جاءهم من قبل من يحمل معجزة القربان الذى تأكله النار ، ومع ذلك كذبوا ، إذن فالمسألة مماحكة ولجاج فى الخصومة . ويُسلّى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتسلية الله لرسوله هنا تسلية بالنظير والمثل فى الرسل . كأن الحق يوضح : إن كانوا قد كذبوك فلا تحزن ؛ فقد كذبوا من قبلك رسلاً كثيرين ، وأنت لست بِدعاً من الرسل .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ
جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

ويتسامى الحق سبحانه وتعالى بروح سيدنا رسول الله إلى مرتبة العلو الذى لا يرقى إليه بشر سواه ، فيقول :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنعام)

فالمسألة ليست مسألتك أنت إنهم يعرفون أنك يا محمد صادق لا تكذب أبداً « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » . أى هذا الأمر ليس خاصا بك بل هو راجع إلىّ فلا أحد يقول عنك إنك كذّاب هم يكذبوننى ، الظالمون يجحدون وينكرون آياتى فالحق سبحانه يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم هنا للتسلية ويعطيه الأسوة التى تجعله غير حزين مما يفعله اليهود والمكذبون به فيقول :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ونعرف أن الشرط سبب فى وجود جوابه . فإذا كان الجواب لم يأت فالشرط هو الذى يجعله يأتى ، وإذا كان الجواب قد حصل قبل الشرط فما الحال ؟. الحق يوضح : إن كذبوك يا محمد فقد كذبوا رسلاً من قبلك . أى أن « جواب الشرط » قد حصل هنا قبل الشرط وهذه عندما يتلقفها واحد من السطحيين أدعياء الإسلام ، أو من المستشرقين الذين لا يفهمون مرامى اللغة فمن الممكن أن يقول :

إن الجواب فى هذه الآية قد حصل قبل الشرط . وهنا نرد عليه قائلين : أقوله تعالى : « فقد كذب رسل من قبلك .. » هو جواب الشرط .. أم هو دليل الجواب ؟ لقد جاء الحق بهذه الآية ليقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

فإن كذبوك فلا تحزن ، فقد سبقك أن كَذّب قوم رسلَهم . إنها علة لجواب الشرط ، كأنه يقول :

فإن كذبوك فلا تحزن . إذن فمعنى ذلك أن المذكور ليس هو الجواب ، إنما هو

الحيثية للجواب « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات » .. إلخ .

وعندما نقول : « جاءنى فلان بكذا » فقد يكون هو الذى أحضره ، وقد يكون هو مجرد مصاحب لمن جاء به .

ولنضرب هذا المثل للإيضاح ـ ولله المثل الأعلى ـ فلنفترض أن موظفاً أرسله رئيسه بمظروف إلى إنسان آخر ، فالموظف هو المصاحب للمظروف .

إذن فالبينات جاءت من الله ، لكن هؤلاء الرسل جاءوا مصاحبين ومؤيَّدين بالبينات كى تكون حُجة لهم على صدق بلاغهم عن الله ، « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات » . أى جاءوا بالآيات الواضحة الدلالة على المراد . والآيات قد تكون لفتاً للآيات الكونية ، وقد تكون المعجزات .

ونعلم أن كل رسول من الرسل الذين سبقوا سيدنا رسول الله كانت معجزتهم منفصلة عن منهجهم ، فالمعجزة شىء وكتاب المنهج شىء آخر . « صحف إبراهيم » فيها المنهج لكنها ليست هى المعجزة؛ فالمعجزة هى الإحراق بالنار والنجاة، وموسى عليه السلام معجزته العصا وتنقلب حية ، وانفلاق البحر ، لكن كتاب منهجه هو « التوراة » ، وعيسى عليه السلام كتاب منهجه « الإنجيل » ومعجزته العلاج وإحياء الموتى بإذن الله ، إذن فقد كانت المعجزة منفصلة عن المنهج ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن معجزته هى عين منهجه ، معجزته القرآن ، ومنهجه فى القرآن ، لماذا ؟

لأنه جاء رسولاً يحمل المنهج المكتمل وهو القرآن الكريم ، ومع ذلك فهو صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم ، فلا بد أن تظل المعجزة مع المنهج ؛ كى تكون حُجة ، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « جاءوا بالبينات » : أى المعجزات الدالات على صدقهم . « والزبر والكتاب المنير » أى الكتب التى جاءت بالمنهج ، فهم يحتاجون إلى أمرين اثنين : منهج ومعجزة .

و« البينات » هى المعجزة أى الأمور البينة من عند الله وليست من عند أى واحد

منهم ، ثم جاء « المنهج » فى « الزُّبُر والكتاب المنير » . ومعنى « الزِبْر » : الكتاب ، ومادام الشيء قد كُتِب فقد « زبره » أى كَتَبَهُ ، وهذا دليل على التوثيق أى مكتوب فلا ينطمس ولا يمحى فالزُّبر الكتابة ، و« الزِّبْرُ » تعنى أيضا الوعظ ؛ لأنه يمنع الموعوظ أن يصنع ما عظم أى يمتنع عن الخطأ وإتيان الانحراف ، و« الزِّبْرُ » أيضا تعنى العقل ؛ لأنه يمنع الإنسان من أنْ يرد موارد التهلكة .

والذين يريدون أن يأخذوا العقل فرصة للانطلاق والانفلات ، نقول لهم : افهموا معنى كلمة « العقل » ، معنى العقل هو التقييد ، فالعقل يقيدك أن تفعل أى أمر دون دراسة عواقبه . والعقل من « عَقَلَ » أى ربط ، كى يقال هذا ، ولا يقال هذا ، ويمنع الإنسان أن يفعل الأشياء التى تؤخذ عليه . و« الزبر » أيضاً : تحجير البئر ؛ فعندما نحفر البئر ليخرج الماء ، لا نتركه . بل نصنع له حافة من الحجر ونبنيه من الداخل بالحجارة . كى لا يُردم بالتراب وكل معانى الزبر ملتقية ، فهو يعنى : المكتوبات ، والمكتوبات لها وصف ، إنّها منيرة ، وهذه الإنارة معناها أنها تبين للسالك عقبات الطريق وعراقيله ، كى لا يتعثر .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يسلّى رسوله صلى الله عليه وسلم ويوضح له : لا تحزن إن كذبوك ؛ فقد كذب رسل من قبلك ،والرسل جاءوا بالمنهج وبالمعجزة ، وبعد أن يعطى الله للمؤمنين ولرسول الله مناعة ضد ما يذيعه المرجفون من اليهود وضد ما يقولون ، وتربية المناعة الإيمانية فى النفس تقتضى أن يخبرنا الله على لسان رسوله بما يمكن أن تواجهه الدعوة ؛ حتى لا تفجأنا المواجهات ويكشف لنا سبحانه بما سيقولون . وبما سيفعلونه .

ونحن نفعل ذلك فى العالم المادى : إذا خفنا من مرض ما كالكوليرا ـ مثلاً ـ ماذا نفعل ؟ نأخذ الميكروب نفسه ونُضْعِفُه بصورة معينة ثم نحقن به السليم ؛ كى نربى فيه مناعة حتى يستطيع الجسم مقاومة المرض .

ثم بعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى بقضية إيمانية يجب أن تظل على بال المؤمن دائماً . هذه القضية : إن هم كذبوك فتكذيبهم لا إلى خلود ؛ لأنهم سينتهون

بالموت ، فالقضية معركتها موقوتة ، والحساب أخيراً عند الحق سبحانه ، ولذلك يقول :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

ونلاحظ أن كلمة « ذائقة » جاءت أيضاً هنا ، وتعرف أن هناك « قتلا » وهناك « موتا » ، فالموت معناه أعم وهو : انتهاء الحياة سواء أكان بنقض البنية مثل القتل ، أم بغير نقض البنية مثل خروج الروح وزهوقها حتف الأنف ، ولذلك فالعلماء الذين يدققون فى الألفاظ يقولون : هذا المقتول لو لم يُقتل ، أكان يموت ؟ نقول : نعم ؛ لأن المقتول ميت بأجله ، لكن الذى قتله هل كان يعرف ميعاد الأجل ؟ لا . إذن فهو يُعاقب على ارتكابه جريمة إزهاق الروح ، أمّا المقتول فقد كتب الله عليه أن يفارق الحياة بهذا العمل .

إذن فكل نفس ذائقة الموت إما حتف الأنف وإمّا بالقتل . ولأن الغالب فى المقتولين أنهم شهداء ، والشهداء أحياء ، لكن الكل سيموت . يقول تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الزمر)

انظروا إلى دقة العبارة : « وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » أى إياكم أن تنتظروا نتيجة إيمانكم فى هذه الدنيا ، لأنكم إن كنتم ستأخذون على إيمانكم ثوابا فى الدنيا

فهذا زمن زائل ينتهى ، فثوابكم على الإيمان لا بد أن يكون فى الآخرة لكى يكون ثوابا لا ينتهى .

ونعرف ما حدث فى بيعة العقبة الثانية ؛ حينما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار عهوداً ، قالوا : فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ لم يقل لهم صلى الله عليه وسلم ستنتصرون أو ستملكون الدنيا ، بل قال : « الجنة » قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه ، فلو وعدهم بأى شيء فى الدنيا لقال له أى واحد فطن منهم : ما أهونها ، ولذلك عندما قال واحد لصاحبه : أنا أحبك قدر الدنيا ، فقال له : وهل أنا تافه عندك لهذه الدرجة ؟.

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إياكم أن تفهموا أن جزاء الإيمان يكون فى الدنيا ؛ لأنه لو كان فى الدنيا لكان زائلاً ولكان قليلا كجزاء على الإيمان ، لأن الإيمان وصل بغير منتهٍ وهو الله ، فلا بد أن يكون الجزاء غير منتهٍ وهو الجنة ، فقال : « وإنما توفون أجوركم » . . وأخذ أهل اللمح من كلمة « توفون » أن هناك مقدمات ؛ لأن معنى « وفيته أجره » أى أعطيته وبقى له حاجة وأكمل له ، نعم هو سبحانه يعطيهم حاجات إيمان ، ويكفى إشراقة الإيمان فى نفس المؤمن ، فالجواب لا بد أن يكون متمشياً مع منطق من يسمع هذه الآية ؛ فقد يموت من يسمعها بعد قليل فى معركة ، وما دام قد مات فى معركة فهو لم ير انتصاراً ، ولم ير غنائم ولا أى شيء ، فماذا يكون نصيبه ؟ إنه يأخذ نصيبه يوم القيامة « توفون » فمن نال منها شيئاً فى الدنيا بالنصر ، بالغنائم ، بالزهو الإيمانى على أنه انتصر على الكفر فهذا بعض الأجر ، إنما الوفاء بكامل الأجر سيكون فى الآخرة ، لأن كلمة التوفية تفيد أن توفية الأجور وتكميلها يكون فى يوم القيامة ، وأن ما يكون قبل ذلك فهو بعض الأجور التى يستحقها العاملون .

ويقول الحق : « فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرأوا إن شئتم : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز »[1]

---

(١) رواه ابن أبى حاتم ، ورواه البخارى ومسلم من غير هذا الوجه وبدون هذه الزيادة وأبو حاتم وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه

وعندما تقول : زحزحت فلاناً ، معناها أنه كان متوقفا برعب ، فكيف يحدث ذلك عند النار ؟. نعرف أن النار سببها المعصية ، والمعصية كانت لها جاذبية للعصاة ، ويأتى الإيمان ليشدهم فتأخذهم جاذبية المعصية ، فكذلك يكون الجزاء بالنار . إذن فالنار لها جاذبية لأنها ستكون فى حالة غيظ . . ولذلك يقول ربنا :

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾

(من الآية ٨ سورة الملك)

النار تتميز من الغيظ على الكافرين . وما معنى تميز من الغيظ ؟ أما رأيت قدْراً يفور ؟ ساعة يفور القدر فإن بعض الفقاقيع تخرج منه وتنفصل عما فى القدر ، وهذا « تميز » أى تفترق ، والإنسان منا عندما يكون فى حالة غيظ تخرج منه أشياء كفقاقيع غليان القدر إنه يرغى ويزبد أى اشتد غضبه ، هذه الفقاقيع تحرق من يقف أمامها أو يلمسها ، وهى من شدة الفوران تميز بعضها وانفصل عن القدر ، كذلك النار ، ولماذا تميز من الغيظ ؟ إنها تميز من الغيظ من الكافرين ؛ لأنها أصلها مُسبّحة حامدة شاكرة ، وبعد ذلك يقول لها الحق :

﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ وتقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة ق)

وذلك مما يدل على أن كلمة : « تميز من الغيظ » حقيقة ؛ ولذلك يبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النار لها جاذبية ، فالنار إنما كانت نتيجة المعصية فى الدنيا ، والمعصية فى الدنيا هى التى تجذب العصاة ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك : (مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الفراش والجنادب يَقعْن فيها وهو يذبّهنّ عنها ، وأنا آخذ بِحُجَزكم عن النار وأنتم تَفَلّتون من يدى)[1] انظر إلى التشبيه الجميل ـ حين توقد ناراً فى خلاء فأول مظهر هو أن ترى الفراش والهوامّ والبعوض تأتى على النار ، ولذلك يقولون : رُبّ نفس عشقت مصرعها .

لقد جاءت تلك الحشرات على أساس أنها جاءت للنور ، إننا نرى ذلك عندما نُشعِل موقداً فى الخلاء فأنت تجد حوله الكثير من هذه الحشرات صرعى ، تلك

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن جابر .

الحشرات عشقت مصرعها ، إنها قد جاءت إلى النور ولكن النار أحرقتها ، كذلك الإنسان العاصى يعشق مصرعه ؛ لأنه لا يعرف أن هذه الشهوة ستدخله النار .

« فمن زُحزح عن النار » أى أن النار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخذ الإنسان ، ومجرد الزحزحة عن النار ، حتى وإن وقف بينهما لا فى النار ولا فى الجنة فهذا حسن ، فما بالك إنْ زُحزح عن النار وأدخل الجنة ؟ لقد زال منه عطب وأعطى صالحاً . وهذه حاجة حسنة ، وهذا هو السبب فى أن النار مضروب على متنها الصراط الذى سنمر عليه ، لماذا ؟ حتى يرى المؤمن النار . . وهو ماشٍ على الصراط التى لو لم يكن مؤمناً لنزل فيها ، فيقول : الحمد لله الذى نجانى من تلك النار .

« فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » والفوز هو النجاة مما تكره ، ولقاء ما تحب ، مجرد النجاة مما تكره نعمة ، وأن تذهب بعد النجاة مما تكره إلى نعمة ، فهذا فوز . ونلحظ فى « زُحزح » أن أحداً غيره قد زحزحه . نعم لأنّ الله تكرّم عليه أولاً فى حياته بفيض الإيمان وهو الذى زحزحه عن النار أيضا .

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وعندما يصف الحق سبحانه الحياة التى نعرفها بأنها « دنيا » ففى ذلك ما يشير إلى أن هناك حياة توصف بأنها « غير دنيا » وغير الدنيا هى « العليا » ، ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

أى هى الحياة التى تستحق أن تُسمّى حياة ؛ لأن الدنيا لا يقاس زمانها ببدايتها إلى قيام الساعة ، لأن تلك الحياة بالنسبة للكون كله ، ولكن لكل فرد فى الحياة دنيا ليس عمرها كذلك ، وإنما دنيا كل فرد هى مقدار حياته فيها . ومقدار حياته فيها لا يُعلم أهو لحظة أم يوم أم شهر أم قرن . وقصارى الأمر أنها محدودة حداً خاصا لكل عمر ، وحداً عاما لكل الأعمار .

والمتعة فى الدنيا على قدر حظ الإنسان فى المتع ، فهى على قدر إمكاناته . فإذا نظرنا إلى الدنيا بهذا المعيار فإن متاعها يعتبر قليلاً ، ولهذا لا يصح ولا يستقيم أن يغتر الإنسان بهذه المتعة متذكراً قول الله :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة العلق)

فالغرور إذن أن تلهيك متعة قصيرة الأجل عن متعة عالية لا أمد لانتهائها ، فحتى لا يغتر عائش فى الدنيا فيلهو بقليلها عن كثير عند الله فى الآخرة يجب أن يقارن متعة أجلها محدود وإن طال زمانها بمتعة لا أمد لانتهائها ، متعة على قدر إمكاناتك ومتعة على قدر سعة فضل الله ؛ لذلك كانت الحياة الدنيا متاع غرور ممن غُرّ بالتافه القليل عن العظيم الجليل .

والله لم يظلم الدنيا فوصفها أنها متاع ، ولكن نبهنا إلى أنها ليست المتاع الذى يُغترّ به فيلهى عن متاع أبقى ، إنه الخلود . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ولأتباع رسوله قضية تنشىء فيهم وتؤكد لهم أن الإيمان وحده خير جزاء للمؤمن ، وإن لم يتأت له فى الدنيا شىء من النعيم ، ولذلك أراد أن يوطنهم على أن الذين يدخلون الإيمان ، لا يوطّنون أنفسهم على أن الإيمان دائماً منتصر ، فلو كان دائماً منتصراً لوطّن كل واحد نفسه عليه ورضيه لأنه يضمن له حياة مطمئنة ؛ لذلك كان لا بد أن يوضح لهم : أن هناك ابتلاءات . فالقضية الإيمانية أن تبتلوا ، وموقع البلاء فى نفوسكم أو فى أموالكم ، فقال :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾

والبلاء فى المال بماذا ؟ بأن تأتى آفة تأكله ، وإن وجد يكون فيه بلاء من لون آخر ، وهى اختبارك هل تنفق هذا المال فى مصارف الخير أو لا تعطيه لمحتاج ، فمرة يكون الابتلاء فى المال بالإفناء ، ومرة فى وجود المال ومراقبة كيفية تصرفك فيه ، والحق فى هذه الآية قدم المال على النفس ؛ لأن البلاء فى النفس يكون بالقتل ، أو بالجرح ، أو بالمرض . فإن كان القتل فليس كل واحد سيقتل ، إنما كل واحد سيأتيه بلاء فى ماله .

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » هما إذن معسكران للكفر : معسكر أهل الكتاب ، ومعسكر المشركين . هذان المعسكران هما اللذان كانا يعاندان الإسلام ، والأذى الكثير تمثل فى محاولة إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأذى الاستهزاء بالمؤمنين ، وأهل الكفر والشرك يقولون للمؤمنين ما يكرهون ، فوطّنوا العزم أيها المسلمون أن تستقبلوا ذلك منهم ومن ابتلاءات السماء بالقبول والرضا .

ويخطىء الناس ويظنون أن الابتلاء فى ذاته شرّ ، لا . إن الابتلاء مجرد اختبار ، والاختبار عرضة أن تنجح فيه وأن ترسب ، فإذا قال الله : « لتبلون » ، أى سأختبركم ـ ولله المثل الأعلى ـ كما يقول المدرس للتلميذ : سأمتحنك « فنبتليك » يعنى نختبرك فى الامتحان ، فهل معنى ذلك أن الابتلاء شرّ أو خير ؟ . إنه شرّ على من لم يتقن التصرف . فالذى ينجح فى البلاء فى المال يقول : كله فائت ، وقلل الله مسئوليتى ، لأنه قد يكون عندى مال ولا أحسن أداءه فى مواقعه الشرعية ، فيكون المال علىّ فتنة . فالله قد أخذ منى المال كى لا يدخلنى النار ، ولذلك قال فى سورة « الفجر » :

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾

(سورة الفجر)

فهنا قضيتان اثنتان : الإنسان يأتيه المال فيقول : ربى أكرمنى ، وهذا أفضل ممن جاء فيه قول الحق :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

إذن فالذى نظر إلى المال وظن أنّ الغنى إكرام ، ونظر إلى الفقر والتضييق وظن أنه إهانه ، هذا الإنسان لا يفطن إلى الحقيقة ، والحقيقة يقولها الحق: « كلا » أى أن هذا الظن غير صادق ؛ فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة ، ولكن متى يكون المال دليل الكرامة ؟ يكون المال دليل كرامة إن جاءك وكنت موفقاً فى أن تؤدى مطلوب المال عندك للمحتاج إليه ، وإن لم تؤد حق الله فالمال مذلة لك وإهانة ، فقد أكون غنياً لا أعطى الحق ، فالفقر فى هذه الحالة أفضل ، ولذلك قال الله للاثنين : « كلا » ، وذلك يعنى : لا إعطاء المال دليل الكرامة ولا الفقر دليل الإهانة .

وأراد سبحانه أن يدلل على ذلك فقال :

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) ﴾

(سورة الفجر)

« كلا بل لا تكرمون اليتيم » ومادمتم لا تكرمون اليتيم فكيف يكون المال دليل الكرامة ؟ إن المال هنا وزر ، وكيف إن سلبه منك يا من لا تكرم اليتيم يكون إهانة ؟ . إنه سبحانه قد نزهك أن تكون مهانا ، فلا تتحمل مسئولية المال . إذن فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة .

« كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » وحتى إن كنت لا تمتلك ولا تعطى أفلا تحث من عنده أن يُعطى ؟ أنت ضنين حتى بالكلمة ، فمعنى تحض على طعام المسكين . أى تحث غيرك .. فإذا كنت تضن حتى بالنصح فكيف تقول إن المال كرامة والفقر إهانة ؟ . . « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لمّاً » أى تأكلون الميراث وتجمعون فى أكلكم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم دون أن يتحرّى الواحد منكم هل هذا المال حلال أو حرام . . فإذا كانت المسألة هكذا فكيف يكون إيتاء المال تكريماً وكيف يكون الفقر إهانة ؟ . . لا هذا ولا ذاك .

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » والذى يقول هذا الكلام : هو الله ، إذن لا بد أن يتحقق ـ فيارب أنت قلت لنا : إن هذا سيحصل وقولك سيتحقق ، فماذا أعطيتنا لنواجه ذلك ؟ـ اسمعوا العلاج : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » . . تصبر على الابتلاء فى المال ، تصبر على الابتلاء فى النفس ، تصبر على أذى المعسكر المخالف من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا ، إن صبرت فإن ذلك من عزم الأمور ، والعزم هو : القوة المجتمعة على الفعل . فأنت تنوى أن تفعل ، وبعد ذلك تعزم يعنى تجمع القوة ، فقوله : « فإن ذلك من عزم الأمور » أى من معزوماتها التى تقتضى الثبات منك ، وقوة التجميع والحشد لكل مواهبك لتفعل .

إذن فالمسألة امتحان فيه ابتلاء فى المال ، وابتلاء فى النفس وأذى كثير من الذين أشركوا ومن الذين أوتوا الكتاب ، وذلك كله يحتاج إلى صبر ، و« الصبر » ـ كما قلنا ـ نوعان : « صبر على » و« صبر عن » ، ويختلف الصبر باختلاف حرف الجر ، صبر عن شهوات نفسه التى تزين للإنسان أن يفعل هذه وهذه ، فيصبر عنها ، والطاعة تكون شاقة على العبد فيصبر عليها ، إذن ففى الطاعة يصبر المؤمن على المتاعب ، وفى المعصية يصبر عن المغريات .

و« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم » توضح أنه لا يوجد لك غريم واضح فى الأمر ، فالآفة تأتى للمال ، أو الآفة تأتى للجسد فيمرض ، فليس هنا غريم لك قد تحدد ،

ولكن قوله : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » فهذا تحديد لغريمك لك . فساعة ترى هذا الغريم فهو يهيج فيك كوامن الانتقام . فأوضح الحق : إياك أن تمكنهم من أن يجعلوك تنفعل ، وأَجِّلْ عملية الغضب ، ولا تجعل كل أمر يَسْتَخِفّك . بل كن هادئا ، وإياك أن تُسْتَخَفَّ إلا وقت أن تتيقن أنك ستنتصر ، ولذلك قال : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

واتقوا مثل « اتقوا الله » أى اتقوا صفات الجلال وذلك بأن تضع بينك وبين ما يغضب الله وقاية . عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة ببنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مرّ على مجلس فيه عبدالله بن أبى بن سلول وذلك قبل أن يسلم ابن أُبَىّ ، وإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين وفى المجلس عبدالله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خَمَّر عبدالله بن أبى أنفه بردائه وقال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن فقال عبدالله بن أبى : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تُؤْذنا فى مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبدالله بن رواحة رضى الله عنه : بلىْ يا رسول الله فاغشنا به فى مجالسنا فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبى صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب النبى صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يا سعد » ألم تسمع إلى ما قاله أبو حباب » ؟ يريد عبدالله بن أبى ، قال : كذا وكذا فقال سعد : يا رسول الله اعفُ عنه واصفح فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله شرق بذلك ، فذلك الذى فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

(١) رواه البخارى فى صحيحة عند تفسير هذه الآية

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

ونعرف - من قبل - أن الله قد أخذ عهداً وميثاقاً على كل الأنبياء أن يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام فى قوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ونأتى هنا إلى عهد وميثاق أخذه الله على أهل الكتاب الذين آمنوا بأنبيائهم ، هذا العهد هو : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » .

فما الذى يبينونه ؟ وما الذى يكتمونه ؟

وهل هم يكتمون الكتاب ؟ نعم لأنهم ينسون بعضا من الكتاب ، وما داموا ينسون بعضاً من الكتاب فمعنى ذلك أنهم مشغولون عنه :

﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

والذى لم ينسوه من المنهج ، ماذا فعلوا به ؟:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) ﴾

(سورة البقرة)

لقد كتموا البينات التى أنزلها الله فى الكتاب ، فالكتم عملية اختيارية ، أما النسيان فقد يكون لهم العذر أنهم نسوه ، لكنهم يتحملون ذنباً من جهة أخرى ، إذ لو كان المنهج على بالهم وكانوا يعيشون بالمنهج لما نسوه . والذى لم ينسوه كتموا بعضه ، والذى لم يكتموه لووا به ألسنتهم وحرّفوه .

وهل اقتصروا على ذلك ؟ لا . بل جاءوا بشيء من عندهم وقالوا : هو من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾

(سورة البقرة)

وقولهم : « هذا من عند الله » ما يصح أن يقال إلا لبلاغ صادق عن الله ، وكلمة « ليشتروا به ثمناً قليلا » لا بد أن توسع مدلولها قليلاً ، ولها معنى عام ، ونحن نعرف أن الثمن نشترى به ، فكيف تشترى أنت الثمن ؟ أنت إذن جعلت الثمن سلعة ، وما دام الثمن يُجعل سلعة فيكون ذلك أول مخالفة لمنطق المبادلة ؛ لأن الأصل فى الأثمان أن يُشترى بها ، أصل المسألة أنّ نَعْت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موجوداً عندهم فى الكتب ثم أنكروه .

﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن فقوله : « لتبيننه » يعني لتبينن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما هو موجود عندكم دون تغيير أو تحريف ، وعندما يبينون أمر الرسول بأوصافه ونعوته فهم يبينون ما جاء حقاً في الكتاب الذي جاءهم من عند الله . وهكذا نجد أن المعاني تلتقي ، فإن بينوا الكتاب الذي جاء من عند الله ، فالكتاب الذي جاء من عند الله فيه نعت محمد ، وهكذا نجد أن معنى تبيين الكتاب ، وتبيين نعت رسول الله بالكتاب أمران ملتقيان .

« لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم » يقال : نبذت الشيء أي طرحته بقوة ، وذلك دليل على الكراهية ؛ لأن الذي يكره شيئاً يحب أن يقصر أمد وجوده ، ومثال ذلك : لنفترض أن واحداً أعطى لآخر حاجة ثم وجدها جمرة تلسعه ، ماذا يفعل ؟ هو بلا شعور يلقيها بعيداً . والنبذ له جهات ، ينبذه يمينه ، ينبذه أمامه ، ينبذه شماله،أما إذا نبذه خلفه ، فهذا دليل على أنه ينبذه نبذة لا التفات إليها أبداً ، انظر التعبير القرآني « فنبذوه وراء ظهورهم » .

إن النبذ وحده دليل الكراهية لوجود الشيء الذي يبغضه ، إمعان في الكراهية والبغض ، فلو رمى إنسان شيئاً أمامه فقد يحن له عندما يراه أو يتذكره ، لكن إن رماه وراء ظهره فهذا دليل النبذ والكراهية تماما ، ولذلك يقولون : لا تجعلن حاجتي بظهر منك ، يعني لا تجعل أمرا أريده منك وراء ظهرك ، والحق يقول : « فنبذوه وراء ظهورهم » أي أنهم جماعة و« ظهور » جمع « ظهر » ، كأن كل واحد منهم نبذه وراء ظهره . وكأن هناك إجماعاً على هذه الحكاية ، وكأنهم اتفقوا على الضلال ، واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون . والمشترى هنا هو الثمن ، والثمن يُشترى به ؛ ولندقق النظر في التعبير القرآني ، فهناك واحد يشترى هذا الأمر بأكلة ، وآخر يشترى هذه الحكاية بحُلَّة أو لباس ، وهناك من يشتريها بحاجة وينتهي ، إنما هم يقولون : نريد نقوداً ونشترى بها ما نحب ، هذا معنى « واشتروا به ثمناً » .

ويعلق الحق على ما يشترونه قائلاً : « فبئس ما يشترون » لماذا ؟ لأنك قد تظن أن بالمال ـ وهو الثمن ـ تستطيع أن تشترى به كل شيء ، ولكن النقود لا تنفع الإنسان كما تنفعه الحاجة المباشرة ؛ لأننا قلنا سابقاً : هب أن إنساناً في مكان صحراوي ومعه

جبل من ذهب وليس معه كوب ماء ، صحيح أن المال يأتى بالأشياء ، إنما قد يوجد شيء تافه من الأشياء يغنى ما لا يغنيه المال ولا الذهب ، فيكون كوب الماء مثلاً بالدنيا كلها ، ولا يساويه أى مال « فبئس ما يشترون » .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾

والحسبان للأمر أن يظنه السامع دون حقيقته ، والأمور التى يظنها السامع تسير أولاً على ضوء الشيء الواضح دون التدبر لما وراء واجهات الأشياء ، فالذين يفرحون بما أتوا نوعان : نوع يفرح بما أتاه مناهضاً لدعوة الحق كالمنافقين الذين فرحوا بأنهم غشوا المؤمنين ، وتظاهروا بالإيمان فعاملهم المؤمنون بحق الأخوة الإيمانية ، حدث هذا قبل أن يكشف الحق هؤلاء المنافقين للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين من بعد ذلك .

ونوع آخر يفرح لما أتاه وجاء به مناصراً لدعوة الحق فالفرح الأول ـ وهو فرح المنافقين ـ ممنوع ، والفرح الثانى مشروع . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

إذن فلم ينه الله عن مطلق الفرح ولكن ليفرحوا بفضل الله . إنه سبحانه قد نهى عن نوع من الفرح فى مسألة قارون :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة القصص)

وهكذا نجد آيات تنهى عن الفرح وآيات تثبت للمؤمنين الفرح ، وتأمرهم به . إذن فالفرح فى ذاته ليس ممقوتاً ، ولكن الممقوت بعض دواعى ذلك الفرح ، فدواعيه عند المؤمن أن يفرح بنصر الله ، وأن يفرح بإعلاء كلمة الحق ، وهذه دواع مشروعة . ودواعيه الممنوعة أن يفرح بأن يقف أمام مبدأ من مبادىء الله ليدحض ذلك المبدأ ، وهذا ما يفرح به الكافر ، ولكن الفرح الحقيقى هو الفرح الذى لا يعقبه ندم ، ففرح المؤمن موصول إلى أن تقوم الساعة ، وموصول بعد أن تقوم الساعة . ولكن فرح الكافر والمنافق وأهل الكتاب الذين يصورون الله على غير حقيقته فرح موقوت وممقوت ، إذن فذلك لا يعتبر فرحاً ؛ لأن الندم بعد الفرح يعطى عاقبة شر ؛ لأن النادم يتحسر دائما على فعله فهو فى غم وحزن .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطى للمؤمن مناعة ، إنكم أيها المؤمنون تواجهون معسكرات تعاديكم . هذه المعسكرات ستفرح بما أتته ضدكم فيجب ألا يفتّ ذلك فى عضدكم ، ولا تحسبنهم إن فعلوا ذلك بمنجاة من العذاب ، ومادام فرحهم سيؤدى بهم إلى العذاب فهو فرح أحمق .

وماذا صنع الذين جاء فيهم القول : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » يحتمل أن يكون المراد هم أهل الكتاب الذين كتموا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الآية السابقة تقول : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم » ماذا فعل هؤلاء إذن ؟ لقد كتموا أوصاف رسول الله ونعته الموجود فى كتبهم وفرحوا بما كتموا ، وبعد ذلك أحبوا أن يحمدوا بما فعلوا من الذين على طريقتهم فى الكفر والضلال .

إن الإنسان قد يأتى الذنب ولكنّه يندم بعد أن يفعله ، ولكنه حين يسترسل فيفرح بما فعل فذلك ذنب آخر ، وهكذا صار إتيان العمل ذنباً ، والفرح به ذنباً آخر ؛ لأنه لو ندم على ما فعله لكان الندم دليلا على التوبة ، أما أن يأتى العمل وبعد ذلك يفرح

به ثم يأتى بعد ذلك الأشد ؛ فيحب أن يُحمد بما لم يفعل ، فذلك من تمام الحمق ، إنه جرم وذنب مركب من فعل آثم ، ففرح به ، فحب لحمد على شىء لم يفعله .

أكان يجب أن يُحمد بما فعل أو بما لم يفعل ؟ بما لم يفعل ، لأنه خلع على أمره غير الحق ، وإذا قال قائل : إنها نزلت فى المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله فالقول محتمل ؛ لأن هؤلاء تخلفوا عن الحرب مع رسول الله وفرحوا بأن متاعب السفر ومتاعب الجهاد لم تنلهم ، وبعد ذلك اعتذروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذارات كاذبة ولو ندموا لكان خيراً لهم،ولم يتضح للمسلمين كذبهم فحمدوا لهم ذلك الاعتذار ، إنهم قد أتوا الذنب ، وفرحوا بأنهم أتوه ، ونجوا من مغارم الحرب ، وبعد ذلك فرحوا أيضاً بأنهم أحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، لأن اعتذارهم كان نفاقاً ، سواء كان هذا أو ذاك فالآية على إطلاقها : للذين يفرحون بما أتوا من مناهضة الحق وذلك فعل ، والفرح به ذنب آخر ، والرغبة فى الحمد عليه شىء ثالث ، إذن فالذنب مركب ، فهم يسترون الأمر ويبينون نقيضه كى نحمدهم ونشكرهم ، والحق سبحانه وتعالى يعطى لهذا دستوراً إيمانياً لمطلق الحياة .

« ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » وهل المنعى عليهم أنهم يحبون أن يحمدوا ؟ أو المنعى عليهم والمأخوذون به أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ؟ إن المنعى عليهم أنهم يحبون،أن يحمدوا بما لم يفعلوا ؛ لأن الإنسان إن أحب أن يُمدح بما فعل فلا مانع ، والقرآن حين يعالج نفساً بشرية خلقها الله بملكات ، فهو يعلم مطلوبات الملكات ، بعض الملكات قد تحتاج إلى شىء فلا يتجاوز الله هذا الشئ ، إنّ الإنسان مطبوع على حب الثناء من الغير ، لأن حب الثناء يثبت له وجوداً ثانيا ، ووجودك الثانى هو أن تعبر عن نفسك بعملك الذى يكون مبعث الثناء عليك ، والناس لا تثنى على وجودك ، لكنها تثنى على فعلك .

ومادام الإنسان يحب الثناء فسيغريه ذلك بأن يعمل ما يُثنى به عليه ، ومادام يُغرى بما يُثنى عليه فسيعمل بإتقان أكثر ، وساعة يعمل فإن المحيط به ينتفع من عمله ، والله يريد إشاعة النفع فلا يمنع سبحانه حب الثناء كى يزيد فى الطاقة الفاعلة للأشياء ؛ لأنه لو حرّم ذلك الثناء فلن يعمل إلا من كانت ملكاته سوية ، وسيفقد

المجتمع طاقات من كانت ملكاته قليلة ، فصاحب الملكات القليلة يريد أن يُمدح ، فلا مانع من مدحه ليزيد من العمل ، ويُمدح مرة ثانية ، وتستفيد الناس ، والذى ينتظر الثناء من الناس تنزل منزلته ومرتبته عن مرتبة من انتظر التقدير من الله ، فهو الذى جنى على نفسه فى ذلك . لكن لابد أن نمدحه كى يعمل بما فيه من غريزة حب الثناء فنكون قد زدنا من عدد طاقات العاملين .

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما عرض لهذه القضية ، وهى قضية تزكية الصالح وتجريم الطالح الفاسد فى قصة « ذى القرنين » يقول تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

كى تعلم أن المُمَكَّنَ لا يُمَكَّنُ بذاته وإنما هو ممكن بمن مَكَّنَهُ ، فلو كان عنده تفكير إيمانى ، لما أغرته الأسباب أن يتمرد ؛ لأن الإيمان يعلمه أن الأسباب ليست ذاتية . ومن أجل أن يثبت الله أن الأسباب غير ذاتية فهو ينزع الملك ممن يشاء ، ويهب الملك من يشاء ، نقول له : لو كانت الأسباب ذاتية فتمسك بها ، لكن الأسباب هبة من الله « وآتيناه من كل شىء سببا » وحين يأتيه الله الأسباب فالأسباب أنواع : سبب مباشر للفعل ، وسبب متقدم على السبب المباشر ، فأنت إذا ارتديت ثوباً جميلاً ، فوراء ذلك أنك أتيت بالقماش الذى نسجه النساج ، والنساج استطاع إتقان عمله بعد أن قام الغزّال بغزل القطن ، والقطن نتج لأن فلاحاً بذر البذور ورعى الأرض بالحرث والرى . فأنت إن نظرت إلى الأسباب المباشرة المتلاحقة فانظر إلى نهاية الأسباب ، وستصل إلى شىء لا سبب له إلا المسبب الأعلى وهو الله ـ جلت قدرته ـ .

وسلسل أى شىء فى الوجود ستجد أنك أخيراً أمام سبب خلقه الله ، مثال ذلك النور الكهربى الذى تتمتع أنت به . ستجد أن المعمل قام بصنع الزجاج الخاص بالمصابيح الكهربية ، ونوع من المصانع يصنع الأسلاك الموجودة بالمصباح ، وستنتهى إلى شىء موجود لا يوجد فيه بشر ، فتصل إلى الحق سبحانه وتعالى .

أنت مثلاً جالس على الكرسي . وقد تقول : لقد صنعه النجار والنجار جاء بالخشب من البائع ، والبائع جاء بالخشب من الغابة ، فمن أين جاء الخشب إلى الغابة ؟ تقول : لا أعرف ، أما إذا كان عندك الحس الإيماني فأنت تقول : أوجده الله . وحين تنتهي الأسباب وسلسلتها نجد الله الخالق « إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببا » فعندما أعطاه الله الأسباب جاء هو بالوسائط فقط ، إذن فالأصل كله من الله .

ويتابع الحق : « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة » هذا في عين الناظر فقط ، فأنت حين تركب البحر ثم ترى الشمس عند الغروب تغطس في البحر ، وعندما تذهب للمنطقة التي غطست الشمس فيها تجد الشمس موجودة ؛ لأنها لا تغيب أبدا، إنما «تغرب في عين حمئة» أي فوجد الشمس في نظره عند غروبها عنه كأنها تغرب في مكان به عين ذات ماء حار وطين أسود . ويتابع الحق : « ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » .

والناس تفهم أن هذا تخيير ، يعني إما أن تعذبهم ، وإما تُحسن إلى من كنت تعذبهم ، لكن الدقة والتمعن يوضحان لنا أن الحق قد أعطى تفويضاً لذى القرنين ، بقوله : « إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » فَفَهِمَ ذو القرنين عن الله التفويض ، ولم يأخذ التفويض وافترى ، بل قال : « أما من ظلم فسوف نعذبه » . وليس هذا هو العذاب الذى يستحقه ، لا ، نحن سنعذبه في دنيانا كي لا يستشرى فيها الشرّ . وفوق ذلك سيعذبه الله عذاباً آخر .

« أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يردّ إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا » إنه أولاً لم يصف عذابه بنكر ، إنما وصف عذاب الله فقال : « فيعذبه عذاباً نكرا » ، لأن عذاب البشر للبشر على قدر البشر ، لكن عذاب الله يتناسب مع قدرة الله ، فهل لنا طاقة بهذا العذاب والعياذ بالله ؟ ليس لنا طاقة به ، وماذا عن موقف ذى القرنين من الذى آمن ؟ إنه موقف مختلف .

يقول الحق : « وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا

يسرا » هو يجازيه بالحسنى ويعطيه المكافآت ويكرمه ، وعندما يتساءل من يحب الثناء قائلاً : لماذا كرّم هذا ؟ ويرى أسباب التكريم فيقول لنفسه لأصنعنَّ مثله كى أكرّم . ولذلك تجد الشباب يتهافت حتى على اللعب بكرة القدم لماذا ؟ لأنهم يجدون من يضع هدفاً فى كرة القدم يكرّم ، فيقول : أنا أريد أن أضع هدفاً .

هذا وإن ديننا الحنيف يدعونا إلى أن نشكر من قدم خيرا أو أُسدى معروفا حفزاً للهمم وتشجيعا لبذل الطاقات وفى الأثر : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » إذن فحب الثناء من طبيعة الإنسان ، ولكى تُغرى الناس بأن يعملوا لابد أن تأتى لهم بأعمال تستوعب طاقاتهم المتعددة ، أما إذا اقتصر إتقان العمل على من لا يحبون الثناء ، فستقلل الأيدى التى تفعل ، ولذلك تجد العمل حيث توجد المكافأة التشجيعية التى يأخذها من يستحقها ويقابلها من التجريم والعقوبة لمن يهمل فى عمله ، فلا يمنح رئيس عمل مكافأة لمن عملوا على هواهم ، بل عليه أن يمنحها لمن أدى عمله بإتقان . وحين يعلم الناس أنه لا يجازى بالخير ولا يكرّم بالقول إلا من فعل فعلاً حقيقياً فالكل يفعل فعلاً حقيقياً ، لكن عندما تجد الناس أن المكافآت لا يأخذها أحد إلا بالتزلف وبالنفاق وبالأشياء غير المشروعة فسيفعلون ذلك ، وهكذا تأتى الخيبة .

وهكذا نجد أن قوله الحق : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » .

إن هذا القول يضع أساساً ودستوراً إيمانياً لمطلق الحياة ، وعلاقة الحاكم بالمحكومين ، وعلاقة الفرد بنفسه وبمن حوله . وعلاقة الإنسان بالعمل الصالح أو بالذنوب ؛ فالإنسان إذا ما أتى ذنباً ، فربما يكون قد نفَّس عن نفسه بارتكاب الذنب ، لكن بعد ما تهدأ شِرّة المعصية يجب عليه أن ينتبه فيندم ولا يفرح . هذه أول مرحلة . ولا يتمادى فى ارتكاب الذنب ، أما إذا تمادى وخلع على فعله النقيض وادّعى أنه قد أتى فعلاً حسناً حتى يناله مدح بدلاً من أن يناله ذم فذلك ذنب مركب ، ويحشره الله ضمن من قال فيهم : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » .

والمفازة هى المكان الذى يظن الإنسان أن فيه نجاته ، أى أن فى هذا المكان فوزاً

له ، ويطلقون كلمة « مفازة » على الصحراء إطلاقاً تفاؤلياً ، لا يسمونها « مهلكة » لأن الذى كان يجوبها يهلك فسموها « مفازة » تفاؤلاً بأن الذى يسلكها يفوز ، أو أن الصحراء أرض مكشوفة ، ومادام الإنسان قد وصل إلى أرض مكشوفة فلن يصادف ما يخافه من حيوانات شرسة أو من وافدات ضارة كالحيّات ، أو من عدو راصد ، وفى ذلك فوز له ، لأنه تجنب هذه المخاطر ، إنه إن سار فى الجبال والوديان فمن الممكن أن تستتر عنه الوحوش المفترسة أو الهوام أو تستتر عنه الذين يتتبعونه فلا يتوقاهم وقد يصيبونه بالأذى ، فإذا ما ذهب إلى الأرض المكشوفة نجا من كل هذا لأنه ينأى ويبتعد عنهم ، وتكون التسمية على حقيقتها ، ومن يرى أن الصحراء مهلكة فليعرف أنها سميت « مفازة » تفاؤلاً ، كما يسمون اللديغ الذى لدغه الثعبان بـ « السليم » .

ونحن فى أعرافنا العادية نتفاءل فنضع للشىء اسماً ضد مسماه تفاؤلاً بالاسم ، مثال ذلك : إذا كنت فى ضيافة إنسان وقدم شراباً . قهوة مثلاً ، وبعد أن نشرب القهوة يأتى الخادم فيقول من قدم لك القهوة لخادمه : تعال « خذ المملوء » ولا يقول : « خذ الفارغ » وهذا لون من التفاؤل .

«فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » هم يظنون أنهم بمفازة من العذاب برغم أنهم لا يؤمنون بالحق ، ولا يؤمنون بسيطرة الحق على كل أحوالهم وكل أمورهم فهم يظنون أن انتصارهم فى معركة الدنيا لا هزيمة بعده ، ولكن الحق بعد هذه الآية قال :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر